الكتاب للجميع

١١٣

السفير



مجانا مع جريدة السفير

ميخائيل سادوفيانو

# البلطة





ترجمة: يحيى حقي



5785

مجاناً مع جريدة السفير

السفير


صاحبها ورئيس تحريرها: طلال سلمان
المدير العام: ياسر نعمة
مدير التحرير: ساطع نور الدين
المدير المسؤول: غاصب المختار



التحرير والإدارة: شارع منيمنة/الحمراء/بيروت
تلكس SAFIR 21484 LE
فاكس ٣٥٠٠٠٥ - ٧٤٣٦٠٢
ص.ب: ٥٠١٥/١١٣/٥٠١٥/الحمرا - بيروت ١١٠٣٢٠١٠
انترنت http://www.assafir. com
Coordinator@assafir. com



- تمت الطباعة في مطابع جريدة السفير
- تلفاكس ٧٤٣٦٠١/٢/٣/٤-١١-٩٦١+


الكتاب للجميع

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

الاشراف الفني
محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان - بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com




١١٣

ميخائيل سادوفيانو

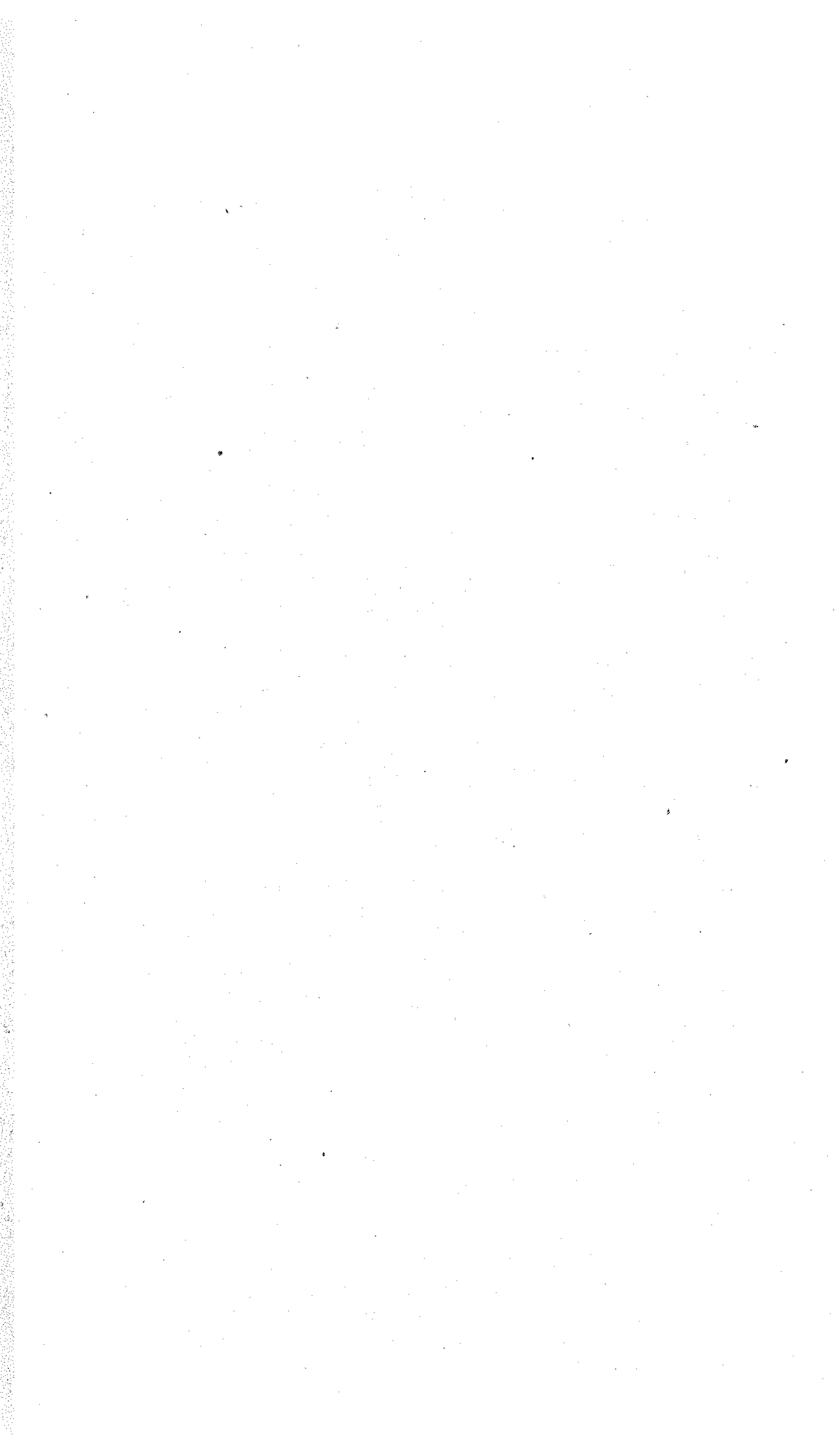
# البلطة

ترجمة: يحيى حقي

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (السفير)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠١١

الطبعة الأولى
١٩٤٩



# مقدمة

كلما تقدم بي العمر نحو الشيخوخة قل إقبالي على قراءة الروايات. ولا أظنني نافراً على قرنائي.

كأن الحياة بعد أن قلبتني طويلاً على فراش التجارب تهمس لي بعتاب:

- أما كفاك ما قرأته بنهم من الروايات إلى حد التخمة؟ إلى متى تسلم قيادك لخيال مخلوق مثلك يسرح بك كما يشاء وأنت قعيد؟ لماذا تتنازل في حق خيالك أنت في السرحان حتم أن يظل عالة على غيره هي تلفيق في تلفيق وأكثرها لا يضره تلخيصه في عبارة موجزة. ما أشبهها بالبخت الذي يشتريه طفل يغرر به،يفض غلافاً مزوقاً بعد غلاف ثم لا يعثر إلا على قطعة من حلوى رخيصة لا تساوي نصف الثمن الذي دفعه، أو مطرقة ضخمة لكسر بندقة،وعقل إلكتروني تسأله كم جمع واحد وواحد، وما أقل الروايات التي أصابتك بهذه الهزة الروحية التي تعهدها من قراءة بيت واحد من روائع الشعر، كأنه عصارة الحكمة والتأسي لقدر الإنسان أو ضوء خاطف يكشف لك في لمحة واحدة سرائر البشر والأشياء، وكان العقاد من هذا الرأي.

- أليس الأجدر بك أن تصرف فائض همتك ونور بصرك إلى قراءة التاريخ والسياسة والاقتصاد وتتبع الجديد من غزوات العلن للكشف عن قوانين الكون وقوى الطبيعة وسر الخليقة، وكأن هذا الجهد كله مبذول لمعاونة العلوم الإنسانية في نهاية

المطاف على حل هذا اللغز المسمى بالنفس وإدراكها، ليكن سعيك وراء الحقائق، الواقع لا الوهم.
قد تقول:
- التاريخ يتلون بلون كاتبه، فأنت تتلقاه عبر التواءات إنسان تتسلق على خياله وحقائق العلم.
بإقرار رهبانه نسبية مستقرة ولكن لأجل، هي في نهاية الأمر مجرد فروض، ويكون الجواب:
- ليكن الحال كذلك، ولكنه يكفيك لكي تتصف بأنك تعيش في عصرك غير متخلف عنه، ملماً بتفسيراته وفروضه، هذا أقصى حد تبلغه الطاقة والغنم لمن يقتصر على التلقي من غيره دون إضافة من عنده.
وحين جريت وراء الحقائق وجدتني لا أسلم من الجفاف، بالعزلة عن (الآخر) الذي يقاسمني حمل الحياة وتحديات العصر، هيهات: كما أرى نفسي إلا بانعكاس عليه، الرواية تنفرد بقدرتها على أن تنفذ بك إلى تحت جلد هذا (الآخر) وبالأخص بعد أن أصبحت وعاء لروائع الفكر، لم تعد الرواية تقصد التسلية، بل معالجة قضايا وجود الإنسان، غير ناظرة إليه مفتتاً كما تفعل العلوم، بل تتناوله كلاً متكاملاً، الإنسان في الرواية ليس بطاقة أو رقماً أو ملفاً أو رسماً بيانياً أو نبتاً منتزعاً من جذوره، بل كائن ينبض بالحياة، مندس في نسيج معقد من علاقات متبادلة تجمع بين النقيضين، فهو فذ ومتشابه، متفرد وملتحم.
من خلال تلفيق الرواية نصل إلى الصدق ومن خلال أبطالها تصل نفسك وإلى (الآخر) في هذا الكلام تأييد لرأي قرأته للناقد ريتشارد هيوز وقد سدده بحجج كثيرة.
تركت للصدفة وحدها أن تختار في هذه المرة رواية أقرؤها، حددت يداً عشواء إلى مكتبي وانتزعت من كوم كتاباً لا أذكر -حتى- متى ملكته أو كيف وصل لحدي، ظل في رقاد طويل ولكنه يعلم أنه لا يموت.
لم يخدش النسيان كرامته أو كنوزه، نفض الغبار في هذا اللقاء هو عني وليس عنه، رضيت أولاً بمظهره لأني وجدته يصلح لأن أقرأه وأنا ممد في الفراش، الحروف غير منمنمة، والحجم صغير، يصونه دون أن يثقله غلاف متين. لا أعرف مؤلفه، لم يسبق لي أن قرأت له أو عنه، لك مؤلفون تحبهم ولكن- من يدري كم هناك من هم

أجدر بهذا الحب غير أنك تجهلهم لم يجمعك بهم دليل أو صدفة، لم أكد أمضي في القراءة باستهتار حتى شد الكتاب كل انتباهي إليه، وشعرت بمتعة وراحة كبيرة، وعددت الصدفة هداية حميدة، كأنها علمت ماذا كان دائي وعلاجي.

فقد كنت يومئذ أضيق بشيء من السأم، من دوي أحاديث الأذكياء البارعين من حولي، يعرفون كيف يستلون الشعرة من العجين، ثم كيف يشطرونها بالعرض شطرين، يفتون على الإبرة بكلام يملأ مجلدات لا حمد لهم، لا يعجبهم العجب، لا يعرفون لذة الدهشة، من تعاليهم فقدوا الاتصال بالفطرة، الأحب لديهم وصف نفوسهم بالمرارة لا بالعذوبة، المذهب الكلبي له المجد عندهم، التوت به تفسيراتهم وغاض ماء الطفولة في قلوبهم، فهم شيوخ أياً كان عمرهم.

شفاني الكتاب الذي قرأت صدفة فقد وجدتني أعاشر فيه قوماً بسطاء لهم التصاق شديد بالفطرة، بالأرض، بالناس، بالحيوان، بالنبات، بالدين، بالتقاليد. الحياة عندهم جلية مألوفة مواتية، ومع ذلك فهي متجددة السحر والتحديات، لهم تسليم مطلق بالغيب ونظرة عملية ترسم لهم سلوكهم في الحياة.

الخرافات عندهم أعضاء دائمون في مجلس إدارة الشركة، شيوخ لهم توقير لأنهم رائحة الآباء والأجداد لهم مشاركة في التداول، ولكن ليس لهم حق التصويت، مرجعه للأعضاء ورثة العقل والحكمة والخبرة، ورثة المكر أحياناً اتسعت رقعتهم لجميع العواطف الإنسانية، ولكن هي عندهم خام فهي أقوى وأصدق فإذا أردت أن تعرف كيف يكون بلا زيف وافتعال مسلك الصبية إذا نهدت واستيقظت أنوثتها، فمن صبية عندهم تجد المثل الكامل ومن امرأة أم لأولاد كبار لا تزال مشغوفة بزوجها ملهوفة عليه تعرف كيف يبرأ الحب من الخجل في الإنسان السوي في مجتمع غير مريض، قوم بسطاء، الكل يحسب حساب الغد وراض في آن واحد بقسمته، ولا يمتنع عندهم على زوج يفدي بحياته زوجة تعبده من أن يؤدبها بالضرب أحياناً ليطرد من بدنها عفاريتها الزرق ثم ينسى الاثنان الذنب والجزاء كأن شيئاً لم يكن..

وشفتني هذه الرواية من سأم آخر، فقد كانت تلاحقني روايات عديدة بارعة الذكاء هي أيضاً، مستغرقة في الرمز، أحياناً كل الوضوح، فل أدري هل أرثي للقارئ الذي طلب إليه أن يجيب عن أسئلة امتحان للأطفال، أم أرثي للمؤلف لأنه سمح لكرامة رجل الفكر أن تتحول إلى بهلوان مفضوح الحيلة، روايات لا تحترم الترابط الذي يتيح لنا متابعة ذهن المؤلف وتسلسل الحوادث، روايات سمرت ذهن

المؤلف وتسلسل الحوادث، روايات سمرت نظرتها على العدم والضياع وفي كلمة روايات كأنها أحاجي أو فوازير أو هذيان أو كابوس.

شفتني الرواية التي قرأتها صدفة لأن حديثها واضح والزمن كما نعهده.

يمشي بلا قفز إلى الوراء وإلى الأمام، بسيطة هي كل البساطة، لأنها تروى حياة قوم بسطاء، ومع ذلك فقد استطاعت بهذه البساطة أن ترسم لك كل الأشخاص في صورة بينة نابضة بالحياة فتحس أنك تعرفهم بل أنك تخالطهم، تشهدهم في بيوتهم وتسايرهم في ربوعهم وتلتحم مثلهم بطبيعة أرضهم وأوضاع مجتمعهم، عنايتهم برسم الأشياء لا تقل عن عنايتها برسم الأحياء، وتكاد أنها تحس عن طريق التحديد وصلت إلى التجريد، ومن الفرد المشاع إلى النمط.

* * *

شفتني هذه الرواية أيضاً من لهفة أخرى. فقد كنت أحلم برحلة، وحبذا من الضد إلى الضد، تجديداً للنفس ونفضاً للسأم عنها.

فرحلت بفضلها من وادينا المنبسط تحت سماء زرقاء وشمس ساطعة، وانتقلت إلى قمم جبال شاهقة، تغطيها الثلوج، أخذتني رجفة البرد وتدثرت بمعاطف من فرو الأغنام، فأهل الجبل رعاة، عشت في صحبتهم مع أغنامهم بجوار مستنقع ببطن الوادي في الشتاء وفي سفوح الجبال بالصيف، شممت رائحة الجبن الأبيض واللبن الأبيض واللبن الزبادي وهذه الزخمة النفاذة من جلود مدبوغة، عشت على حافة غابات كثيفة، وسمعت رنين الأجراس في قاب القطيع، عرفت وجهاً من جمال الطبيعة وسحرت به.

ارتددت بعده وأنا أشد إدراكاً وحمداً لجمال الطبيعة في وادينا، واقتناعاً بأن بساطة الرعاة هناك هي صورة فكرية مكررة لبساطة فالحي الأرض في بلدي، الطبيعة واحدة وإن اختلفت الأجداد والأسماء واللغات والأديان.

هذه الرواية من الأدب المعاصر وموطنها بلاد رومانيا، وتجري حوادثها في منطقة الكربات الجبلية وتروي مأساة هبطت على أسرة من الرعاة، خرج عميدها نيقيفور ليبان ليشتري النعاج من سوق بعيدة، فقتله اللصوص بالبلطة وانقطعت أخباره عن زوجته فيكتوريا، رأت أحلاماً وسمعت صيحة ديك على باب بيتها فأيقنت أنها إنذار لها بأن شراً قد حاق بزوجها وبعد أن استشارت الفال وأودعت بصيص أملها في السحر، أدركت أن لا بديل لها من أن تتولى أمرها بنفسها، لا

تعتمد على أحد، لا تسترشد إلا بعقلها، فإذا بها المرأة الجاهلة المسكينة قعيدة البيت تتفجر بقوى لا يملكها أعتى الرجال إرادة وعزماً وإصراراً ومجابهة للمخاطر بشجاعة، تركت بنتها الصبية مينودورا في الدار وكان ينقصها بلوغها سن النضج فركبها دلع العذاري وهفت إلى الحب والمغازلة، سراً من وراء ظهور أهلها، واصطحبت فيكتوريا ابنها الصبي غيورغيتا -وهو راع مثل أبيه- وركبت معه الزحافة، تشق بها دورباً وعرة في أرض مجهولة، حجت أولاً إلى دير للتشفع بالسيدة مريم والقديسين، ثم مضت في طريقها تتبع أنباء زوجها حتى بلغت مكان مصرعه، وكشفت سره وثأرت له من قتلته، ليست هذه الحوادث البوليسية بل ظل هذه الأم هو الذي يطغى على الرواية كلها، إنها تمجيد للمرأة، للأم، وإن كانت البطلة امرأة مسكينة جاهلة، ولكن أين منها أشجع الشجعان فالرواية في آن واحد تشد انتباهك وتستدرجك لمتابعتها بفضل حوادثها ترقق قلبك بفضل فيضها الزاخر، بالعواطف الإنسانية في توازن محمود.

واسم الرواية هو البلطة، والبلطة هي الأداة المفضلة عند الراعي، بها يقطع الحطب لمدفأة، ويشق طريقه وسط لفيف الغابات ويدافع عن نفسه من غوائل اللصوص وقطاع الطرق، فتهوى حينئذ من يده كما تهوى الصاعقة.

ومؤلف الرواية هو كاتب رومانيا المعاصر، ميهاييل (ميخائيل) سادوفيانو، له عدة روايات ومجموعات كثيرة من قصص قصيرة، لا داعي لأن أذكرها لأن لك هنا، تستطيع أن تجدها في المراجع، يكفي أن أقول لك إنه نال كثيراً من الجوائز الأدبية في بلده وفي الاتحاد السوفيتي وترجمت أعماله إلى لغات عديدة، إنه يميل إلى وصف القرية وحياة الرعاة والفلاحين وخصائص الطبيعة في بلاده ويسجل في بعض رواياته أيضاً تاريخ شعبها وكفاحها الطويل ضد الغزاة، وله مشاركة نشيطة في الحياة السياسية في رومانيا، فأنت تتعرف في رواياته - بصفة خاصة- على ريف رومانيا وعاداته وتقاليده وخرافاته وتعد أعماله بحف ملحمة الفلاحين والرعاة في موطنه.

وميهاييل سادوفيانو رجل أشقر عملاق، وكان قد أهديت له ذات يوم بلطة على صفحتها زخارف من رسم الزهور، يرجع صنعها إلى القرون الوسطى تناولها بيده القوية وشرع يتحسس بأصبعه حدها المرهف وهو يتخيل الضربات الفظيعة التي تهوي بها هذه البلطة وشدة خطرها في يد الأشرار، يتأملها ويسألها كم سجلت

بأحرف من دم فتكت لها في دروب جبال يعرفها كما عرفها آباؤه وأجداده حق المعرفة.

احتلت البلطة ذاكرته ورقدت ونعست، قد لايتحدث عنها ولكنه لا ينساها ومر زمن طويل، إلى أن جاء ذات يوم راع هرم يزوره بين الحين والحين، هو رب قصص وحكايات ونوادر، روى له من قبيل السمر إحدى فتكات بلطة مماثلة وقعت في ربوع دورنا.

وظل حديث هذا الراعي يشغل فكره، فإذ به يعلن بعد أيام قليلة بلهجة حازمة كالعهد به، عزمه على السفر إلى دورنا، كان قد رسم لبطلة روايته الطريق الذي ستقطعه، فتتبع في سفره هذا الطريق، يسير فيه أثر خطاها لا تفارقه البلطة المهداة إليه كأنها شبح ملازم لا يطيق بعاداً عن صاحبه، وتجاوز دورنا وصعد الجبال حتى بلغ أعلى قمة لها تسمى صليب الطليان، لفح وجهه هواؤها البارد وملأ أنفه ورئتيه، كما حدث لفيكتوريا بطلة روايته، وأطل على الصمت المخيم على أغوار سحيقة تتكتم أسرارها، وروى له الريح والسحاب مأساة تيقيفور ليبان كلمة كلمة ثم نزل إلى سهل سوبا حيث شاء له خياله أن يكون، موضع دفنه وثأر زوجته من قاتليه فتعود بعده إلى قريتها قريرة العين راضية النفس بأن عظام زوجها تثوي في أرض الآباء والأجداد.

وعاد ميهاييل سادوفيانو من سفره، ها هو ذا جالس إلى مكتبه، إنه يقيم في مدينة كوبو في بيت كأنه حصن صغير، له برج وجدران غليظة، تحسبه إذا رأيته أن بين جوانبه ناراً تتقد وتلتهمه ليلاً ونهاراً، يكتب فيملأ صفحات عديدة مسطرة بأحرف دقيقة جميلة، تتقاطر إليه الألفاظ ليخبره كل لفظ ينبئه ويهبه ما عنده، تعطف وتتساند كأنها ترى صورتها حين تخرج من قلمه، تحاشاه أهله وكلابه، انصرفوا عنه يسحبون الضجة معهم، ومضى العملاق يكتب بلا انقطاع، فإذا تريث لحظة خرج لنزهة في الحديقة وقد وضع على كتفيه حرملة فضفاضة، لا يخطئ من يراه حينئذ أن يلحظ أن جبهته التي خيمت عليها دلائل الاستغراق في التفكير معمل كيميائي لا ينقطع شغله، وجباته خفيفة وسريعة وكثيراً ما ظل النور مضاء بحجرة نومه ساعات طويلة، حمى شديدة مفترسة ولكنها قصيرة العمر، لم تدم أكثر من عشرة أيام، هكذا كتب كل مؤلفاته الأربعين باندفاع متصل ونفس واحد، وأخيراً وصل إلى النهاية، المخطوط كامل فوق مكتبه، واضح الخط بلا إضافة بين السطور، بلا شطب لكلمة.

وصدرت رواية البلطة في العام الذي بلغ فيه الخمسين من عمره (سنة ١٩٣٠) فتلقاها النقاد والقراء بحماس كبير وبلغ من شهرة هذه الرواية أن مؤلفها عاد بعد سنين إلى شواطئ نهر سويا التي جعلها مسرحاً لروايته فأخبره الناس هناك أنه لم يأت إلى ربوعهم زائر غريب إلا سأل أين قبر نيقيفور ليبان، أصبح عندهم جدثاً يزار كما يزور الفرنسيون قبر "غادة الكاميليا"

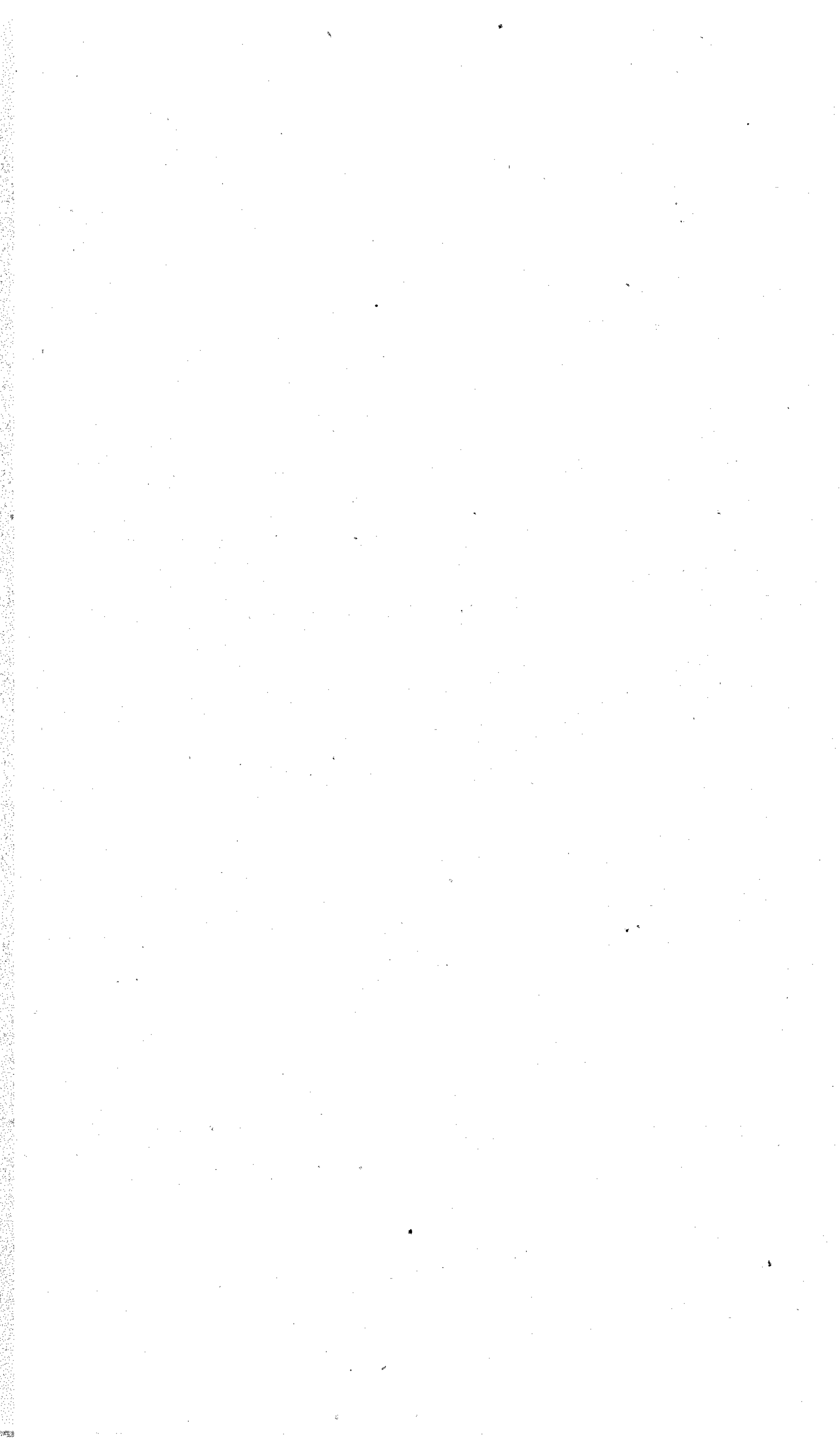
* * *

رواية قرأتها صدفة، أرجو أن تقرأها صدفة، وأن تشفيك -أياً كانت قيمتها عند النقاد- من سأم وقراءة الروايات الشديدة الذكاء الغارقة في الرمز والتعقيد، ستشملك كل العواطف الإنسانية لقوم بسطاء يستريح قلبك لمعاشرتهم، وأرجو أن تحتمل تحدث الرعاة من أهل الجبل في رومانيا بالعربية الفصحى فليست العبرة إلا في ترجمة الفكر وما اللغة إلا طريق يؤدي إليه، فإذا التزمت الأمانة والصدق زال الحرج الناشئ من اختلاف الخصائص بين لغة وأخرى.

* * *

أتمنى أن تحرك البلطة همة كاتب عندنا من أهل الريف ليكتب عنه كما كتب ميهاييل سادوفيانو عن ريف بلاده ملحمة إنسانية تعبر الحدود.

**يحيى حقي**



# الفصل الأول

ما أن خلق الرب الأرض حتى أقامها على موازنة حكيمة، فأغدق على كل جنس من البشر بعطية ينفرد بها:

ألهم الغجري براعة العزف على القيثار.

وأفضى إلى الألماني بسر (بسر) صناعة الحديد.

واصطفى موسى من بين اليهود وناداه وأمره قائلاً:

- أما أنت فستكون كاتب الشريعة وحين تدق الساعة فحتم (أن يقتل الفرنسيون المسيح، ابني الحبيب، ثم من بعد تلقون من العذاب والاضطهاد أشكالاً وألواناً، ولقاء ذلك سأجعل المال يتدفق في أيديكم، وأشار بأصبعه يستدعي المجرى، واختار له طرفته من بين أكوام الهدايا المكدسة إلى جانبه ومدها إليه قائلاً:

- حذاء راكب الخيل ومهمازه هما لك، خذهما، ولك أيضاً هذا الزيت لتدهن به طرف شاربك فيلمع، سيكون من شيمتك الغرور، وحب اللهو في المآدب مع الخلان، ولما جاء دور التركي قال له:

- فرزت لك الحماقة، وعوضتك عنها بسلطان لك ممدود بحد السيف وتناول الجاروف ووضعه في يد الصربي ليفلح به الأرض، ثم دعا أعيان قومه وأمراءهم إلى فنجان قهوة ونرجيلة، وقال لهم مآلكم إلى الانغماس في الفجور والرذيلة والإثم، فطيبوا خاطري بالإكثار من تشييد الكنائس والأديرة.

وأوشك العرض أن ينتهي فإذا بأهل الجبل يقدمون ويركعون أمام من لا عرش يعلو عرشه، فرمقهم الرب بعطف وإشفاق وقال لهم:

- وأنتم أيها المساكين، لماذا طال تأخركم فلم تحضروا إلا بعد فوات الأوان.

- إذا كنا تأخرنا يا مولانا فلأننا مع قطعاننا وحميرنا، ومشيها بطيء، ونحن نرقى الجبل الوعر ونهبط إلى القيعان ونشقى ليلاً ونهاراً في صمت لا يطرق سمعنا إلا رنين الأجراس في رقاب السائمة، يعيش نساؤنا وأطفالنا في قبضة الصخور، الصواعق والبروق وسيول الأمطار تتساقط من السماء فوق رؤوسنا (وقلوب تتعطش للسهول الفسيحة والحقول الخصبة والمياه الوادعة.

أجابهم الرب بأسف ماذا أفعل لكم وقد تأخرتم فلم تلحقوا العرض، إنني أحبكم كل الحب، ولكن لم يبق عندي ما أعطيه لكم فاحتفظوا إذن بما سبق لكم نواله، غاية ما أستطيع أن أفعله أن أهبكم قلوباً سمحة حتى يروق لكم ما تملكون، وليكن كل شيء مبعث بهجة لكم، وليكن في ربوعكم مطاف كل عازف قيثار، وكل مدير كؤوس، وسأجعلن نساءكم ودودات قدر ما هن جميلات.

يروق لنيقيفور ليبان أن يروى هذه الأسطورة في حفلات التعميد والزفاف وهو ضيفها الوفي الدائر عليها جميعاً طوال أشهر الشتاء، ويزعم أنه سمعها من فم راع هرم كان في صباه على ذمة اليهود ولكن ربه أكرمه فهداه في أواخر أيامه إلى الدين الحق، تجاوز علمه مطالب مهنته وأحاط بكثير مما هو خاف على غيره من ذلك أنه أصبح عالماً بفك الخط وكتابته، وهو أمر نادر بين الرعاة أمثاله وعنه أيضاً سمع نيقيفور كثيراً من الحكم والأمثال، يدسها بتوفيق في أحاديثه إذا طرأت مناسبتها.

- لا أحد يستطيع أن يثبت فوق ظله.

أجابته زوجته فيكتوريا وهي ترمقه بنظرة مستنكرة.

- ماذا تعني بقولك هذا؟

- أعني أن الذين لهم آذان هم الذين يسمعون.

راضت الزوجة نفسها على تفسير لكلامه يقنعها، ولكنها -شأن كل النساء- مجبولة على الريبة مسارعة أبداً إلى الرد بحدة على كل مساس بها ولو لم يزد عن خدش دبوس، أجابت:

- ربما صدق قولك يا عم ولكن من المألوف أن البحبحة في الكلام تقترن بقلة العلم، فمن لم يتحقق يتمشدق.

أجابها ليبان وهو يتصدى لاستفزازها له:

- من الذي تعنين؟
- أعني المحتالين الذين يبدون للناس في زي العلماء.
- حقا؟ خبريني عن هؤلاء المحتالين وهؤلاء العلماء من هم؟
- ما أدراني، ولو سألتني لما عرفت كيف أجيبك.
- ها هي امرأتي قد تلبسها الشيطان من جديد.
- كلا وربي، ما الشيطان إلا الماثل أمامي.

عادت هذه الأسطورة وهذا النقار إلى ذهن فيكتوريا وهي جالسة وحيدة على عتبة بيتها، تعمل بمغزلها تحت ضوء سماء الخريف، عيناها في لون بني، كأنما تعكسان أيضاً أطيافاً من لون شعرها، امتدت منهما نظرة تاهت في الفضاء وأخذ مغزلها يدور ويدور دون أن تلتفت إليه، وتحت غابات من شجر الصنوبر تتناثر مساكن القرية، أسقفها مغطاة بقطع صغيرة، أسقفها مغطاة بقطع صغيرة من خشب السنديان، وتحوطها أسوار من جذوع خام، ونهر (تاركا) ينساب بين الصخور يلمع ويتعرج كمسار البرق ثم يغيب في لفة من ضباب كثيف.

عينا فيكتوريا متوهجتان، بقي لهما شبابهما، إنهما الآن تتفحص بهما الأفق المجهول.

كان نيقيفور ليبان قد سافر إلى مدينة دورنا ليشتري النعاج وها هو ذا عيد القديس أندريه يقترب دون أن يعود، حاولت فيكتوريا من أعماق وحدتها أن تصل إلى زوجها بفكرها، لم تفلح في تبين وجهه، ولكنها التقطت صوته وتمثلت هذا الصوت يحكي لها الأسطورة بعين الكلام الذي حكاها به أول مرة. لم يسقط منها لفظ أو يختلف، لم تضف إليها إلا بضعة أوصاف للسهول الفسيحة والحقول الخصبة والمياه الوادعة. هي أوصاف من عندها، منبثقة من تشوف قديم، وحين أخذت تردد هذه الأوصاف اغرورقت عيناها بالدموع، ما أشق حياة أهل الجبل، وخاصة على نسائهم فمقارنة الأزواج لهن إذا رحلوا ترمل لا ينتظر يومه، وهذا هو حالها الآن.

وإذا انتمى الرجل إلى أهل الجبل فحتم عليه أن يسعى لكسب قوته اليومي، حاملاً في يده بلطة كبيرة أو خطافاً -اسمه المصطلح عليه عندهم هو النمس- أما الذين تكون البلطة أداتهم فإنهم يقطعون أشجار الصنوبر في الغابات ويدفعونها إلى ضفاف نهر (بستريتا) ثم يصنعون طوفاً يركبونه معها إلى أن يبلغ بهم مدينة

(حالاتزي) في آخر الدنيا وإذا عمل الرجل بجد استطاع أن يملك حظائر على الجبل فيقيم بها في وحدة وانقطاع لا شاهد عليه إلا ربه، إلى وقت أن يبدأ النهار في القصر، وإذا أنذر الجو بأنه سيسوء هبط إلى السهول وأنزل قطعانه بأرض تتوافر فيها المستنقعات وبقي بها إلى أن يمر فصل الشتاء، في مقامه هذا تصبح الحياة مقامها أيضاً ولكنها تطلب المستحيل، فالحر شديد هناك في فصل الصيف، ويضاف إلى هذا المانع أن أهل الجبل منغرزون في الأرض التي ولدوا عليها، حالهم كحال أشجار الصنوبر.

برهن نيقيفور ليبان دائماً انه راع صادق الخبرة بمهنته، فحظائر غنمه حسنة الترتيب، وأوامره لأعوانه مطاعة، وزعماء الرعاة أمثاله لا يجيدون سرد الحكايات فحسب، بل يعرفون أيضاً أسرار صنعة اللبن الخاثر والجبن القابل للتخزين، تصلهم خطابات وطلبات شراء من أماكن بعيدة من بنادر تقام فيها أسواق ولها أسماء غير مألوفة لديهم، فكان ليبان يقصد القس دانيلا ليفك له رموزها، ثم يعرج على الحانة ليشرب مع رفاق من أهل الجبل، كلهم رعاة مثله، على علم بأشغال مهنتهم، وما تكاد الأنوف في المرتفعات بنهر "تاركاو" تتشمم في الجو أن نيقيفور وصلته أنباء يزيط لها ويخشخش جيبه حتى يهرع عازفو القيثار -كأنما تطاردهم كلاب صيد- إلى حانة المعلم بودان، ليتئذ يعود نيقيفور إلى داره آخر الليل، مشوش الشعر، وتحسب زوجته أن من واجبها أن تؤنبه وتزجره فيجيبها وهو يضحك ويمسح على شاربه: طيب، طيب، خلصينا، مالك قد ركبك سبعة عفاريت، إلى هذا الشارب البني اللون، إلى عينين من تحت حاجبين كثيفين إلى هذا الطالع بجسد عفي مدكوك تثب من فيكتوريا نظرة خاشعة، فهذا هو حبها منذ عشرين سنة أو أكثر، أنها أحبت ليبان منذ صباها، والآن وقد أصبح لها ولدان كبيران مثلهما، فإنها لا تزال تكن له عين الحب، ولكن حين يشتد عنادها وعصيانها يرى ليبان أن الساعة قد أزفت لأن يشفيها من بعض عفاريتها التي تركبها، ويلجأ إلى وسيلتين وإن لم يكن بينهما فرق كبير، الوسيلة الأولى تسمى عنده (علقة ساخنة) والوسيلة الثانية عدد محترم من لطشات عنيفة أو ضربات موجعة، تتحمل المرأة باستسلام ضربات زوجها ولكن هيهات أن تتخلى عن عنادها أو تهجرها عفاريتها، أما نيقيفور فإنه بعد أن يفرغ من الضرب، يحني رأسه دالاً على شدة ندمه وبواخ غضبه وثوابه لرشده ثم تستعيد الحياة جمالها ويخف حملها هذه هي سنة الله في خلقه، كما تقال له في حكايات

صاحبه الراعي الهرم وهما من بعد في نعمة من ربهما، فالبيت عامر ببضاعة من جلود تصلح سروجاً وفي المخزن تحت حنية السقف، ذخيرة من فرو الحملان من بركة قطعان غنم فوق الجبل، هي خالصة لهما ملك يمينها وفي البيت كذلك نقود موضوعة في قدح من خشب مخبأة تحت طبقة من الرماد، إذا سئموا اقتصار طعامهم على اللبن والجبن ولحم الخراف التي تنهشها الذئاب فالنزول إلى الوادي لشراء الخضروات الطازجة أما خبزهم فمن دقيق الأذرة من جني حقولهم، فسيحة تغمرها الشمس، وكانت فيكتوريا تذهب إليها أحياناً وحدها وتعبئ من المحصول زكائب تضعها على ظهور خمسة جياد ضامرة راكبة هي فوق جوادها ركوب الرجال وتتبعها بقية الجياد واحد خلف الآخر، محنية ظهورها ومقود اللاحق مربوط في ذيل سابقه.

بارك المولى زواجهما ورزقهما سبعة أولاد لم يبق سوى اثنين، أما الخمسة فقد اغتالهم وباء الحصبة أو الدفتريا، انمحت أسماؤهم و ذكراهم طي انمحاء ذرية العضول السابقة من الزهور والفراشات والحملان، واحتفل الأبوان بحب كبير بالولدين الباقين لهما، ليبان أكثر تدليلاً للبنت وهي بكر أولاده سماها مينودورا على اسم راهبة في مدينة (أغابيا) راق جرسه لأذن الراعي والابن غيورغيتا ترفرف عليه أمه وتحامي عنه كلما تفكرت عينا ليبان بسحب الغضب، فيكتوريا هي التي اختارت له هذا الاسم لأنه كان لزوجها قبل أن يعرف بين الناس باسم نيقيفور ليبان ولكن تبدل الاسم ظلّ سراً متكتماً إذ كان اسم غيورغيتا هو الاسم الذي اختاره لزوجها كل من القس والأشبينين في حفل التعميد حينما رشوا عليه الماء المبارك ودهنوه بالزيت المقدس ليدخل في ملة المسيح ولكنه حين بلغ من العمر أربع سنين تعرضت حياته للخطر، بسبب أصابته بداء الاستسقاء، بلغ من الضعف أن أيقن أهله أنه يحتضر فاستدعوا له القس ليقوم بالطقوس الدينية وبعد أن تلقى منه التناول الأخير ولم يبق إلا أن يسلم الروح، إذ بامرأة لازار عازف القيثار تقدم هي أيضاً، مدت لها الأم من خلال نافذة مفتوحة ابنها المريض زاعمة أنها تبيعه لقاء ثمن بخس، فلس من النحاس لا أكثر، تلقفته امرأة الغجري من حضن أمه ونفخت على جبهته وهمهمت برقي وتعاويذ ثم نادته باسم أخر لكي ينخلع عنه مع انخلاع اسمه القديم المهدد بالخطر شر المرض وينجو من الموت، ومنذ تلك الساعة أصبح نيقيفور ومع ذلك ظلت فيكتوريا لا تتحدث عن زوجها إذا لم يكن معها غريب يسمعها ولا تناديه إذا خلت به إلا باسم غيورغيتا، وتتجلى في صوتها حينئذ نغمة من الرقة والحنان تلحظها أيضاً في صوت ابنها.

وكان ابنها غيورغيتا قد نزل إلى السهل مع إجرائه من الرعاة والحملان والحمير والكلاب لقضاء فصل الشتاء وأقام بالقرب من مستنقع جيجا، على مسافة قصيرة مع نجع يسمى كريستيشستي وكان أبوه قد أمره أن يبقى هناك لينتظر عودته لدفع ثمن الغاب الذي أقيمت به أسوار الحظائر وثمن التبن وأجور الرعاة وتوالت الأيام وليس هناك حس ولا خبر عن أبيه وظل الابن مقيداً بمربضه لا يملك العودة للدار.

وكانت فيكتوريا قد تسلمت منذ أسبوع خطاباً مرسلاً إلى زوجها فذهبت به إلى القس دانيلا ليقرأه لها، إنه خطاب من ابنها الشاب يستعجل به قدوم أبيه إليه، إذ ظن أنه قد عاد لدار ومعه نقود تكفي لسداد ما هم مدينون به للأجراء وملاك المراعي (وأخبركم أن الحملان في أتم صحة وعافية وكذلك نحن مثلها والحمد الله، الجو هنا هذه الأيام غير متقلب وودي ومناي في أن أعود للدار، قبلاتي لوجناتك يا أمي، قبلاتي ليديك يا أبي هذا هو خطاب غيورغيتا وقد حفظته عن ظهر قلب، هذا يعني إذن أن ليبان لم يعد للمريض أيضاً، فما هو سبب غيابه يا ترى، لا أحد يعلم فأرض الله واسعة وشراكها عديدة.

وبعد ثلاثة أيام من تسلم فيكتوريا لخطاب ابنها غيورغيتا نفخ ساعي البريد مرة أخرى في بوقه، أسفل القرية، فنزلت إلى النهر وتسلمت خطاباً ثانياً، إنه مرسل هذه المرة من إليكسا كبير الرعاة كتبه له ابنه، الخط خط الشباب ولكن الكلام ولا ريب كلام إليكسا كبير الرعاة، وصلنا خطابك المرسل إلى غيورغيتا وقدرت أن أفهم أنك يا ست الدار قاعدة الآن وحدك، أما عن نيقيفور ليبان فنحن والغنم في كفالته فأخبرك أنه لم يظهر له هنا حس ولا خبر، ويلزمنا جداً جداً نقود لدفع أجور الشغالة وحق أكلنا وأكل الغنم.

ومن حيث أن الأمر كما ترين فرجاء المسارعة من كل بد بإرسال مبلغ من النقود ويكون إيداعه في مكتب بوستة بياترا، مع التنبيه عليهم بأن يكتبوا لمكتب بوستة جاستي ليدفعوا منه كذا لفلان وكذا لفلان، وبعد ذلك يحصل اجتماع بينهم ليعرف كل واحد حسابه، كم له وكم قبض، هذه الطريقة أحسن وتريح بالي إذ لا يكون من الضروري عليك طخ المشوار على الركوبة وجائز أن يطلع عليك اللصوص وينهبونك ولكن إذا كان عندك رأي آخر فالرجاء الكتابة إلى ابنك لكي نبيع ما يلزم من الحملان التي فاتت السن، وعلى كل حال فسيدنا نيقيفور ليبان ومعه النعاج التي ذهب لشرائها من دورنا كما هو معلوم.

ماذا حدث لزوجها؟ لماذا ينفرد بالتزام الصمت. لماذا يمتنع عن الكتابة إليها، كانت لها بالأمس فرحة لم تصدق فقد نفخ ساعي البردي في بوقه ماداً يديه ببطاقة مستطيلة، هرولت بها فيكتوريا إلى القس دانيلا فاهتز بالضحك وهو يقرأها عليها، توردت وجنتاها فالكلام المسطور على البطاقة غير غريب عليها، إنها تحفظ شيئاً من مثله عن ظهر قلب، البطاقة مزينة برسم الشرابيم المجنحة من عالم الملائكة يعلوها حلية من الورد:

**يا زهرة الزهور**

**أحبك، ومن حولك أدور**

**من المخلص المتفاني**

**غيتا. س. طوبور.**

هذا هو إذن ابن اندريه عريف الكنيسة ومرتل الأناشيد، طلبه الجيش لخدمة العسكرية فسافر إلى مدينة بياترا، ها هو ذا لا يريد أن ينتصح ويكف عن إمالة رأس ابنتها، إنه مجنون في نظرها وأمه مجنونة أيضاً، ستكاشفها فيكتوريا فيها برأيها وتؤنبها، ولكن الذنب هو ذنب ابنتها قليلة الحياء التي تتودد إلى جميع الشبان بنظرات معسولة، وما أن عادت فيكتوريا إلى الدار حتى صبت غضبها على رأس ابنتها وقذفتها بشتائم جارحة.

- أفليس لك الآن شغلة ولا مشغلة إلا جلب العار علينا أنا وأنت في نظر القرية كلها، تتمنين أن يقال عنك البنت كبرت طلبت العرسان؟

لا أنا ولا جدتك ولا جدتي كان يخطر ببالنا أن نفعل ما تفعلين، لابد أن تعيشي كما نعيش نحن وإلا ربطت حجراً بعنقك ورميتك في النهر، ألا يكفيك شقائي مع اقتراب الشتاء بالبقاء وحدي، جاهلة ماذا حدث لأبيك، أكان لزاماً أن أسمع القس دانيلا يقرأ عليّ هذا الكلام الوقح، كتاب منزل -طبعاً- في نظرك، ولكن ليس هذا شأنه في نظره أو في نظري، سألتها ابنتها بمكر:

- أكانت هذه البطاقة مرسلة لي؟

- أية بطاقة تعنين؟

- تلك التي دسستها مقلوبة في إطار المرآة

- لك عندي بطاقة من نوع آخر ترن على صدغيك، أنت مكلفة منذ الساعة حتى المساعدة بتمشيط الكتاب الذي أعددته لك، وحذار أن أضبطك مرة أخرى كما

حدث اليوم وأنت تلقين الكناسة في عز النهار، سترين كيف أربط بعنقك حجرين كبيرين، هل أصبحت لا تعرفين أبداً ما هي واجباتك؟ وماهو الصح والحسن والفريضة، منذ أن طغت عليك نزواتك يا مغرورة.

هكذا كانت تأكل نفسها، لا تفلح في تهدئة قلقها لأنها لم تتلق بعد من زوجها خبراً تنتظره بلهفة.

في تلك الليلة، قرابة الفجر رأت حلماً فسرته بأنه أول نذير لها، تراءى لها نيقيفور ليبان راكباً جواده مديراً لها ظهره، متجهاً إلى شمس غاربة، عبر سطح تسبح في ماء عكر.

# الفصل الثاني

أخذت الشمس ساعة الظهر تطلق سهاماً أشعتها من فوق قمة جبل ماجورا، رفعت فيكتوريا رأسها وزرت عينيها، بدت لها أشجار الصنوبر أشد قتامة، ولكن هذا كان وهماً منها، مرجعه كسف من السحاب الأبيض، ظللت الشمس، الجو دافئ، وريح لا تكاد تقوى على أن يتطاير لهبوبها في فناء الدار وورق شجر السرو والحور، كأنها فراشات سرقها الوقت وتأخرت عن الإياب، وتردد على درب القرية رنين أجراس مألوف، هذا هو متريا صبي المزرعة يعود مع قطيعه مع الغنم وبقرتيه، وصل إلى سمع فيكتوريا -دون أن تتبين بوضوح، زجره وشتمه للقطيع كالعهد به حين يزجه في الباب المطل على الجبل ليدخل حظيرته.

ألقت فيكتوريا مغزلها ونادت بصوت منغم:

- يا منيودورا، يا بنت، تعالي هنا.

أجابتها الفتاة من تحت السقيفة:

- حاضر يا أمي سأجيء إليك.

- اتركي الكتان، عندي لك عمل آخر، صبي المزرعة قد عاد قبل الأوان فلابد أن شيئاً قد حدث.

أقبلت إليها الفتاة بسرعة، ترتدي صديرية بيضاء ونصفية سوداء مخططة بالأحمر، صففت شعرها على هيئة تاج فوق رأسها، لا تضع شالاً على كتفيها،

شأنها شأن كل فتاة في عمرها ، حافية القدمين، فحذاؤها الأصفر طويل الرقبة اللامع من أمام والذي ابتاعته من مدينة غيور غيني لا تلبسه إلا في حفلات الرقص والزفاف أو عند زيارة المدينة.

سألتها فيكتوريا ونظرتها تائهة وصدرها يتنهد:

- وأنت.... ألست جائعة؟

فأجابتها الفتاة وهي تضحك

- لست جائعة، من الذي تبحث عنه نظراتك يا أمي؟

أهو أبي؟

أجابتها المرأة وهي تئن:

- نعم، نظراتي تلاحقه، لكن لا أحد سوى الله يعلم أين هو، وحيداً بلا زاد، أسرعي الآن إلى البئر لإحضار الماء وتقليب نار الفرن وإعداد القدر لنطبخ عصيدة من الأذرة وهاتي لنا بيض من خن الدجاج واملئي لنا سلطانية بالجبن وافرزي الزنخ ليأكله صبي المزرعة.

- حالاً يا أمي.

وانطلقت الفتاة تسرع الخطى فوق المدق الترابي المدكوك وتناولت قبل خروجها إبريقاً من فوق لوح من الخشب.

ودخل ميترا إلى الفناء من باب الحظيرة، يمشي متهيباً منحرفاً... إنه رجل لاينبئ مظهره عن عمره، قصير منطفئ النظرة، جمدت ابتسامته على وجهه الأجرد، يدس بين الحين والحين يدأ أصابعها كالمخلب في شعره الأحمر الكثيف المشوش.

- ماذا جرى يا ميترا؟

- هه؟

- ماذا حدث يا ميترا؟

- لا شيء، خالص خالص.

- فلماذا عدت مبكراً؟.

- الحكاية وما فيها أنني شفت الرعاة نازلين بالبقر والغنم، رحت نازل مثلهم، الظاهر أن الجو سينقلب..

- من قال هذا؟.

- الناس كلهم، وأيضاً رأيت سرباً من الغربان الزرق، تطير جهة الشمس،

عائدة لبلدها ، وأكثر من هذا رأيت سحابة زاحفة إلينا ، لم تعجبني. إذن فقد جاء الشتاء هذه المرة وأنا طالب منك يا ستي حرملة من الصوف وطاقية من الفرو وقطعة من الجلد أصنع منها خِفاً لي، دخلنا في الشتاء بحق وحقيق، جاء أوان الرياح وسقوط الثلج وسنسمع عواء الذئاب أسفل الجبل.

كلامه تمتمة بصوت أجش، وحين ذكر الشتاء والذئاب، دارت عيناه من الخوف في محجريهما ، أحست فيكتوريا بقشعريرة تسري في جسدها ووضعت مينودروا الإبريق وسألته وهي تضحك:

– هناك إشاعة بأنك ستتزوج يا عم ميترا.

– حق؟.

– يقال إنك ستتزوج..

– يا داهية سوداء! ولو أني لا أقول إلا إذا حكم ربنا ، لا بد لي أن أقنع بأرملة أو بنت أم ولد لم يسبق لها زواج، فليس عندي من الغنم ما يكفي لدفع مصاريف زواج آخر.

الدنيا ملعونة والنساء تطلب العلالي... ستعطينها لي إذن؟

– أعطيك ماذا؟

– قلت لك: حرملة وطاقية وجلدا للخف، في كلمتين الشتاء هجم.

شدت ست البيت شالها على كتفيها. والرجل جالس يأكل على عتبة الدار.

وكانت البنت قد نشطت لتأجيج نار الفرن في الفناء، وملأت القدر بالماء ونصبته على قوائمه الثلاث فوقها ، ورمت فيه بحفنة من الدقيق وقليل من الملح وفجأة هبت ريح خشخشت لها فروع أشجار الحور وارتعشت الأغصان الرفيعة لشجر الصنوبر في غابتها ، وتردد في الجو هزيجها..

شملت فيكتوريا هبة من ريح باردة قادمة من الجبل واهتزت علںلا جبهتها خصلات شعرها البني وقربت بين جفنيها بعزم كأنما تطرح من جسدها خدره وفتوره، على سفح الجبل كله، وبين مزرعة ومزرعة، تتجاوب من بعيد لبعيد نداءات وردود وأخذت الكلاب تنبح وانكسرت أعمدة الدخان فافترش الأرض، قال بلهجة المستعجل:

– انقلب الجو، هيا بنا نأوي إلى الدار.. ادخلي يا ابنتي وأشعلي نار المدفأة.

– التقطت الفتاة بهمة بعض شعل الحطب من الفرن ومضت إلى الدهليز، لف الشمس ضباب خفيف ثم أقبل سحاب مسرع من ناحية الجبل الكبير..

هتفت الفتاة لأمها :

- أعوذ بالله من الدخان، لابد أن طيراً ملعوناً عشش في رقبة المدفأة.

- ربما... ليصعد ميترا إلى السطح لانتزاع العش.

- أمرك يا ستي، سأصعد ولكن هاتي أولاً الحرملة والطاقية وجلد الخف، فأنت ترين بنفسك أن الشتاء هجم.

- معه حق يا ابنتي، اذهبي إلى المخزن واحضري مطالب هذا الولد الغلبان المقطوع واقذفيها فوق ذراعيه ليبلع ريقه ويصعد إلى السطح.

- كيف أصعد وأنا أحملها، ماذا تريدين مني أن أفعل لرقبة المدفأة.

- أن تهد فيها عش غراب.

- سأهده ولكن ستدفعين لي أجر تعبي.

وأخذ ميترا يزمجر وهو يأتي بالسلم على حين مضت الفتاة إلى الجانب الآخر من الدهليز، تبحث عن مطالبه في المخزن غير المسكون تفوح منه روائح غليظة للجلد والجبن وهتفت لي وهي ترمي حملها على عتبة باب المخزن، خذ هذه هي الحرملة وهذه هي قطعة جلد تكفي لخفك، وكان ميترا قد صعد على السلم ببطء ومن قمته نظر ليرى هل تكذب الفتاة عليه، استعان بعصا طويلة ونقب بها في رقبة المدفأة، فانطلق دخان كثيف ما لبث الريح أن كسرته وطوحت به من قبل أن يتعالى. وكانت أواني المطبخ قد جمعت لوقايتها من الدخان ووضعت فوق السقيفة المضعضة المكشوفة للهواء وفي غمضة عين أعيدت لمكانها المعهود في الردهة فوق كتف المدفأة أو حولها واستعاد الدلو الخشبي موضوعه القديم خلف الباب.

ونزل ميترا وهو يلهث وتناول الكوز واغترف من الماء وأخذ يشرب بجرعات كبيرة وهو ينفخ، وصب ما بقي من الماء في الكوز في الدلو ثم أخذ يفحص كسوته الشتوية بإعجاب، ومرت لحظات خيم فيها الصمت على البيت، وزاد وضوح هدير العاصفة فوق القرية وكانت الدجاجات قد هربت حين تساقط عليها أولى قطرات المطر البارد، واحتمت بحنية السقف، ودهشت فيكتوريا حين رأت الديك الكبير، سواد ريشه خالطه البياض - يتقدم بجرأة ويلزم عتبة الباب الكبير، وقد دب فيها الأمل بأن تواتيها علامة تستبشر بها ولكن الديك أدار إلى البيت ذيله المقوس كالمنجل ومد منقاره ناحية باب مخزن العربات ثم أطلق صيحة واحدة طويلة كأنما دهش لها هو أيضاً.

تمتمت فيكتوريا بحزن:
- لن يعود.
سألتها ابنتها بوجل:
- من؟ أبي تقصدين؟
استطرت فيكتوريا بمرارة:
- لن يعود فإن الديك أنبأنا بسفر متوقع.
- ومن الذي سيسافر؟
لم تجبها فيكتوريا وأخذ تتلفت حولها وبدا الجد على وجهها وخيل لها بسبب المطر المنهمر أن كل شيء بارد مبتل، اختفت الشمس وشحب الضوء، وأخذت الرياح تقذف إلى الدهليز بين الحين والحين ندفاً من الثلج ما أن تمس الأرض حتى تذوب وتختفي، ونشطت الفتاة لإعداد العشاء، وضعت العصيدة فوق طبلية واطئة وقسمتها ومدت بنصفها إلى ميترا في طبق مشطوف وبقطع من الجبن في قصعة صغيرة، واقترحت عليه:
مد يدك لأضع لك إن شئت قليلاً من الملح، ثم مضت تمتحن البيض فوق الموقد لأنهم لايريدونه إلا نصف مسلوق وأخرجته من الإناء بملعقة من خشب ووضعته من فورها في ماء بارد ورمت فيكتوريا بنظرة مترددة.
وأنت يا أمي ألا تأكلين؟.
هزت رأسها بالنفي، همست لها ابنتها:
ذهب ميترا للحاصل ليأكل عشاءه، هذه هي عادته، لا يحب أن يراه إنسان وهو يأكل، فرشت على الطبيلة غطاء وبدا عليها الحزن فانزوت في ركن من الردهة مسندة كتفها إلى المدفأة رفعت فيكتوريا شالها وسترت بطرفه فمها، وعقدت ذراعيها على صدرها وقد استقام ظهرها فوق مقعدها الواطئ تنو من وراء حجاب إلى أفاعيل العاصفة التي تصب عذابها على السماء والأرض وكان يبدو أن العاصفة تهدأ بين الحين والحين فسمع من الجبل تحت السحاب صوت أغصان الشجر، شجر الصنوبر، وهي تضطرب وتضج، وأخيراً التفتت قائلة:
- وأنت يا بنتي ماذا تنتظرين؟.
أجابتها ميدورا:
- لست جائعة يا أمي، هيا هيا لا تشغلي بالك بي قومي لتأكلي.

أين لك بإدراك همومي أو ملاحقة أفكاري. أنت صبية عزيزة تجهل متاعب الحياة إياك أن ينشغل ذهنك بالفتى المختل كابور، فالخلل سمة أسرته كلها، بشهادة عيونهم الضيقة وأنوفهم الضخمة، وحين أراه يتعلم من بلاد غير بلادنا كيف تكون الأشعار والملح لمن يريد التحبب إلى الفتيات، أفتظنين أن هذا شيء يبسطني؟. والآن يا شاطرة يا غندورا قومي لشغلك، تعهدي بالنفض والتنظيف بالفرشاة ما أعطيته لك من الوسائد والسجاجيد فهذا هو جهاز عرسك.

إني عازمة على أن أزوجك قبل عيد الفصح، سأجد لك إن شاء الله شاباً عاقلاً يكون له بيت جديد في القرية وقطيع غنم في الجبل، يأخذك ويخلصني منك.

تمتمت لها ابنتها وقد طفرت دموعها:

– لا تغضبي مني يا أمي، حرام سخطك عليّ لسبب كهذا.

– ابكي من اليوم لباكر، ولكن أرفض زوجاً لبنتي يكون كهذا الأبله الذي ولدته زوجة العريف بشطارتها.

– لا أريد منك يا أمي أن تختاري لي زوجاً هرماً أو دميماً، فمن حقي أن استمتع قليلاً بالحياة أنا أيضاً مثلك أنت.

– غطت فكتوريا مرة أخرى فمها بطرف شالها وجمدت متجهمة متكتمة أسرارها، لزمها مضى وقت غير قصير وهدأت من جبروت العاصفة قبل أن تفتح فمها مرة أخرى:

– قلت لك أكلك ينتظرك.

استسلمت الفتاة ورفعت المفرش الذي كان قد مد فوق الأطباق ونهضت فيكتوريا وسوت ثنيات نصفيها وشدت حزامها الجواني تحت صدرها ثم مضت إلى حجرة إلى يمين الباب لتبدل ثيابها.

ارتدت جورباً غليظاً من الصوف الأسمر وحذاء برقبة طويلة ودعكت بين كفيها عوداً من الريحان ومسحت بهما على جفنيها ثم رمت بمعطف مبطن بالفرو على كتفيها، وقالت لابنتها:

– سأذهب إلى القس دانيلا، لابد أن أرسل خطاباً لغيورغيتا فلا تنسي إطعام الدجاج قبل دخوله الخن وإيقاظ صبي المزرعة لاشك أنه الآن متلفع بحرملته ويغط في نومه بعد أن جذب طاقيته فوق عينيه.

– أجابتها ابنتها وقد طأطأت رأسها:

- حاضر يا أمي.

تناولت فيكتوريا من وراء الباب عصاً غليظة معقدة واجتازت الفناء، وكانت الرياح قد هدأت وتريثت تحت سماء داكنة ذات سحب واطئة تنذر بالمطر.

قامت الفتاة وهي ساهمة مشغولة البال تريد أن توقظ صبي المزرعة، فطرأت على ذهنها فكرة تهلل لها وجهها واستحسنت قبل تنفيذها أن تفرغ من غسل الصحون وكنس فتات الطعام من أمام المدفأة، وفجأة لحقتها، من فوق بالقرب من الباب القلاب للمخزن تحت حنية السقف ومن جوف الظلام، نظرة حادة ثاقبة من عينين مستديرتين لقطة رمادية، أخذت تموء بخفوت تطالب بنصيبها من اللبن.

قربت مينودورا قصعة مشطوفة إلى كوم الفتات وصبت فيها قليلاً من اللبن فقفزت القطة بخفة وحذر من فوق سلة إلى كتف المدفأة ثم إلى الأرض، وبدأت تلعق اللبن بلسانها الصغير الوردي وأخذت مينودورا تتلفت هنا وهناك وقد وشت لمعة عينيها بأنها تدبر خطة، سيطول غياب أمها إذ ستقوم كعادتها بمشاوير أخرى، فهذه فرصة لأن ترسل ميترا ليأتي لها بجينيكا ابن معلم المدرسة.. أنها تحب من هذا الفتى العفريت همته في الكتابة بسرعة وجرأته على التطلع إليها بعينني كحبتي زيتون.. إن علمه مهول فهو تلميذ بلغ السنة الرابعة الثانوية مدينة جاساى، ويريد له أبوه أن يكون طبيباً، سيأتي لها من عنده بالورق والحبر، وسيجلس إلى المنضدة أمام المرأة، يتفحص فيها أولاً وجهه ثم تصفيف شعره ويقبل عليها بكل انتباهه ينتظر ما تملي به عليه ممسكاً القلم في يده.

كانت قد أدارت في رأسها من قبل كل ما تريد قوله لغيتا طوبور، بل تدبرت كيف تتخير ألفاظها، إذ أنها تحفظ بعض العبارات التي تعلم أنها ستروقه ولا ريب، وأخذت تتمتم بهذه العبارات وهي تنظر إلى القطة الصغيرة.

- والآن وأنا أرفع القلم عن الورق أبثك عاطر أشواقي، إذا كان الورق عليه صفرة خفيفة، فإن ذكراك مخضرة في قلبي، إنني أتمنى لك تمام الصحة والعافية فهذا هو أهم النعم وأغلاها.

ولا يكفي هذا بل ستقول في نهاية الخطاب:

- وإليك من قلب واجف أجمل تحية مني أنا مينودورا ليبان.

حقاً إن جينيكا ابن الاستاذ مورينسكو محبب لديها، لأن خطه جميل وكتابته سريعة، ولأنه ما أن يرفع رأسه عن الورق حتى يعيد باتصال ما قرأه عليها من قبل

مقطعاً وهو يمنحها ابتسامة جذابة، وكل كاتب عمومي نعرفه في القرية يلتزم استخدام عبارات خاصة به، فليكتبوا بهذا الأسلوب رسائلهم إن شاءوا، أما هي فتريد أن تكتب رسالتها وفق رغبتها.

– تريدين مزيداً من اللبن؟

أجابتها القطة بمواء خافت كأنما تقول نعم، صبت لها قليلاً من اللبن ثم مضت وهي تردد بعض الأغاني لتوقظ صبي المزرعة الذي يغط، تحت حرملته، في نوم عميق..

# الفصل الثالث

اتجهت فيكتوريا إلى الكنيسة، سالكة دروباً طويلة متعرجة، ثم مدقاً يشق البساتين، تكاد قدمها تنزلق أحياناً فوق أرض لزجة، وأحياناً تجد الطريق مأموناً بسبب امتصاص الحصى أو الرمل للوحل المختلط بالثلج، والكنيسة مقامة وسط سفح الجبل، تحيط بها مقبرتها وعلى اليمين غير بعيد مسكن القس دانيلا وما يتبعه من مبان ملحقة ومخازن، وفي الناحية الأخرى من الكنيسة كوخ صغير له هيئة نبات الفطر في أرض جرداء.

هذا هو مسكن ماراندا العجوز، سيجيء دورها في جولة فيكتوريا فلها عندها حاجة.

إنها ستذهب أولاً للقس ليكتب لها رسالتها، فإذا مضى النهار تسللت إلى كوخ العجوز.. ولكن بشرط أن تسود العتمة حتى لا يلحظها أحد.

تريد أن تنجز كل مهمة في أنسب الأوقات وأصوب ترتيب.. فعرجت أولاً على الحانة ودخلت من الباب الخلفي حتى تتلافى الأخذ والرد بينها وبين معارفها من الزبائن، إذ سيسألها كل واحد كالعادة عن زوجها.. وستضطر إلى هز كتفيها مرة بعد أخرى ليفهموا أنها لا علم لها بأخباره.

ستتعمد رغم غمها وانكسار قلبها أن تمنحهم وجهاً بشوشاً.. وأن تجيب عليهم بمرح.. وأن مزاجها اليوم لا يحتمل الثرثرة فقد أرسلت في طلب صاحب الحانة المعلم

بوردان.. وهو رجل معروف بأمانته واستقامته.. له خدان متوردان وكرش ضخم لا يلمه حزام من الجلد إلا بصعوبة.. جاءها مهرولاً وتملص بمشقة من الباب الضيق، فمدت له دورقاً أخضر صغيراً وسألته أن يملأه بخمر الزبيب.. كما طلبت أيضاً ورقة خطاب ومظروفاً.. حملاته بين إصبعين في يدها اليسرى وصانتهما فوق صدرها بحرص، بعد أن سترتهما بقطعة من ورق اللف رمادي اللون.. أما الدورق الأخضر فقد دسته في جيب قميصها التحتاني. وبعد أن تزودت صعدت إلى مسكن القس، ولم تكد تظهر أما الباب حتى جرت الكلاب إليها وهي تنبح عالياً.

نادت ودقت الباب مراراً بعصاها.. فرأت خادماً أشعث يخرج من باب المطبخ الصغير في جناح المسكن، فزجر الكلاب وسبها ورماها بقطع صغيرة من الخشب يلتقطها لقط عشواء وهو منحن إلى الأرض، ومشت فيكتوريا مع المدق الترابي المؤدي إلى المدخل الرئيسي، فاستقبلتها قرينة القس، هي كالعهد بها منهمكة في شغلها، عاكفة على نسج سجادة مزينة برسوم الأزهار.

إنها امرأة شاحبة الوجه نحيفة، باردة العظام، لا تكف عن الشكوى بصوت معتل ذابل، لأن جو الجبل لا يصلح لها، حيث هي مولودة في أرض فسيحة.. وديان فسيحة ناحية قرية بروت، والدنيا هناك غير الدنيا هنا.

فهناك شمس ساطعة فوق حقول واعدة بمحصول وفير أما هنا فإنها حتى في الصيف لا تخلع الصديري الصوف المبطن بالفرو، ومع ذلك فهيهات أن تنعم بالدفء.

لقد فارقت أسرتها منذ خمس وعشرين سنة، ولم تلتق بها قط من بعد.. فأبواها من فرط الشيخوخة لا يقويان على السفر إلى الجبل.

إنها أتحفت زوجها بستة أولاد كلهم صبيان أشداء، الجسم متين والخد مشدود، يتلقون تعليمهم في مدارس مختلفة بالوادي، تطيب صحتهم في الوادي كما تزدهر في الجبل، فكأنها أورثت أبناءها عافيتها ودماءها..

ألقت عليها فكتوريا تحية المساء ولثمت يديها فقالت لها بصوتها المعتل الذابل:

– أقادمة أنت للقس يا فيكتوريا؟.

– نعم. فقد جئت أطلب نصحه وأرجوه أن يكتب لي خطاباً.

– طيب يا فيكتوريا. إنه في حجرة الجلوس، وقد عاد لتوه من الجبل أتعبه الفلاحون كثيراً ولكنه عرف كيف يسوسهم ويصلح بينهم..

- لقد فرغ من تناول غدائه الآن يستريح قليلاً..
انفتح الباب وعلا صوت غليظ ينادي:
- من جاء؟
- أنا فيكتوريا، يا أب دانيلا.
- آه.. أهو أنت يا فيكتوريا.. ادخلي من هنا.
مد القس دانيلا يده لباب وفتحه على مصراعيه بباع من حجمه المهيب المبارك، وفتح أيضاً ذراعيه واهتزت لحيته فوق كرشه.
إنه رجل ضخم قوي، ضيق العينين، حاد النظر شعره الأشهب مشدود في ضفائر تتجمع شبكتها فوق قفاه وأسنانه تلمع من خلال شاربه الطويل الكث..
دخلت فيكتوريا وأغلقت الباب وراءها، وبقيت قرينة القس وحدها أمام منوالها وقد زاد انحناء رأسها بسبب عتمة المساء فوق السجاد المزخرفة بالزهور.
سألها القس:
- هل يلزمك إرسال خطاب وتريدين أن اكتبه لك؟ أجلسي هنا وسأشعل المصباح وأكتبه لك فوراً.
أجابته المرأة:
- من أجل هذا جئت أيضاً يا أب دانيلا.. إذ يلزمني قبله شيء آخر، هو نصيحتك لي، جئت ألتمسها منك.
- طيب.. ها أنذا أصغي إليك، ما الحكاية؟
مدت فيكتوريا بالمظروف وورقة الخطاب برفق فوق المنضدة الصغيرة المستديرة والتي تتوسط الحجرة ثم ترددت قليلاً.
كانت نظرتها تطوف بما حولها من أثاث أهل المدينة دون أن تستقر عليه لتشبع منه، حتى قالت في صوت تملك زمامه:
- لا أدري يا أب دانيلا ماذا حدث لزوجي، بدأت أقلق عليه.
افتر ثغره عن أسنان عفية حين أجابها وهو يعابثها:
- قلق، قلق، ما هذا الكلام؟ إن زوجك قد احتجزته أشغاله، غداً أو بعد غد يعود وجيبه يشخشخ بالنقود وسيأتي لكم ومن نياترا بشال من الحرير جديد، بشوكه.
- يا ليت! ولكني أعتقد أن متاعب كثيرة اعترضت طريقه وأنه لم يعد إلى الآن بسببها.

- وهل عندك خبر عنه؟ هل عندك دليل على هذه المتاعب؟.

- لا.. ومن أجل هذا تفترسني الهموم، لقد خبرت طوال عشرين سنة كيف ذهابه وإيابه في أسفاره، إنه قد يتأخر أياماً قليلة يزيط فيها مع عازفي القيثار، إنه رجل وذلك حق الرجال لكنه كان يعود حتماً إلى داره مسرعاً لا يطيل الغاب، يعلم أن قلبي ملهوف عليه وأنني متعلقة به..

أجابها القس وهو يضحك بانشراح:

- نعلم هذا ونشيد دائماً بكما.

- على هذا فإني وأنا امرأة جاهلة لم أجد إلا أصابعي لكي أعد عليها الأيام.. فلقد حدثت له منذ سبع سنوات أن رحل أيضاً على دورنا ليشتري النعاج، عقد الصفقة وعاد بسلام بعد أن اتسع له الوقت ليهبط بالحملان إلى المشتى الذي أستأجره وعهد بها إلى الرعاة.. ثم أحصى قطيعه وسوى حساباته ودفع ديونه وتمكن حينها من التكلؤ يوماً آخر في قرية جاسي ويوماً بعده في بياترا، ولكنه عاد إلى بيته قبل مرور عشرين يوماً على سفره، أما هذه المرة فإن غيبته طالت أربعين يوماً.

- أممكن هذا؟ حقاً لم يكن لي علم بشيء مما تقولين.

- وكيف تعلم يا أب دانيلا، إن هذه أشياء لا تعلمها إلا الزوجة. والألم لي لا لغيري، لا أجد سواي ليعد الأيام في وحدتي بالليل، ساهرة أنا أسمع صرير الجنادب في المدفأة، وفق ذلك فقد رأيت الليلة الماضية حلماً لم أسترح له.

- دعيك من الأحلام هي كذب في كذب.

- ربما.

لكن حلمي هذه المرة كان ينطق بأنه إجابة على رسالة، فلقد لا حقته بندائي عليه وسؤالي بلهفة عن أخباره فاضطر أن يبعث إليّ برده.

كان حلماً كريهاً، رأيته فيه يخوض بجواده ماء عكراً..

- إذن هو قادم إليك.

- لا لا.. كان مولياً ظهره لي ماضياً في طريقه، مبتعداً عني.

- حكايات نسوان، ومسؤوليتي كانت وستظل أن أشفيك من مثل هذه الأوهام.

- لست واهمة، وحججي أقوى مما تتصورها.

- كل شيء جائز، لعل هناك ما عاق زوجك عن العودة، ربما ألم به مرض ملخ يده أو قدمه.

- هذا ما قدرته أنا أيضاً يا أب دانيلا.. ولكن لو حدث له شيء كهذا لأخبرني به، ولما كنت هنا الساعة، بل كنت أكون بجانبه.

- أنقول إنه اندفع في إحدى حماقاته.

- هزت المرأة رأسها تنفي هذه الشبهة، فلم يبق للقس إلا أن يقول لها:

- سأصلي لك في الكنيسة، عسى أن يرشدك ربك وينير بصيرتك ويطمئن قلبك.

- نعم، أرجوك أن تصلي له يا أب دانيلا، فهذا أفضل إذ لم يعد لي من أمل إلا في رحاب الله والعذراء والقديس جورج، فتشفع لي بهم في دعواتك عسى أن أجد خلاصي بفضل رأفتهم بي، ليس معي نقود لكنني سأدفع رسوم إقامة القداس.

ليست الرسوم هي التي تشغل بالي.. ثم إنني لست في حاجة إلى نقود وإن كنت أقبل بسرور كبشاً مفرطح الذيل -من تلك الكباش التي عاد بها نيقيفور آخر مرة- فإذا صعد القطيع مع مقدم الربيع، فأرجوك أن تعطيني واحداً منها.

- على العين والرأس لن أتأخر إذا رأيت زوجي عاد من سفره، فمن أجل غيابه جئت إليك، ليس أمامي من أستنصحه سواك، فأنت في هذا الجبل معتبر عمدة ومأمور مركز في آن واحد، لقد فكرت أن نكتب أيضاً إلى شرطة البندر في دورنا لنعلم منهم ماذا حدث للرجل.

- لا مانع، ولكن من الذي يعرف زوجك هناك.

- لا أحد يعرفه، فمقامه هناك مقام الغرباء العابرين، ثم إنه كان يعتزم شراء النعناع من رعاة جهة راراو.

- إذن ما الفائدة من الكتابة إلى دورنا ؟.

أما عن جهة راراو فليس فيها الآن ديار أو نافخ نار، أصبحت ملكاً العفاريت الغابة.

غلبت ابتسامته على شفته، على حين تنهدت زوجة ليبان وهي تشيح بوجهها وتستر فمها بكفها:

- أراك جئت بورق ومظروف، أمن أجل خطابك إلى دورنا ؟

- لا، بل أريد أن أرسل خطاباً إلى ابني لأخبره بغياب أبيه.

- طيب، حالاً، سأكتب لك الخطاب الذي تريدين.

- على بركة الله، رأسي برأسك.

طبقت حاجبيها وشخص بصرها وهي تتمثل ابنها غيورغيتا فتراه واقفاً مع الرعاة في السهل وسط القطيع، فشرعت تخاطبه وهي تزن كل كلمة.

وبقي القس جالساً إلى المنضدة ينظر قولها، القلم في يده، وجذعه محني إلى الأمام، وقميصه قد انفك فكشف عن صدر كثيف الشعر كأنه مقبل على أداء عمل شاق جاءها مراراً صوت خبطة الماكوك على المنوال الذي تنسج عليه قرينته سجادتها في الحجرة المجاورة.

وبدأت فيكتوريا تقول وهي رامية نظرتها إلى بعيد:

- يا غروغيش.

- (فكهذا تنادي ابنها تدلله) يا ولدي.

أعلم أن أباك لم يعد إلى البيت، وأظنه بعون الله سيحضر إليك في كريستيشستي، فإذا لم يحضر فعليك بالاتفاق مع الأب إليكسا أن تتخير من الكباش السمان عدداً تبيعه يكفي ثمنه لسداد النفقات الضرورية.

فإذا زادت فاكتب إليّ لأرسل لك الفرق.. إذ لاتزال لدينا في البيت سبعون قطعة من جلد النعاج ومائة من جلود الحملان، وستون قرصاً من الجبن المجفف، سأبيع منها وأرسل إليك النقود للعودة إلى البيت مع العيد.. إنني في حاجة إليك فأنك اليوم رجل الأسرة الوحيد..

أنصت القس باهتمام مبدياً موافقته على كلامها بهزة من رأسه وهو مبتسم بتسامح وعطف، غمس قلمه المربوط بخيط في حبر بنفسجي لمحبرة علاها التراب، ثم رفعه ورسم به في الهواء أحرفاً من مشق كبير مزخرف لكي يدرب يده ثم حرر لها خطاباً بأسلوبه البليغ.. استمعت له فيكتوريا بخشوع هو يتلوه عليها بصوته الأجش:

- ابني العزيز الغالي.

أعلم أنني برحمة من المولى سبحانه أنعم بصحة طيبة، وأتمنى أن تنعم أنت بمثلها أيضاً.. سأبيع بضاعتنا المخزونة وأرسل لك بالنقود التي تلزمك.

وبدا لفيكتوريا أن كل الذي كانت تريد قوله لابنها قد ورد في الخطاب.. وإنما بأسلوب أكثر وضوحاً وبلاغة.. فلثمت يدي القس وأكدت له وعدها بتقديك الكبش.

# الفصل الرابع

شقت فيكتوريا المقبرة في الظلام.

كوخ العجوز ميراندا هو وحده الذي يلقي من كوة في حجم الكف بصيصاً من الضوء على سفح الجبل، وحين اقتربت فيكتوريا من الباب جاءها ن داخل الكوخ صوت عواء عجيب، كأنه عويل مخلوق سفلي تحسب أن يداً تخنقه وأنه يتفزز وهو يصارع الموت، وأن هدهدة العجوز له من وراء الباب بصوت حنون لا تفلح في تسكين روعه.

قالت فيكتوريا في سريرها:

- إنها ولا ريب كلبة الساحرة، لها أسنان دقيقة صلبة كالمسامير سنتها العجوز ميراندا على حجر صوان..

وانفتح الباب.

- أهو أنت يا فيكتوريا؟

لقد كنت أنتظر قدومك..

أجابتها بدهشة:

- حقاً؟ لعلك رأيت مروري إلى بيت القس.

- كلا، لست في حاجة لكي أعلم أن أرى إنَّ لي وسائل أخرى أعرف بها كل شيء.. ادخلي.

وظلت كلبة الساحرة الصغيرة تزمجر بخفوت وراء المدفأة، إنها كلبة قمئية عجفاء، لها أذنان منتصبتان كأذني الخفاش، وعينان كأنهما شقان لا يتجاوزان سطح الجلد، وشعر قصير في لون الفئرأن، يرتعش أحياناً فيرتعش معه جلدها كله، حينئذ تصدر منها زمجرة كالفواق، كأنما تريد أن تخيف بها الناس..

رفعت العجوز سبابتها اليمنى وأشارت للكلبة:

- اسكتي.

إعقلي، يا ننوس عين ماما.

خرست ننوس عين ماما وتكومت وراء المدفأة.

سألتها فيكتوريا وهي تبتسم:

- أفي باطن هذه الكلبة تخفينه؟

- أخفي ماذا؟

- لا أدري كيف أسميه. أنت أعرف مني باسمه ورفعت العجوز رأسها إلى السقف وضربت كفاً بكف.

- يا حبيبتي يا فيكتوريا، حذرتك مراراً من أن تجيء سيرته على لسانك، وحذرتك أكثر من ذكر اسمه، فإن هذا يجلب الشر.

أجابتها فيكتوريا وهي تدير نظراتها فيما حولها:

- طيب طيب.. هل قمت بسؤاله؟

- عن أي شيء أسأله؟

جلست زوجة ليبان على طرف دكة، هي كل ما في الحجرة من مقاعد تعبق بها رائحة دخان مختلطة بنفح زهور جافة.

إما مطروحة في الأركان وإما متدلية من عوارض السقف، وبالقرب من الطرف الآخر للدكة صندوق صنعة ولاية ترانسلفانيا، وعليه رسوم زهور، ألقيت فوقه وسائد وأكداس من الثياب، أما للقفل فوقه وسائد وأكداس من الثياب، أما للقفل فهناك رتاج غليظ وقفل ثقيل..

قالت فيكتوريا في سرها، إنها تخفيه داخل هذا الصندوق، فهناك إشاعة يرددها أبناء القرية جميعاً بأن ميراندا تخفي في بيتها عفريتاً، إذا قبل الملعون فقد عنوه، فإذا هفا إنسان ونطق باسمه قبل أن يرسم علامة الصليب بطرف لسانه على سقف حنكه، فإنه يصاب بالخرس من فوره.

أي شيء هو هذا العفريت، لا أحد يدري، ومالت فيكتوريا إلى الوثائق بأن الساحرة تخفيه داخل كلبتها، وقد تكررت الإشاعة كاذبة من أولها لآخرها، ولكن العجوز أثبتت أن لا شيء يخفى عليها وأن لا حيلة تعجزها، تنهدت فيكتوريا، وصبرت، إن ميراندا تعلم يقيناً لأي سبب جاءتها، ولكن الساحرة تجاهلت قصدها، وأخذت نقيض في الشكوى وتندب حظها..

– مسكينة أنا كم أنا بائسة، لا أحد يذكرني لا أحد يزورني، ولا يتكرم عليّ مخلوق بقطعة من الحطب وحفنة من دقيق ولكن إذا وقعوا في مشاكل أو أمراض فإنهم حينئذ يذكرونني.

أجابتها فيكتوريا وهي تثبت عليها نظراتها:

– بذمتك يا ست ميراندا، هل خرجت يوماً من بيتي وأنت فارغة اليدين.

– لا أنكر يا ابنتي وإلا كذبت على الله، حيث لا تخفي على الله خافية..

سمعت فيكتوريا هذا الكلام فصوبت نظرتها إلى الجدار من ناحية الشرق، معلق عليه لوحة للقديس سيسويه المعروف أنه هو المتصرف في العفاريت الصغار، خيل إليها أنه يرقبهما وينصت إليهما ويبتسم، إنها لوحة من خشب الزيزفون، أعجب شيء فيها هو لحية القديس الشهباء المشوشة فقد بدت كأنما تعبث بها هبة من ريح لا تنقطع.

واستطردت فيكتوريا:

– إذن لماذا تقصدينني بهذا الكلام؟

– لم أقصدك أنت، وإنما قصدت الأخساء اللئام الذين كتب علينا أن نعيش بينهم..

– دعينا من هذه السيرة الآن يا ميراندا لأني أريد أن أتحدث عن مسألة أخرى، خذي هذا الدورق، لقد جئت لك بملئه من خمر الزبيب، من أجود صنف من عند المعلم يوردان، صبيه في زمزميتك وأعيدي الدورق لي حتى أملاه لك في زيارة قادمة، وإذا بدا لك أن تأتي لبيتي فلا تنسي أن يكون معك كيس وبرام لأضع لك فيه شيئاً من الجبن.

لم ترفع العجوز بصرها عن مصباح البترول الذي يتراقص ضوءه في خفوت من فوق كتف المدفأة، زمت شفتيها وهي تنوح بيأس وتهز رأسها مراراً.

– الدنيا ليس فيها خير، يا ابنتي، هي ملأى بالأذى والشر.. اعلمي أن زوجك

نيقيفور ليبان قد وصل إلى الجهة المسماة دورنا ليشتري النعاج من بعض الرعاة، ولكن يشاء القدر أن يقابل بعد ذلك هذا المرأة أم العينين الخضراوين والحاجبين المقوسين، اعترضت طريقة واستحوذت عليه، وهيهات لها من بعد أن تخلي سبيله.

حبست فيكتوريا أنفاسها، تحس أنها تختنق.

– والنعاج، هل اشتراها؟

– هذا يا بنيتي ما لا أعرفه بعد، ولكن نقوده على كل حال لم تنفد، إنه يعيش هناك معيشة الأمراء أبناء الملوك.. يخرج الذهب من جيبه وينثره على عازفي القيثارة..

– هل هذا صحيح يا أمي ميراندا، إني لا أصدق ما أسمع..

– ولكنها الحقيقة يا نور عيني، أستطيع أيضاً أن أفتح لل الفأل بورق الكوتشينه حتى ترى بعينيك صدق ما أقول، أنا أيضاً جرى لي مثل هذا مع زوجي أيام شبابي.

– وهل عاد إليك زوجك؟

– نعم عاد واستقبلته بموال يعجبك من الصنف الممتاز.

– شدت الساحرة من تحت حزامها كوتشينه رثة متسخة، ووضعت على الدكة مقعداً له قوائم ثلاث، مدت فوقه غطاء وفرشت فوقه الكوتشينه، من بينها ورق عليه تصاوير ترمز للحزن والفرح.

– قدمت لها ورقة البنت "البستوني" فلمستها بشفتيها لتفضي إليها بحيرة قلبها وتدعوها لإنارة بصيرتها.

– انظري يا حبيبتي، نزلت ورقتك في مقام الحزن والدموع، وتقول ورقة زوجك –فهذه هي صورة الشايب– إنه مع جمع من الرجال، وصورة البنت وهذه هي المرأة أم العينين الخضروانين تلتصق به، لا تفارقه، كما قلت لك.

غرقت فيكتوريا في التفكير وهي تتأمل الورق لتتبين منه مصداق قولها ونطقها بالحقيقة.. وقالت باستسلام.

– صحيح أهذا ما يقوله الفأل؟ ولكني أريد أن أعرف هل رآه "هو" أيضاً؟

– هو من؟

أرخت فيكتوريا بصرها على الكلبة التي رفعت في اللحظة ذاتها رأسها وصوبت إليها نظرة ثابتة وسمعتها تزمجر بصوت كأنه خارج من تحت الأرض..

- هذه هي الحقيقة، ليس في يدك إلا تصديقها..
قالت لها فيكتوريا كاشفة لها عن مثار قلقها:
- رأيته الليلة الماضية في حلم، راكباً جواده، يخوض مستنقعاً من ماء عكر..
- ألم أقل لك، رجل فوق جواده، هذا رمز للعراك.
- كان ماضياً فيما يبدو نحو مغرب الشمس.
- هذا ما يقوله الفأل أيضاً، انظري إنه أمامنا متجه إلى فراش هذه المرأة الغريبة.

تنهدت فيكتوريا وزمت شفتيها المرتعشتين من فرط الألم وقالت:
- كل شيء جائز، ولكني لا أكاد أصدق.
- أنا عارفه، صعب عليك تصديق ما أخبرنا به الفأل، ومع ذلك فاسأليه حينما يعود عما حدث له في دورنا، لن يعترف لك لأنه ليس غبياً.. ولكن أسأليه على كل حال.
- طيب فهمت يا ربي. ما أكبر سعادتي لو أنني رأيته يعود.
- إنه سيعود، انظري، ترتيب الورق يشير أيضاً إلى فرحة، وإلى هدية.

وسعت العجوز بجسمها الثقيل في الحجرة تبحث عن زمزميتها الخشبية لتصب فيها خمر الزبيب المجلوب من عند المعلم يوردان، يختلج لحمها المتهدل فوق عجيزتها.. وتختلج أيضاً تقاطيع وجهها، وعادت وهي تلهث ورفعت المقعد عن الدكة وبدأت تقول لها بصوت مختلف أشد الاختلاف:
- إذا لزم الأمر فسنرسل إلي هناك الطائر الذي ينعق ليلاً وله عينا إنسان.. لكن إرساله كما تعلمين لا يخلو من المشقة والتعرض للمخاطر.. مع ذلك فإنني مستعدة لخدمتك.
- لكي ينعق بموت المرأة الأخرى؟

أمنت الساحرة على كلامها وهي تحني رأسها ببطء.

خفق قلب فيكتوريا ولكنها اعتزمت في قرارة نفسها وبلا نكوص -أن تسوق الهلاك إلى هذه المرأة أم العينين الخضراوين، لكنها رأت من واجبها نحو خالقها، ثم نحو القديس أن تقدم كفارة عن إثمها.
- سأصلي أولاً للعذراء، وسأصوم يوم الجمعة من كل أسبوع حتى أكمل صيام أثني عشر يوماً، فقد لا ينتهي صيامي -حتى يكون زوجي قد عاد.

تنهدت الساحرة بخفوت وعاد صوتها مرة أخرى إلى الاختلاف والغرابة.

– كان الله معك يا بنيتي... كل شيء بإذنه..

خرجت فيكتوريا ونظرت إلى السماء فرأت سحباً رقيقة يلقي عليها القمر ضوءه الشاحب، وجاءها صوت الكلبة من بعيد، كأنه صادر في هذه المرة عن احتكاك أسنان منشار.. أنصتت إليه حتى لم يبق منه في أذنيها إلا همهمة غامضة.

وفي تلك اللحظة مرق من جانبها الطائر الذي تحدثت عنه الساحرة. يضرب الهواء بجناحيه ضرباً خفيفاً فوق أجداث المقبرة.

لا وجل في قلبها، يحدثها ضميرها أنها كالعهد بها لم تحد عن الاستقامة والورع. ومع ذلك انفلتت تمشي بسرعة كأنها هاربة.. حيث كانت الريح قد هبطت أما هدير النهر فقد كان يترامى إلى أذنيها..

اقتربت من بيتها فتبينت أن المصباح قد انطفأ، دخلت من باب السور واخترقت الفناء ورأت شعلاً لا تزال تحترق تحت الرماد في الفرن السماوي ثم تعثرت قدمها على جسم لين، و أوشكت أن تقع، وأخذت تتحسس طريقها بطرف عصاها، سمعت ميترا ينادي من تحت حرملته أثقله النعاس.

– من دخل الفناء؟

– كتمت فيكتوريا ضحكتها ولم تجب، فهب صبي المزرعة واقفاً وكرر سؤاله مرة أخرى بصوت عال، وانفع نحو الباب ووقف مذهولاً وقد أسقط في يده، سألته سيدته:

– ماذا جرى يا ميترا؟

صرخ الصبي مرة أخرى:

– من دخل الفناء، أجب انطق، ثم استدار إليها وقال:

– لم ألحقه، هرب مني، لقد رحل.

– من؟

– الشخص الذي دخل الفناء، قد رأيته بعيني كما أراك الآن أمامي ظللت أصرخ إليه لكي تخرجي أنت أيضاً من البيت، فإذا به يختفي كأنما بلعته الأرض.

حدث لي مثل هذا مراراً وأنا في الجبل، أتعرفين.. هذا شغل عفاريت.

– طيب طيب.. عد ونم تحت حرملتك وارقد على جنبك الأيسر حتى تهدأ.

– أجابها وهو يتمتم بصوت خافت مضطرب:

- وديني وإيماني هذا شغل عفاريت.

ورفع ذراعه وأخذ يحك إبطه، وضحكت فيكتوريا من كل قلبها ؟

أضئ مصباح في البيت.. ونادت مينيدورا وهي على عتبة الباب وقد لفتها العتمة.

- أهو أنت يا أمي؟

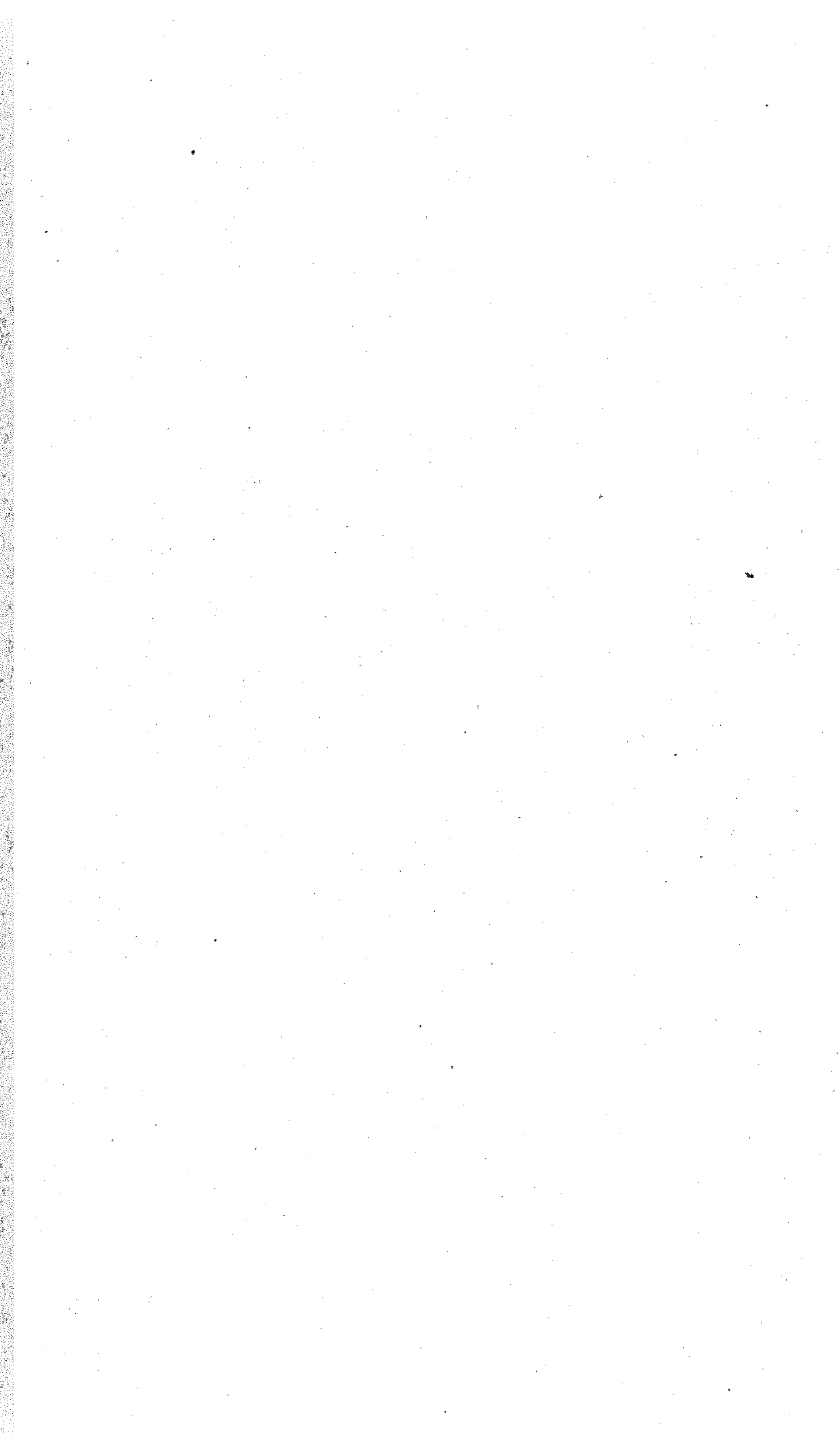
كنت نائمة فأفزعني هذا الصراخ.

فأجابها ميترا وهو يبرطم:

- وكيف لا أصرخ حين أرى العفريت. لا بد من استدعاء القس دانيلا ليتلو صلواته ويرش الماء المباركة لا ياستي، سأنام من غد في الجنب الآخر من الفناء.

جر وراءه حرملته جر جسد ميت، وشق دائرة الضوء، واختفى في الظلام.

دخلت فيكتوريا البيت وأشعلت الفتيلة السهارى أمام الأيقونة ورسمت على رأسها وكتفيها علامة الصليب، حيث لمع لوحا الزجاج في النافذتين لحظة وهي تعكس أو توهج للفتيلة ثم استعادت بريقها الخافت.



# الفصل الخامس

اقترب عيد رأس السنة فعاد غيورغيتا من الوادي بعد أن عهد إلى الراعي الشيخ إليكسا برعاية القطيع في الحظيرة في الحظيرة المعدة لفصل الشتاء.

لم يعد نيقيفور ليبان على خلاف عادته التي قررها هو بنفسه أما ابنه فقد أطاع تعليمات أمه كما وردت في الخطاب الذي كتبه لها القس دانيلا.

ضمته أمه إلى صدرها ولثمت وجنتيه ثم مضت إلى حجرة أخرى لتخلو لنفسها وتنخرط في البكاء وفق هواها، ولكن سرعان ما تذكرت أن ابنها عائد من بعيد، متعب ولا شك جائع، فرجعت إليه تحمل له رغيفاً أسمر ساخناً، ولفة من ورق شجر الصنوبر حشوها سمك مدخن وأرسلت ميترا على التو إلى المعلم يوردان صاحب الحانة ليأتي لها بلتر من خمر الزبيب من أجود صنف، وأقبلت على غيورغيتا تطلب منه أن يروي لها كل ما حدث بالتفصيل، ثم ما لبثت أن تركته لتلحق بميترا قبل أن يخرج لتصرخ إليه:

- لا تدخل إلا من الباب الخلفي.

وعادت وجلست على حافة الدكة ومنحت ابنها سمعها.

غيورغيتا شاب وسيم، أزج الحاجبين كأنهما مرسومان بقلم، ورث عن أمه عينيها، ليست الثرثرة من طبعه ولكنه يجيد رواية مشاهداته وأفعاله، على وسطه حزام عريض من الجلد، يروق له وهو يتكلم أن يفرد سترته على وسطه حزام عريض

من الجلد، يروق له وهو يتكلم أن يفرد سترته الجلدية المزخرفة الحوافي بزهور مطرزة ويدس كفه من تحت حزامه، ابتسامته حلوة، كابتسامة فتاة عذراء، فتى طر شاربه من قريب، كانت أمه تجلس إلى المنضدة الصغيرة في مواجهته، وترمقه بإعجاب، وانكبت مينودورا على مقعد واطئ صغير، مستعدة للخدمة، ملبية أول إشارة. الغابة من وراء البيت قد تناثر على أشجاره فتات من الثلج تحت سماء زرقاء مشمسة في هذا اليوم الذي تبدأ فيه الثلوج بالذوبان.

- هل كل شيء على ما يرام هناك؟.

- نعم، كل شيء، وجدنا غاباً عالياً فأقمنا به حظائر محكمة تغالب شتاء ثلاث سنين لا سنة واحدة. وحفرنا الأرض لإعداد الزرائب المستوردة، ودفعنا كل ديوننا، الشتاء لم يحل هناك بعد. والنعاج لاتزال تجد عشباً في الوادي فتذمر أصحاب الأرض، ولكن الراعي الشيخ أليكسا عرف كيف يرد عليهم ويسكتهم، فهم، معمر كثير التجارب وهذه هي المرة الخامسة والخمسون التي ينزل فيها هذا الوادي.. ثم بدأنا نعد النعاج وكان أليكسا يعدها بحز على لوح من الخشب، أما أنا فكنت أكتب العدد في دفتري، فكان أليكسا يضحك مني ويقول إنه لم ير في حياته نعاجاً تتشرف بالتسجيل في دفتر.

- مدت أخته لسانها تسأله بلهفة:

- وكيف الناس هناك؟

- ناس كبقية الناس..

- هل يرقصون يوم الأحد؟

- طبعاً.

وعاد يلتفت إلى أمع واستطرد.

- ثم ركبنا القطار، وهات يا جري.. حتى بلغنا بياترا.

ليس لأمه وأخته علم كبير بالقطار، تتحرجان من توجيه مزيد من الأسئلة عنه، وطال صمتهم، خيم عليهم سؤال معذب!

صبرت فيكتوريا حتى هدأ هياج فرحة اللقاء التي اجتاحتها، مدت بصرها إلى النور خارج الدار وقالت بصوت خافت متمهل:

- ليس عندي إلى اليوم أخبار عن أبيك.

وضع غيورغيتا معلقته إلى جانب القصعة، ودفع الرغيف الذي خبزته أمه

خصيصاً له، ورمي ببصره هو أيضاً إلى النافذة، الدرب المتعرج حول الدار خال من المارة، واستطردت المرأة تقول:

- لست أدري ماذا حدث له، وقد استشرت القس دانيلا ودعوته لإقامة قداس يصلي فيه من أجل أبيك.

سأصبر قليلاً حتى تتجلى مشيئة الرب ويهديني لما ينبغي لي أن أفعله لقد تناهبتني الظنون ورأيت حلماً ينهش قلبي ويحرق دمي حتى شخت قبل الأوان، سأنتظر حتى أصوم آخر يوم جمعة أتم به صيام اثني عشر يوماً، أنت عليم بأننا نعيش الآن وحدنا في القرية، ليس لي سواك من أبعثه للبحث عن أبيك، أنت الآن رجل، ورجل البيت.

أجابها غيورغيتا، بتردد:

- طيب، سأذهب، ربما وقع له حادث.

- وما هو هذا الحادث في ظنك؟

القول بأن امرأة قد سحرته كما ذكرت لي العجوز ميرندا فهذا مالا أصدقه.

أدركت الآن أن عفريتها -إن كان عندها عفريت- هو في منتهى الخيبة والغباء، إنه لا يقدر على شيء، وإلا لما عاشت ميراندا في بؤس وعوز، ولو كان عفريتها يعرف أين زوجي لاستطاع أيضاً أن يعيده، لماذا والعفاريت عندما تلجأ إلى السحر -كما تقول- فتصنع دمى من الشمع وتخرق عيونها وقلوبها بإبرة لتمتد أيضاً إلى عيني الغريمة وقلبها.

أقول لك إن حلمي هو أشد شيء يزعجني، إنك محق في ظنك أنه قد وقع لأبيك ما ارتعب شيء له، ومناي أن يثبت الصدق لقول الساحرة لا لتفسير الحلم.

ظل الشاب فاغراً فاه من شدة الدهشة بعد أن سارع بسؤالها:

- وماذا قالت ميراندا؟

ثم ماذا يكون السحر الذي لحق بأبي؟

- وقاك الله منه كما يقيك من الأمراض، هاأنذا أكلمك كأنني أكلم نفسي، فإني أتخيل الناس يعلمون همي، إنه يشغل فكري ليلاً ونهاراً، لابد أن تذهب للبحث عن أبيك، هذا هو كل ما ينبغي لك أن تعرفه، وتهتم به.

- سأذهب مادام أن هذا هو طلبك، ولكن حبذا لو قلت لي كيف ينبغي أن أتصرف.. لابد أن أعلم ماذا تريدين مني أن أعمله.

رمقته وجفناها يطرفان بسرعة، رأته خجولاً متهيباً متردداً، على حين أنها حاسمة تتفجر عزماً وإحساساً وألماً.

تنهدت طويلاً، ثم رفعت الأطباق عن المائدة بعجلة.

أرادت ابنتها أن تساعدها فصدتها بلكزة من كوعها، وانحنى الابن أمام الإيقونة بعد الأكل شاركاً ربه على نعمته، ثم خرج لجولة في القرية ليجدد لقاء أصدقائه ويعرف أخبار حبيباته.

تابعته ربة الدار بنظرها طويلاً وهو يبتعد في الدرب ثم مضت إلى المدفأة وجلست بجوارها.

خيل إليها أن الهواجس التي ساورتها واستولت عليها تفرك قلبها كالدود، لقد انعزلت عن الدنيا قليلاً قليلاً وانطوت على نفسها.

إنها كانت تعلق أملها الوحيد على الرجل الوحيد في الأسرة.

أدركت الآن أن لا مفر من العدول عن هذا الأمل.

يا لها من خيبة كبيرة.

لعلها في حقيقة الأمر كانت تتوقع هذه الخيبة، ولكنها ستعرف كيف تهتدي إلى وسيلة لكي يشمر ابنها عن ذراعه فيعتمد عليها، بعون من صائب رأيها..

وبدأ كيانها كله يترصد باستغراق دياجير ظلام، الحلم يتعلق بالنور الساطع الذي ينفذ إليها يوم فيبددها.. ذلك ما يسمى بالمشكلة.. وهذه الكلمة بالذات مما تجهله لفظاً ومعنى أي امرأة جبلية مثلها ولا تألفه.

فمنذ أن افترستها الهواجس توقف الزمن في نظرها، لا تقيسه إلا بأيام الجمع التي تصومها دون أن تنقطع عن عملها.

لا تأكل، لا تشرب، ولا تتكلم، ملتفة بشال يدل على الحداد، تستر بطرفه فمها، ولأول مرة في حياتها لا تأبه بالاحتفال بالأعياد.

لقد أدارت ظهرها لصنوف البهجة في عيد رأس السنة الذي تزيط له هذه البقعة النائية في الجبل، من تبادل للتهاني، إلى لبس أقنعة تقليدية تمثل الماعز أو الخيل، والناس هنا في الجبل في عزلة عن أهل الوادي، يتوارثون جيلاً عن جيل طقوساً للاحتفال بتعاقب الأيام وحلول رأس السنة لم تتبدل هذه الطقوس من عهد بريبيستس أول ملك للبلاد.

تبدلت الأسماء والمصطلحات دون أن يتبدل أهل الجبل، أو تتبدل الطبعة من

حولهم، لذلك لم يكن من العدل حرمان ولديها من نصيبهما من هذه البهجة أما هي فقد سلكت نفسها في عداد الأموات وعندها أن زوجها الغائب عنها هو أيضاً في عداد الأموات.

أدركت اليوم أنها تحبه جبها له في شبابها، ليس في صدرها حرج من هذا الحب فقد يقال كيف يكون وقد أصبحت أماً لعيال كبار وأنها لا تعترف لأحد بعاطفتها.. إلا لنفسها.. حين يطبق عليها الليل بظلامه ويملأ أذنيها صرير الجنادب في المدفأة.

وفي عيد القداس بارك القس دانيلا الآبار والينابيع وكل مجرى للمياه ولف الصقيع الأشجار في غابة ماجور، وتحت قبة سماء لازوردية ملأت الثلوج الوهاد، وكومت سدوداً على الطريق المؤدي إلى بسترتيا، وكانت فيكتوريا لم تصم من نذرها إلا سبعة أيام، يوم الجمعة من كل أسبوع، ومع ذلك قررت أن تسافر إلى بيترا ولو لم تصم اثني عشر يوماً كما كان نذرها.

وقررت كذلك أن تحج إلى دير بسترتيا.

قال لها غيورغيتا وهما عائدان من الصلاة في الكنيسة:

- نزول الصقيع في عيد القداس علامة عند الفلاحين على وفرة المحصول.

- نعم.. هذا ما يقولونه ولكن ليكن في علمك أنه فيما يخصنا لم تعد لنا مبالاة ببهجة أو وفرة محصول.

خيم الحزن على عيني الفتى، فكل ساعات البهجة التي كانت من حقه في عيد رأس السنة قد تسممت.

واستطردت أمه:

- عليك بإعداد الزحافة مع ميترا، وضع فيها تبناً، ولا تنس أيضاً كيساً من الشعير، علف الخيل، وفي الصباح من غد سنسافر إلى بياترا.

- وهل نستطيع اجتياز الطريق يا أمي؟

- سنحاول، ومن لا يحاول لا يناول مرامه..

أجابها بقلب موجوع، فقد أدرك أن أمله في حضور حفلة الرقص من غد قد خاب:

- معك حق يا أمي.

رمقته بنظرة من طرف عينيها وقالت:

- أختك ستذهب لحفلة الرقص وستجامل كل صديقاتك على حين نكون أنا وأنت قد رحلنا فهذا هو واجبنا.

قال غيورغيتا في سره وقد غلبته الدهشة:

- عجيبة! إن أمي ساحرة، تعرف ما يجول بالخواطر.

وما إن عاد للدار حتى مضى مغبر الوجه إلى الإسطبل فاختار جوادين أشهبين عفيين تتناسق خطواتهما فيحسنان جر الزحافة، أطعمهما من شعير ملأ به دلواً خشبياً ومشط منهما الذيل والمعرفة الملبدة بفتات من الشوك.. ثم بضربة من قدمه دفع الزحافة حتى وقفت تحت الباب القلاب لمخزن التبن العلوي..

فعل هذا كله وحده، دون استعانة بميترا، لكي ينجز مهمته بسرعة، على حين ظل مشغولاً بأحلام عن صنوف البهجة التي كان الجيل يبذلها له في طفولته.

كان إذا خرج للنهر استمتاعاً بهديره ظن أنه ملك له وحده، هذا أيضاً ظنه بالدروب التي تسير إلى أشجار التوت أو تصعد إلى أعشاب الرند، تلك الدروب التي سلكتها قبله قطعان ورعاة.

كان ذهنه يردد له الحكايات التي كان الولد قد سمعها في مرابط الرعاة، تتواثب حولها من بعيد ألسنة نيران تتلفع بها الغابة.

كان يعرف إذا هبط الغسق كيف يغري الدجاج البري، والأيائل فتأنس له، كل هذه الذكريات انبعثت له من رائحة التبن، يختلط بها عبير الصيف وعبير الطفولة، ولكن كل هذا قد ولى ومضى كالعطر الذي يتلاشى لافظاً أنفاسه في هواء بارد.

ها هو ذا قد وقع على عاتقه الآن واجب ثقيل سيوقعه في ربكة بعد أخرى.

إن أباه نيقيفور لاشك مات ضحية لحادث، اللهم إلا إذا كانت اللصوص قد قتلته، كم هو شاق أن يتحمل فتى في مثل سنه أعباء الأسرة والبيت وفوق ذلك فإن أمه قد تبدل طبعها.

إنها الآن لا تنظر لأحد إلا بغضب ولا تشرع إلا أشواكاً كأشواك القنافذ. دخل البيت فوجد أمه جالسة بجانب المدفأة، رفعت إليه بصرها وقالت:

- لا تنظر إلي شذراً يا بني، أعلم أن الشمس إن أشرقت من بعد فإنما تشرق لي من أجلك.

لم يرد عليها وقال في سره:

- ما معنى هذا الكلام؟ ماذا تقصد؟

واستطردت المرأة تقول:

- إنني لا أعرف كيف أفك الخط، لكنني أعرف كيف أقرأ ضميرك.. ليكن

في علمك -أقول لك لآخر مرة إن وقت اللعب قد انتهى بالنسبة لك، ينبغي لك أن تتخلق بأخلاق الرجال، إذ ليس لي ن أعتمد عليه سواك، إنني في حاجة إلى ذراعك..

كان الدمع قد ترقرق في عينها فحنّ لها قلب غيورغيتا دون أن يسعفه لسانه بكلمة يطيب بها فؤادها. ومن غد وكان يوم سبت خرجا للرحيل مع مطلع الشمس.

كان الاثنان متدثرين بمعاطف من فرو الأغنام، الجو هادئ ولطيف، لكن الطريق وعر تزحمه الثلوج. أخذ الجوادان يجاهدان لجر الزحافة حتى جاء وقت اضطر فيه غيورغيتا إلى خلع معطفه واستخراج الجاروف الخشبي من كوم التبن. فما إن بدأ صراعه مع الثلوج حتى أحس بفيض من قوة وإصرار يسري في كيانه حتى أنه لم يهدأ إلا بعد أن أتم هدم سدود الثلج.

كان كمن يهدم عدواً، فما إن استدار ليرمق أمه حتى وجدها تبتسم، لحظتها علم أنها في هذه اللحظة بعينها تتلقى منه الجواب الذي عجزت شفتاه عن النطق به بالأمس، وقال في سره وهو يستعيد مسك اللجام:

- ما أدهى النساء؟ ما أبرعهن في الكلام.. أما الرجال فهم أقل فطنة، ولكنهم على سبيل التعويض- أشد قوة، والدليل عنده على هذه الحقيقة هو أمه.

لحقتهما الظهيرة وهما لم يبلغا، رغم بذل الجهد، إلا مشارف نهر بستريا، عبراه فوق الثلوج ثم سارا مع درب كأنه سطح مرآة، وانحرفا إلى اليسار حتى بلغا الدير وقت صلاة العصر وسط الأنوار والأناشيد.

كان الرهبان راكعين في مقاصيرهم، وعلى رؤوسهم طواق سوداء والأرشماندريث فيزاريون يقيم الصلاة بنفسه، وتريث غيورغيتا.

وقف عند باب الدير ليعنى بالزحافة بينما خلعت أمه -ربيبة الجبل- معطفها، وراحت تدخل إلى الدير بخطى نشطة، لا يطأ خفها السجاد إلا بحذر..

وقفت أمام المذبح ثم ركعت أمام تماثيل القديسين، ولمست قواعدها الرخامية بيدها اليمنى، ورسمت على رأسها وكتفيها علامة الصليب مراراً وهي تتم بالدعاء الذي يجول في خاطرها ويهصر قلبها.

ثم اقتربت من الشعمدانات وغرزت بها شموعاً كانت قد حملتها معها وهي خارجة من البيت.. في قماش رصعته بالترتر، حملته على يدها واتجهت إلى الأيقونة الرئيسية، مفخرة الدير فإليها ستفضي المرأة بأوجاعها.

وفجأة..

ومن خلال دخان الشموع..

سقطت عليها نظرة من القديسة حنة، فركعت ولثمت يد التمثال وقدمت للقديسة بخشوع، هذا القماش هدية منها.

عقدت طرفاً منه على قطعة من النقود الفضية وتمتمت لها بسرها وروت لها حلمها وتوسلت إليها أن تنير بصيرتها.

أنها في ورع وانقياد، كأنها ذبيحة قربان.. وهبتها كل قلبها وتركت دموعها تنحدر من عينيها وتبلل القماش، ثم نهضت غير ملقية بالها لما يجري حولها، وقعدت جامدة إلى سار المذبح، وانتظرت بسكنة، يداها معقودتان على صدرها ورأسها منحن.

جاءها صوت حنون فهمت أنه يناديها، فتحت عينيها وأدارت بصرها إلى المذبح فرأت الأب الموقر فيزاريون فركعت من فورها أمامه ولثمت ذيل مسوحه، وضع يده على رأسها.. إنه رجل هرم أعجف، له لحية بيضاء طويلة.

قالت له بصوت خافت:

– جئت يا أبي أقدم ملتمساً وأطلب نصيحة..

– هل صليت للقديسة حنة؟

– نعم يا أبي.

أشار إليها قائلاً:

– انتظريني هنا.

استعادت جمودها في جلستها وانتظرت. وبعد أداء الصلاة أمرها أن تتبعه فصعدت خلف الدرج المؤدي إلى خلوته، وأبقاها قبلها تنتظره مرة أخرى في حجرة عالية السقف، تتناثر فيها الأرائك والمناضد ومعالم الترف المتخير.

لم تجرؤ على الجلوس وقالت في سرها.

– لابد أن يعيش أب جليل مثله معيشة كبار الملاك.. جاءها الأب الموقر فيزاريون وسألها من أين هي قادمة، وقال إنه يتذكر رؤيته لها مع زوجها في الدير من قبل.

– نعم يا أبي، جئت تلك المرة لنتضرع أن يزول عن أغنامنا مرض أصابها حيث كانت ترعى في السهل، لقد استجابت القديسة حنة لدعائنا، لكنني قد جئت هذه

المرة يا أبي من أجل زوجي الذي اختفى، احتاج لشراء النعاج فسافر في عيد القديس ديمتري ثم لم يعد إلى الآن.

روت له حكايتها بكل تفاصيلها حيث كان الأب فيزاريون يتابع كلامها هازاً رأسه.. إنه متعب، مثقل بالنعاس.. مع ذلك فقد أنصت لها بود وحفاوة وعطف.

- هل أبلغت خبر غيابه إلى رجال الأمن؟

- وأين أجدهم؟

ليس في قريتنا عمدة أو شرطة، لم أجد من أشكو إليه إلا القس دانيلا. هذا كل ما فعلته.. وقد جئت الآن لأتضرع إلى القديسة حنة.

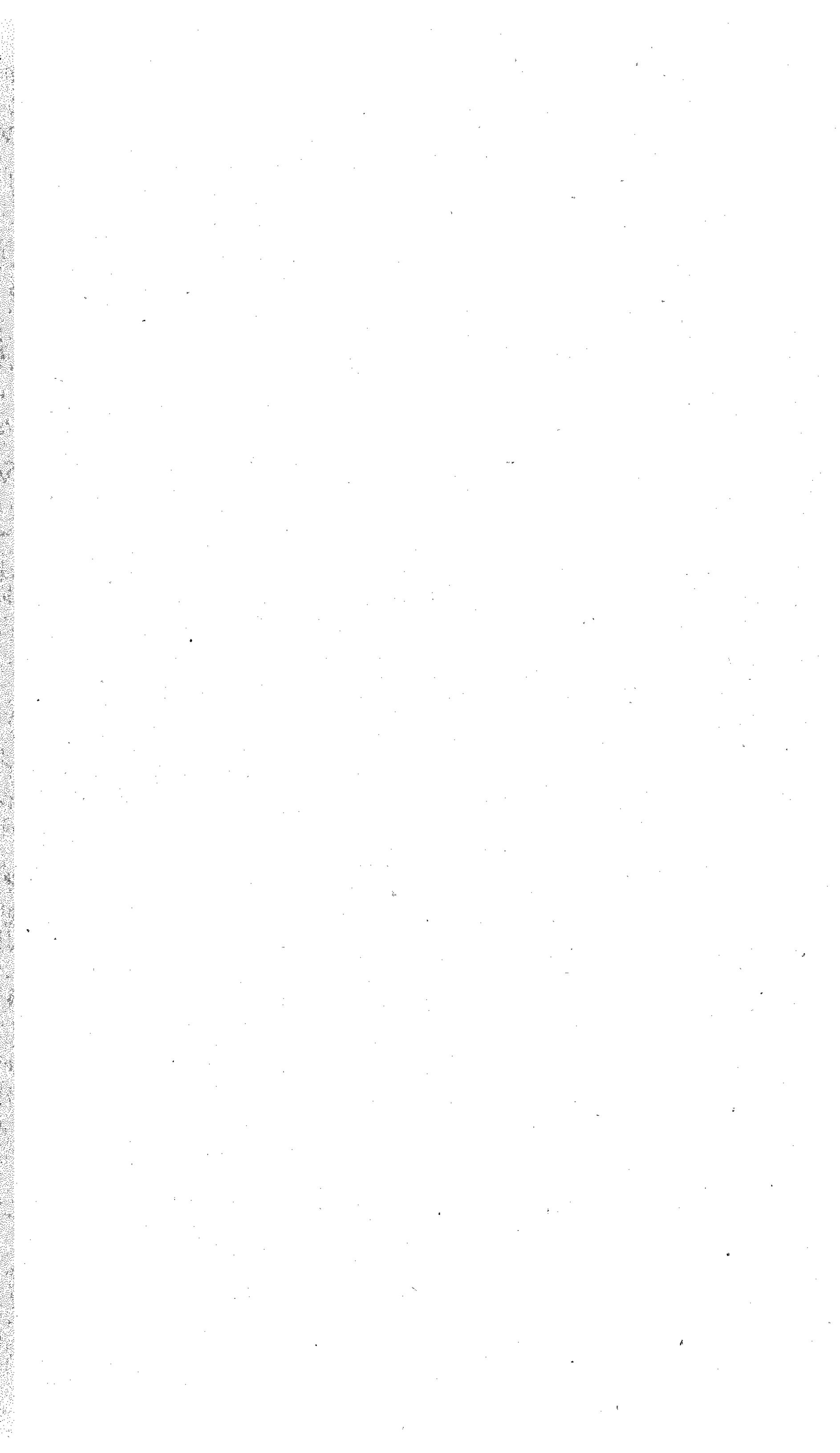
- حسناً فعلت يا ابنتي.

ولنصبر فإن القديسة حنة ستشفع لك عند من بيده ملكوت كل شي، وعليك بالذهاب إلى بياترا لمقابلة من بيدهم سلطان في الأرض.

اذهبي إلى رجال الخفر، إلى مأمور المركز، وأروي لهم ما حدث لكي يبدؤوا التحقيق في شكواك عن غياب زوجك.

أجابته فيكتوريا:

- فهمت يا أبي.. سأذهب إليهم أيضاً، لكن أملي ليس معقوداً على قدراتهم.. بل على قدرة أخرى.



# الفصل السادس

أمضت الليل ساهرة في حجرة صغيرة في قبو الدير، فبعد أن جاذبت طويلاً نساء أخر آتيات من أماكن بعيدة، أطراف أحاديث شتى انصرفت إلى نفسها بعد أن انصرفت كل منهن إلى مثواها.

أما غيورغيتا فقد طوى ذراعه وأسند إليه رأسه مستغرقاً في نوم عميق يحمله إلى آفاق بهيجة في عالم الأحلام.

ظلت وحيدة مسهدة خاشعة أمام القنديل المعلق على أيقونة، لا يشغل ذهنها إلا سؤالها:

- ماذا تفعل من غد؟

فالمشكلة المعقدة في نظرها هي كيف تعثر على شارع من بين عشرات الشوارع تقصده؟

بل وكيف تعثر في الشارع المقصود على ذلك المبنى ذي الطوابق العديدة والذي في كل حجرة منه مكاتب يجلس إليها موظفون يسندون أقلاماً على آذانهم كما يستقل أحدهم حجرة الرئيس، الذي هو العمدة أو مأمور المركز أو مدير الشرطة.

لا بد أنه بدين ذلك الرئيس.. ملتح قاسي النظرة، لا ينزع البيبة من فمه إلا لكي يهدر لسانه بزجر مرؤوسيه وتوبيخهم، فإذا سمع الموظفون في الحجرات المجاورة زعيقه أحنوا رؤوسهم على الورق واصطنعوا هيئة المنهمك في العمل، بينما هم يتبادلون الإشارات والغمزات.

ها هي ذا أخيراً ستمثل أمام الحكومة، وجهاً لوجه، لأول مرة، أينما سارت ستجدها في طريقها حتى تبلغ بوخارست، موظفون، مأمور مركز، عمدة، ضباط الشرطة، وفي العاصمة، جلس ملك على عرش، يصدر أوامره للجميع.

ترتيب جميل، فلا عمل يتم إلا نظام مرسوم الأقوال والأحداث تقيد في سجلات وهكذا يتبين من سجل السوق من باع المواشي ومن اشتراها وإلى أين منصرف كل منهما، لابد أن يكون في سوق دورنا -كبقية الأسواق- سجل كهذا، والحال مختلف في سفوح جبال تاركا وحيث يعيش الناس ويتعاملون وفق تقاليدهم القديمة، أحراراً في عقد صفقاتهم كما يريدون.. فإذا انحرف أحدهم فنكث بعهده أو غش فلا مناص له من الهرب والاختفاء في الجبل، يأكل الثمار البرية كالدب، حتى إذا هجم عليه الشتاء اضطر إلى النزول إلى الوادي، حينئذ يتلقفه الناس ويقيدونه ويسلمونه إلى الشرطة ولأقرب بندر في السهل.

وقبل اليوم الذي جثمت فيه على دارها لم يحدث لفيكتوريا قط أن صرفت اهتمامها أو طرأت لها حاجة إلى موظفي صاحب الجلالة الملك.. كان انشغالها مقصوراً على بيتها وقطيعها، تبيع الجبن وتدفع الضرائب والرسوم وينتهي الأمر.

حتى دفع الضرائب والرسوم كان يتكفل به زوجها فهو سيد من يعرف أي باب يطرق وأي منعطف ينبغي الاتجاه إليه، إذ أنه منذ شبابه كثير التجوال في أرض السهول، أما هي فإنها امرأة بسيطة لا تفارق الجبل مستوحشة أبداً، إن حصافتها سترشدها اليوم كيف تتصرف، ولكن لن يفارقها الارتياب والحذر في كل خطوة تخطوها، في هذا العالم المجهول لها. الجديد عليها.

ومن غد، بعد الفجر، رحلت فيكتوريا إلى بياترا.

كانت قد زارت هذه المدينة من قبل، وقت انعقاد سوقها، ولكنها رأتها يومئذ بعينين غير عينيها اليوم. فلم تلحظ إلا ازدحامها وضجتها وتكدس أهل الجبل في حاناتها، بين لهو وقصف.

وصلت إلى المدينة مع ابنها غيورغيتا، ونزلت في فندق صغير كانت تعرفه، وطلبت شواء وخبزاً أبيض وإبريقاً من النبيذ، ولم تكد تفتح فمها لتسأل أين مقر مأمور المركز حتى دلت على عنوانه.

لا شك أن حالها كان ينبئ عن همها ومقصدها، ومأمور المركز هو المختص في تحقيق الحوادث التي تقع في دائرة المركز كله لا في المدينة وحدها..

تركت الزحافة وابنها في الفندق ومضت وحدها. ووصلت بسهولة إلى مقر مأمور المركز. فمن يسأل لا يتعب.. وجدته مبناً جميلاً كبيراً، من عدة طوابق، واطمأنت حين رأت بين الداخلين والخارجين أناساً من جنس عشيرتها، وسألتهم فأجابوها أن هذا المبنى يضم أيضاً قاعات المحاكم التي تفصل في القضايا المدنية والجنائية.

وكانت قد علمت هذا من كلام زوجها ليبان ولكنها ترى الآن المبنى عن قرب لأول مرة..

صعدت سلماً فسيحاً إلى الطابق الثاني واستفسر منها حاجب هرم عن الموظف الذي تريد أن تقابله وقال لها:

- حضرة مأمور المركز بنفسه؟ إذن لابد أن تنتظري دورك..

فانتظرت وهي تتدبر في سرها كيف ينبغي لها أن تروي له حكايتها وكيف تتخير أفضل الكلمات. وزاغت نظرتها من شدة الانفعال حينما دخلت حجرة جميلة أنيقة الأثاث.. مأمور المركز ليس له لحية ولا شارب، ولا يبدو عليه أنه رجل فظ، وجدته رجلاً في مقتبل العمر، حليقاً قصير شعر الرأس، يفرقه من وسطه، في حالة سوداء، وكان يبتسم، فهو ولا ريب لا يعاني هماً كهمها.

تفرس في وجهها وهو ثابت في جلسته، وكانت قبل دخولها قد شدت على عجل أطراف شالها الحريري على كتفيها كما خلعت معطفها من الفرو وإن كان قد ولى شبابها فقد بقي لعينيها جمال أخاذ، تلمعان تحت ظلال من أهداب طويلة مقوسة.. ولما أحست المرأة أن جمال عينيها قد وجد من يلحظه بإعجاب استعاد وجهها تعبيره وقت وقفتها أمام المرآة.. يضيئه طيف من ابتسامة خفيفة....

سألها المأمور وهو لا ينفك ينظر إليها، ويعبث بفتاحة للورق، يديرها بين أصابعه:

- ما هو مطلبك الذي ساقك إلينا؟

- يا سيدي المأمور، لم تسقني إليك رياح طيبة، إن زوجي قد غادر الدار منذ ثلاثة وسبعين يوماً ولم يرجع بعد، كان قد سافر إلى دورنا لشراء نعاج، لم يبعث لي بخطاب، ولم يأتيني إنسان بخبر عنه، وبقيت معلقة، لا أملك إلا أن أنتظر غائباً لا يعود...

- ثلاثة وسبعون يوماً؟ إلى هذا الحد؟ أممكن هذا؟

- ليس هذا بسفر لشراء نعاج.. هل كانت معه نقود ؟
- وكيف لا وقد خرج لشراء نعاج من سوق راراو.
- ألم تسمعي شيئاً عنه؟
- لا أعلم عنه شيئاً.
- إذن فقد سطا عليه لصوص وقتلوه.

تمتمت بنت الجبل وقد جف قلبها لوقع الصدمة:

- لا سبب غير ذلك، وهذا ما نطقت به أيضاً أحلامي.
- لا يزال هناك احتمالات أخرى فلا نجزم الآن بسبب واحد..
- صدقت... ربما اختار أن يخادن امرأة غيري، وانقطع عندها، كم أتمنى أن يكون هذا هو الذي حدث له..

هز الموظف رأسه وطوح بنظراته بعيداً عنها، غص حلقها بنحيب جاهدت أن تكتمه، وأسالت بأناملها قطرات الدموع العالقة كاللآلئ بأهدابها، واحدة بعد أخرى.

أجابها بلهجة ودية:

- سأصدر أوامري بإجراء التحقيقات اللازمة.. اكتبي طلباً وهاته لي. أومأت بهزة من رأسها بأنها ستطيعه.
- هل فهمت كلامي؟
- نعم... فهمته.
- طلباً على ورقة دمغة، يكتبه لك موظفاً هنا أو محام، ثم هاته لي لأذيله بتوجيهاتي..

أمنت بنت الجبل على قوله بهزة أخرى من رأسها.

- هل فهمت كلامي؟
- نعم فهمته
- لا داعي للتهويل والجزع، فنحن في نهاية الأمر نجهل إلى الآن ماذا حدث لزوجك..

أجابته بنت الجبل وقد تحولت فجأة إلى الضراوة:

- أما أنا فأعرف ماذا حدث له..

ضراوتها لم تجن على جمالها.. بالعكس.. إننا يجب علينا أن نقول إن النتيجة كانت كما يلي:

لقد زادت بسبب ذلك تألقاً حيث أن المأمور وهو يشعل سيجارته بعد ذلك بعود الكبريت كان قد لاحظ أنها وهي تخرج من الباب بعد أن انحنت أمامه. تحسست مقبض الباب إلى أن عرفت كيف تفتحه ثم خرجت. رأسها دائخ فلا أحد حتى الساعة قد استطاع أن يعاونها بإلقاء ولو بصيص من الضوء على الظلام الذي يلف مدينة دورنا في خيالها. إن القديسين والقديسات ممن تبركت بتماثيلهم في الدير. إنهم يعرفون كل شيء مع ذلك فقد لزموا الصمت.

فإذا بهذا المأمور يبرز لها من بين الجميع ليقول الحقيقة بكلام نزل عليها كالصاعقة.. إن قلبها كان يقول لها عين الكلام ومع ذلك فلم تجرؤ على الإصغاء له. لقد فتك به اللصوص وانتهى الأمر.

* * *

علقت فيكتوريا بذراعها معطفها الفروي الذي كانت قد تركته عند باب المكتب.. تلفتت حولها لكنها كانت كالعمياء لأن عيونها حينئذ كانت تمتلئ بالدموع.. عندما مسحت أهدابها بطرف معطفها الخشن.. في نفس اللحظة كان الحاجب الهرم الذي نمت ملامحه عن طيبة قلبه يرقبها في صمت.

وهو يحك لحيته البيضاء بسبابة يده اليسرى، ويضع يده اليمنى على مقبض باب مكتب المأمور حيث يده اليد الوحيدة التي تملك فتح أو غلق ذلك.. قال:

- فيما انتظارك يا ولية

أبقيت لك حاجة أخرى.

قالت فيكتوريا: نعم.. إنني أبحث عمن يكتبون العرايض.

- عندنا من يكتبها لك..

- لم لا ؟

- ما نوع العريضة التي تودين وما مضمونها ؟

- عريضة متعلقة بزوجي... رحل منذ ومن. لم يعد إلى الآن.

- أها.. كتابة مثل هذا الكلام ليست سهلة، لكنه لم يتم مرادك أستطيع أن أجد من يكتبها لك.

لكنه لكي ينبغي لي أن أذهب إليه.. واحد ثم أعود به.. اثنين.... ثلاثة أنا مشغول...

الحكومة كما تعلمين تدفع لي مرتبي لكي أقف.

وهنا: أمام نفس هذا المأمور.

فإذا أنا ما تركته فإن الأمر يختلف....

ماذا؟

– أكنت تظن أنني لن أستطيع مكافأتك؟

– لا. اطمئن.. لك عندي منحة تشتري بها نبيذاً.. أدفعها لك نظير الخدمة الكبيرة التي ستؤديها لي إنها ورقة بخمسة لي [١] خذها ولا تغضب.

– اتفقنا.

لكنه من اللازم دفع مبلغ آخر للذي سيكتب الكلام.

– طيب

– سأدفع له عشرة أيضاً.

– وورقة الدمغة؟

– عشرة أخرى ونلصقها في العريضة.

– انتهينا.

سأذهب الآن لأحضر لك الأستاذ فهو الذي إذا كتب لك عريضتك يسمع بك الملك شخص الملك ذاته. ستملئ عيناه بالدموع لا شك..

أستاذ أنما لا يبارى في جمال الأسلوب، عيبه الوحيد أنه سكير قراري في الوقت نفسه. انتظري هنا... سأبحث عنه في الحانة.. جهزي نقودك.

* * *

تخلت يد الحاجب الهرم عن مقبض الباب، ودار أولاً حول المرأة كأنما يريد أن يسحرها فتبقى كالرصد في مكانها، ثم هبط السلم بسرعة مترنحاً على الجنبين من فرط شيخوخته فاستعادت فيكتوريا جمودها المعهود.

وصل الأستاذ.

يلبس حذاء عالياً لا معاً، أنفه محمر، وفي يده خيزرانة قصيرة أبيض لونها لأنه لا يجب أن يمشي مختالاً متحرراً، من ثقل لا لزوم له.

لم يخف امتعاضه حين علم أن أجره سيكون عشرة لي نظير عمل يحتاج إلى قدرة وبراعة. ونقلت فيكتوريا نظرتها، تارة إلى الحاجب الهرم وقد أعاد يده على مقبض الباب، تارة إلى وجه الأستاذ المعتز بنفسه، يأسرها منه أنفه الأحمر.

---

(١) عملة رومانية

ثم زمت شفتيها بعزم واضعة المبلغ الذي يخص الحاجب في يده، لكي تتفادى النزاع والشجار في كل مكان تعد فيه من الغرباء. ثم ارتدت معطفها، وهبطت السلم، وخرجت إلى الطريق.

فجأة طرأ خاطر جديد.

إنها ستذهب للبحث عم محام، فمطلبها رجل له أساس من العلم، لكنها ترددت بدافع من تهيبها ورأت أن الأفضل لها أن تنتظر حتى نعود لقريتها، فتطلب إلى الأب دانيلا أن يكتب لها العريضة، إذ ليس في العالم كله من يفوقه قدرة على الكتابة، ثم إنه يعلم الوقائع كلها، فيستطيع أن يرويها بدقة وتسلسل، ولكن ما جدوى هذه العريضة؟

وما نفعها؟

من المؤكد أن زوجها قد فتك به اللصوص فمن الذي يستطيع إذن أن يدلها على جثة رجل ملقى في قاع بئر بان لها في الحلم على صورة المستنقع الراكد؟

آه.

لماذا لا يعلم أحد بما جرى لزوجها ولماذا لم يأتها الناس بخبر عنه؟

السبب أن اللصوص قد قذفوا به في قاع بئر، إذن لن تظهر جثته.. اللهم إلا إذا قيض لها الله مخرجاً، ولا غير أن تتكل على شفاعة القديسة حنة، فبفضلها بدأت بصيرتها تستنير شيئاً فشيئاً.

لا ريب أن القديسة سترشدها الآن بوسيلة ما إلى الطريق الذي يحسن بها أن تسلكه.. ستلهمها كيف ينبغي لها أن تتصرف. ولحقها الأستاذ المتخفف ولمسها بخيزرانته وقال لها:

- مهلاً مهلاً، إلى أين أنت ماضية.

فوقفت فيكتوريا واستدارت وواجهته وأجاب:

- ماضية إلى حيث يحلو لي. مد يدك حتى أدفه لك هذه الورقة الصغيرة كما دفعت مثلها للحاجب الهرم.

- أعطيك هذا المبلغ إكراماً لك فقد عدلت عن كتابة العريضة.

والآن: عد سريعاً إلى حيث كنت، فالجو بارد وقد تصاب بنزلة شعبية.

- كيف؟

- لا شيء؟

- تجعلينني أترك أعمالي ثم تظنين أن مبلغاً كهذا يبرئ ذمتك فيما ارتكبت؟
فأجابته بنت الجبل وهي تضحك في وجهه:
- اذهب فالجو بادر.
تسمرت قدماه وهو يتمتم بلفتة للمرأة المتقلبة النزوات، وحكم بأن فيكتوريا مصابة بجنون وهوس، ورماها بهذه التهمة وهو يمد يده ليقبض النقود..
اتجهت إلى الفندق بخطى سريعة، تسيطر عليها أفكار وعزائم تتكافأ و روحها الجديدة.. تلك القوى الروحية المستجدة عليها إنما واتتها ولا ريب من ركوعها بالدير ودعائها لله أن يمن عليها بعون من عنده، وكأنما نفذت هذه القوى إلى كيانها من وخزات ندف الثلج لوجهها، تدفعه وتلسعه بها لسع السياط، رياح باردة تهب من ناجية الدير.
حقاً أن حجها للدير قد أمدها بعون كبير، إنها واثقة الآن أن زوجها قد مات، ورغم ما نزل بقلبها من حزن بليغ مفترس فإنها على الأقل تجد الظلام ينقشع عن بصيرتها.
واعتزمت حينما تعود للقرية ألا تتريث بها للراحة إلا قليلاً، ثم تمضي تعمل على تحقيق عزمها الأكيد خطوة خطوة، عزم يختبئ الآن خلف نظرتها العنادية، يكتشف لها وجهاً بعد وجه.

* * *

كان أول شيء فعلته فيكتوريا بعد أن عادت لقريتها أن ذهبت إلى الأب دانيلا والتمست منه أن يكتب لها عريضة إلى السلطات الرسمية قائلة له بانكسار:
- أنت تعلم أنني لا أفهم شيئاً من أمور هذه الشكاوي، أما أنت فلك من واسع العلم ما يتيح لك أن تثر في شكواي -نثرك للفلفل على الطعام- كل الهموم التي تحرق قلبي. اذكر بها أيضاً كيف طال انتظاري بلا جدوى لبدء رجال الشرطة في التحرك وإجراء التحقيق.
- طيب يا فيكتوريا، سأكتبها لك وسأعرف كيف يكون الكلام.
- هذا هو كل ما أطلبه، ولهم بعد ذلك أن يفعلوا ما يشاءون، فليس عليهم اعتمادي.
- معك حق، اجعلي اعتمادك على الله، فلا أمل إلا في وجهه الكريم.
- نعم يا أبي، ما أن أبعث بالعريضة حتى أرتب أموري كلها وأنجز من عملي ما ينبغي لي إنجازه، ثم أخرج بنفسي للسفر إلى دورنا.

لقد اتخذت قراراً لن أحيد عنه، هذا هو ما أحس به الآن.

أنني لن أعرف الراحة وسيظل جهادي ثائراً مكتسحاً كأنه شلال نهر تاركاو.. ذلك إلى أن أبلغ هدفي وأعثر على نيقيفور ليبان..

- الله...

- إذن ما الفائدة من كتابة العريضة.

- لكي أستطيع أن أقول إنني لم أقصر.. وإنني قد طرقت أولاً باب الحكومة، ثم لأنني أريد ممن يقرأها أن مقدار تمزق قلبي..

لقد بقي من نذري صيام خمسة أيام من أيام الجمعة وسأنتهز فسحة الوقت لكي أبيع بضاعة يكفي ثمنها نفقات سفري، سأجلس إليك في الكنيسة للاعتراف وأتناول القربان، فإن كان زوجي قد مات فمن المحتمل أن ألحق به...

- ربما سبقت إليه أنباء عنه.

- لم أعد أعتقد ذلك يا أبتاه.. فقد تجلت لي الحقيقة، بفضل القديسة حنة، لقد صوبت نحوي نظرة واحدة ولكنها كانت ناطقة بما تريد قوله لي. نظرة نفذت إلى قلبي، إن القديسة هي التي أوحت لي بكل ما اعتزمت فعله...

- يا فيكتوريا، سافري إذا ظننت أن ذلك هو الأحسن فذلك هو واجبك..

- سأخذ معي ابني حتى يكون بجانبي رجل.. وسأعطي الحداد من غد قضيباً من الحديد ليصنع لي منه بلطة وسألتمس منك يا أبتاه أن تباركها.

- طيب.. سأفعل هذا أيضاً.

- لكن: هل قدرت كم هو طويل طريقك وكم يمتد غيابك وماذا سوف تفعلين بابنتك.

- نعم، لم أغفل عن واجبي نحو ابنتي، فإحدى خالاتي راهبة في دير فاراتيك، إنها الباقية لي من خالات عديدات تخطفهن الموت، واسمها ميلانا. وعما قريب يا أبي سأضع ابنتي على الزحافة مع جهاز عرسها وأسلمها وديعة تحت أقدام خالتي، الراهبة ميلانا.

- وبيتك؟ هل تتركينه خالياً مهجوراً معرضاً للتصدع؟

- نعم سأتركه، ولو تصدع فلسوف أبنيه من جديد متى عدت، ولسوف أعهد إلى ميترا صبي المزرعة برعاية رأسين أو ثلاثة من الماشية وأقول له هكذا:

- أسمع يا ميترا وافهم كلامي.. أن عليك أن ترعى هذه الماشية، ذلك لأنه لن

يكون له يا أبي عمل آخر.. حقاً أن ربنا لم يخلقه لبذل جهد أكبر، هذا الرجل يا أبتاه كان بمثابة عقاب نزل بالمرأة سيئة الحظ التي ولدته..

من يدري أي إثم ارتكبته في حق خالقها أو حق زوجها.. لعلها أهدرت شرفه ودنست فراشه، أو فاعلها أرهقته أو سحرته فقضى ربها أن يكون عقابها هو وليدها، مبروك عليها..

إنها لم تلبث طويلاً بعد ولادته طويلاً حتى ماتت..

أما أنا فسأصطحب ابناً وسيماً عفياً تقر به عين زوجي لو لقيه.

إنه ثمرة حب جمع بيننا منذ الصبا ظللت أحتفظ له به كأنه كان عقد من ذهب لا يفارق عنقي.. اتخذت فيكتوريا قرارها، ولن تتحول عنه..

ولقد بدأت في تنفيذه.

ففي يوم ٢٧ فبراير، وهو عيد القديس بروكوب، وضعت فيكتوريا جهاز عرس ابنتها على الزحافة، ثم ركبت هي ويمنودورا، وشرع غيورغيتا يسوق الجياد بلمسة من طرف سوطه.

لقد انهمرت للفتاة دموع من عينين تحجبهما بكفيها، على حين ظل وجه أمها جامداً كأنه وجه تمثال، وبقيت هكذا إلى أن فارقت الزحافة حدود القرية وسلكت الطريق المؤدي من الجبل إلى الوادي.. حينئذ رسمت فيكتوريا الصليب على كتفيها ورأسها والتفتت نحو الشمس وقالت بهدوء:

- يا بنيتي..

ليس هذا وقت الحماقة والبكاء على حظك، إنه يوم مبارك.

يوم الاثنين هذا..

لأننا خرجنا فيه لتحقيق عزمنا..

وبلوغ هدفنا..

# الفصل السابع

وفي التاسع من شهر مارس..

وكان يوم خميس..

أقام القس دانيلا في الكنيسة قداساً مهيباً، تخليداً لذكرى شهداء الوطن.. هذا هو أول يوم تبدأ في الثلوج فيه الذوبان بعد شتاء قارس.. تساقطت قطرات الماء من السقوف، ومن أعالي الأشجار وعكستِ الثلوج للشمس أشعة متوهجة تغشى لها الأبصار، وغادرت الغربان أعشاشها، وارتفعت وأجنحتها تصفق، إلى سماء لازوردية، وبعد أن دارت وهي تنعق عادت إلى البيض الذي كان قد تجمد في فبراير تخبط قشرة الثلج من حوله بمنقارها وتضربها بأجنحتها.. وقدمت فيكتوريا وابنها غيورغيتا هدايا جميلة إلى الكنيسة. أرغفة من شقين، وكعكاً من دقيق القمح، وطحين الجوز وزيتاً ونبيذاً. ثم أضاءت فيكتوريا بيدها شموعاً فوق هداياها كما تقضي التقاليد. ثم كانت لها ركعة أمام كل أيقونة، وأخيراً، اتخذت لها مجلساً غير بعيد من المحراب.

* * *

ناولها القس دانيلا القربان المقدس...

أغمضت عينيها حين ترطب سقف حلقها كأنما قد هبط عليه الندى. فمشت الراحة في كيانها كله وبعد ذلك سجدت.. لا أحد من الفلاحين في الكنيسة يدرك مغزى هذا التناول..

أما هي:
فقد تطهرت من كل خاطر أو رغبة أو لهفة لا علاقة لها بالهدف الأوحد الذي ترسمته..

* * *

كانت همسات المصلين وترتيلهم تصل إلى سمعها من بعد أن سلمت الأب دانيلا ثلاث أوراق من فئة عشرين لي.. لكي يبارك رحلتها، ولذلك، ضم إلى صلواته في القداس دعاء لم يفهمه إلا فيكتوريا.. بل أن كيانها قد اهتز له لحظة ارتفع به صوته المتضرع إلى قبة الكنيسة:

– أنت يا قادر على كل شيء يا سميع يا عليم، انظر بعين رحمتك إلى عبادك الخارجين إلى سفر وخذ بيدهم...

* * *

تنهدت فيكتوريا ولثمت أرض المحراب ثم قامت لتنصرف، القداس في نظرها قد انتهى بهذا الدعاء فأشارت بنظرة منها إلى غيورغيتا تقول له:

– هيا نخرج:

إن أمامها في هذا اليوم عملاً كثيراً لابد من إنجازه ومسائل ينبغي حلها..

وحين جاوزت عتبة باب بيتها قالت:

– الريح مالت إلى الدفء، وهذه علامة على أن الربيع قد اقترب.

أجابها ابنها:

– غير مستبعد أن يعتدل الطقس أثناء سفرنا.

– أوه يا غورغيتا.

طريقنا طويل، وستصادفنا عواصف لا مفر من مواجهتها. وقد تتساقط الثلوج من جديد بعد أيام، ثلوج الحملان، ثم ثلوج طير اللقلق، أحداث من الجائز وقوعها لنا إلى أن نعود.

أمّن ابنها على قولها بهزة من رأسه دون أن يفتح فمه، إن أمه هي التي تقرر متى الخروج ومتى العودة ها هي ذي تقرر أيضاً أي طقس سيصادفها في الرحلة، إذن لم يبق له إلا أن يترك لها قياده...

ووجهت فيكتوريا كلامها لصبي المزرعة قائلة له:

– اسمع يا ميترا، إنني مضطرة إلى التغيب عن الدار بضعة أيام.

أجابها وهو يضحك:

– طبعاً أنا فاهم.. أنت ستعودين برب الدار بعد انتزاعه من مقام صبابته وهيامه برب النساء.

– ومن أين عرفت هذا ؟

– قيل لي.. إن أهل القرية يا ستي على علم بالخبر.. يتلذذون بترديده فيما بينهم ويغتابون زوجك، بل إنهم يزعمون أنه يحسن بك أن معك زماماً من حبل تلفين به عنقه ليسهل عليك سحبه إذا سافرت اليوم فستعودين قبل يوم الأحد.. اطمئني، سأقوم بحراسة البيت..

قبلت فيكتوريا كلامه ورضيت بتطوعه وقالت له:

– هذا هو ظني فيك، كنت دائماً موضع ثقتي.. وكل أفعالك يباركها الرب.

* * *

إنني أطلب إليك يا ميترا أن تبقى بجانب الماشية أثناء غيابنا... هذا هو عملك.. ولك أن تنام إلى أن ينقشع عنك خمارك. وتسقي الماشية بين الحين والحين وتقرب العلف إلى خطومها، ثم تعود إلى فراشك وتنام على هواك.. لا تهمل غذاءك يا ميترا، حتى لا تفقد قوتك وتضعف.

أما البقرة، أما العجل الكبير، فهي لا تزال تدر لبناً فاشربه وأن يكن قليلاً.. ولا تنس أن تربط بخطم العجل حلقة من مسامير مدببة حتى ترفسه أمه إذا أراد الرضاع.

إن عندك لبناً ودقيقاً وضعته لك في هذا الكيس، وفوق ذلك مؤونة تركتها لك هنا. وهكذا تستطيع أن تدبر حالك أثناء غيابنا.

– سأفعل يا ستي، وسأفتح عيني جيداً.

– طبعاً لن تسرع إلى تبديد كل ما تركته لك، فعليك بالاقتصاد، فعهدي بك أنك تتصرف بعقل وتحب النظام. وإذا حدث أن تأخرنا في العودة واحتجت إلى شيء يوم الاثنين فاذهب إلى الأب دانيلا فقد وصيته عليك..

– ماذا أفعل عند الأب دانيلا؟

– تقول له عن حاجتك وتفعل ما يقوله لك..

ودخلت إلى الدار وتركت سترتها المبطنة بالفرو قرب المدفأة وتناولت الملقاط وحركت به الرمل ووضعت قطعاً صغيرة من خشب السرو فوق شعل الحطب، ثم مضت

مسرعة لتحضر الماء بعد أن نصبت القدر فوق قوائمه الثلاث ورمت فيه بشرائح صغيرة من لحم الخنزير المدخن حيث علا نشيشها فوق النار..

ومضت تجمع كل ما في البيت من سجاجيد وأبسطة وترصها فوق الفراش. أما غيورغيتا فقد كان متابعاً غدواتها وروحاتها بنظرة تنطق الدهشة كعادته منذ بدأ يرقب أمه..

قالت له وهي تبتسم:

– لماذا تنظر إلي هكذا؟

إن هذا المتاع وأشياء أخرى ستحملها الزحافة هذا المساء حين يخيم الظلام إلى مسكن الأب دانيلا، ستعنى بها قرينته أثناء غيابنا، أما الآن فتعال نأكل.. صب العصيدة على الطبق الخشبي الكبير، وضعه فوق المائدة الصغيرة أو فاجلس في مقعدك... إننا إلى أن نعثر على أبيك سنظل نأكل وقوفاً، وفي غنى عن الأطباق.

وافق على كلامها هذه المرة أيضاً وهو صامت وأراد أن يعوض مقدماً ألم الجوع الذي قد يتعرض له في رحلته، فأخذ يلتهم لحم الخنزير شريحة بعد أخرى، وانهال على العصيدة يأخذ منها قطعاً كبيرة يغمسها في زيت القلية ويحشوها بالجبن قبل أن يضعها في فمه.

ولحظ بعد فترة أن أمه ظلت واقفة أمامه، عقدت ذراعيها على صدرها وهي ترمقه دون أن تصيب هي شيئاً من الطعام.. قال في سره:

– إذا كانت حقاً ساحرة فإن الأكل نصيبي، أما القوة المستمدة منه فنصيبها.

ورفعت أمه الأطباق بسرعة وغسلتها ورصتها على الرف، فلما فرغت من وضع آخر طبق اتجهت نحو النافذة.. فرأت على عتبة الباب ضيوفاً ينفضون ثيابهم من الثلج، فوضعت شالها على كتفها في عجلة وذهبت لتفتح الباب.

لم يتحرك غيورغيتا من مقعده، يشوقه أن يعرف ماذا دبرت أمه من جديد. قال لها الأب دانيلا وقد علا وقع حذائه الثقيل على أرض الدهليز:

– عسى أن تكون زيارتنا خفيفة عليكم.

– يا أهلاً وسهلاً، يا مرحباً بكم، تفضلوا، ادخلوا، إنني أقبّل يديك يا أبتاه..

ومن وراء القس ظهر المعلم يوردان وفي إثره تاجر، نحيف، طويل، فأحنى رأسه وهو يدخل لئلا يصطدم بعتب الباب.

إنه في زي أبناء المدن، للحيته وشاربه قصة مستديرة تركت الشعر قصيراً،

فكأنما جثم قنفذ أشقر على حنكه، أما بقية وجهه فقد انتشر فيه نمش أشقر أيضاً..

خلع قلنسوته وحيا ربة البيت!

وجهت إليه نظرة قاستة من رأسه إلى قدميه ثم عادت وقاسته من قدميه إلى رأسه واستدارات تسأل:

- هذا السيد هل هو التاجر؟

أجابها المعلم يوردان صاحب الخان:

- نعم.. إنه هو.

- قاطعها الرجل الطويل فجأة وهو يتلفت حوله باحثاً عن مقعد.

- نعم، أنا أحد معارف زوجك، بل أحد أصدقائه، وفي بيت صديق مثلة أجلس بلا دعوة، ولكن بعد أن يجلس قبلي الأب دانيلا.. فليجلس هو أولاً لأحذو حذوه.. اعلمي يا سيدتي أنني أملك متجراً وحانة وفندقاً في مدينة كالوجاريني، وكان من عادة زوجك أن ينزل عندي فيجد لحماً طرياً وقدحاً من نبيذ وفراشاً مريحاً..

- إذن فأنت السيد دافيد؟

- نعم يا سيدتي.. أنا السيد دافيد.. بقد ربحت مالاً كثيراً بفضل زوجك نيقيفور ليبان، لكني دفعت له أيضاً مالاً وفيراً ثمناً لبضاعته، كنت دائماً أقول أنني أفضل زبون عنده.. بل إنني في أحيان كثيرة كنت أعنيه عن متابعة السفر ليفرغ من بيع باقي البضاعة.. كنت أمتص كل ما يعرض.

- طيب يا مستر دافيد، والآن قل لي متى تعود إلى مدينتك؟

- من غد مع البضاعة التي سأشتريها منك.

- إذن سنكون رفقاء طريق من هنا إلى مدينتك..

- رجلي على رجلك، ولم لا؟، إن الصحبة خير من الوحدة، هل لك عمل في مديني.

- لا ولكن لي عمل في بلاد أبعد منها..

وهمّ التاجر بسؤال آخر ولكنه عدل وتلفت حوله وهو صامت.. وقالت فيكتوريا:

- البضاعة في الحجرة الجانبية. ولقد خط ابني على هذه الورقة عدد قرب الجبن الخالص والجبن المدخن، وما بقي عندي من جلود الحملان، كما خط أيضاً أمام كل صنف ثمنه الذي حددته بعد استشارة الأب دانيلا والمعلم يوردان، بعد تخفيض أردت

به منع الفصال بيننا، إذ لا طاقة لي ولا صبر على الجدل والأخذ والرد الآن، فامتحن البضاعة، واستوثق من عددها.. ثم ضع نقودك على المنضدة.

* * *

تأمل التاجر قصاصة الورق التي خط عليها ابنها هذه البيانات وبقي صامتاً. أغمض عينا واحدة، وصوب نظرة من الأخرى إلى المعلم يوردان وإن قصد أن يصوبها إلى ربة الدار.

- هل يلزمك الثمن كله؟

تريدين أن أضعه فوق المنضدة؟

- بكل تأكيد وإلا ضاع علي يوم إن أنا حملت هذه البضاعة إلى مدينة بياترا لأبيعها هناك..

- لو فعلت ذلك لضاع عليك يومان لا يوم واحد.

- أنا وقسمتي.

- وربما ثلاثة.

هل رأيت من قبل تاجراً يؤمر فيطيع ويخرج النقود من جيبه على الفور؟.. إنني لا أستغني عم محاورة البائع.. أحب هذه المحاورة والأخذ من هنا والرد من هناك كي أطمئن إلى أن البضاعة تصلح لي.. هذا أولاً وثانياً.. أما ثالثاً فلكي أستنفذ كل وسيلة للتخفيض.. وهنا يجئ دوري في عد النقود لأعرف هل تكفي لدفع الثمن أم لا.. خامساً إن التاجر تطيب نفسه إذا أحس بأنه يتصرف كتاجر، أما أنت فتريدين أن يكون بيعك كبيع الحكومة، الثمن محدد، فإما أخذ وإما ترك.

- ماذا تقول؟

- لا خيار فالثمن محدد.

- نعم هذا هو ما أريده يا سيد دافيد، تفضل بالانتقال إلى الحجرة مع ابني والمعلم يوردان، وخذ كل وقتك لفحص البضاعة وعدها ووزنها، واحسب حسابك، فإذا كنت حقاً السيد دافيد الذي حدثني عنه زوجي مراراً، إذن فإني أعلم أنه قد أنالك أرباحاً كبيرة، واليوم أنيلك أنا أيضاً أرباحاً جديدة.

- حدث لي أنني خسرت.

- إذن فأنت تاجر خائب.

- لا أنكر أنني ربحت أيضاً، هيا، سأفعل ما تريدين، سأفحص البضاعة وأحسب حسابي وترضين لي بتخفيض آخر فإذا بنا نتفق ونتصافح.

أطال السيد دافيد فحص البضاعة ثم خرج من البيت مع المعلم يوردان للتشاور، يمسح بيده اليسرى أشواك لحيته ويحرك بالأخرى مفاتيحه في جيب معطفه.

أغمض عينه اليمنى واقترب من المعلم يوردان وانحنى على كتفه وهمس له:

- دعني أقل لك كلمة يا معلم يوردان..

لو كنت على دين غير اليهودية وأعزب بلا زوجة، ولو كانت بنت الجبل هذه بلا بعل، إذن لكنت تزوجتها من قبل أن يمضى أسبوع واحد. اسمع.. ولكان الأب دانيلا هذا هو الذي قام بعقد القران، سأشتري البضاعة.. وهذا هو حق السمسرة الذي طلبته لنفسك في خطابك.

* * *

عد التاجر أوراق النقد ووضعها كوماً فوق المنضدة. تناولتها فيكتوريا وعدتها هي أيضاً واحدة واحدة.

٣٨ ألف لي لفت عليها نصف الصحيفة التي أخرج السيد دافيد من طيتها نقوده، ووضعتها في كيس من الجلد أحكمت رباطه ثم سلمته إلى الأب دانيلا راجية أن يبقيه عند إلى غد..

أما غيورغيتا فقد كان متابعاً كل ما يصدر عن أمه باهتمام متصل.. لقد لقيت هذه المرأة رضاءه لكنها أثارت دهشته.. لم يعلم لماذا سلمت أمه النقود إلى القس فقال في سره:

- لعلها خشيت أن يسطو عليها اللصوص هذه الليلة، فلما رأى أنه فطن إلى حقيقة مقصدها اهتز من المرح وانطلق في الضحك بينه وبين نفسه..

وبعد أن رحل الضيوف قال لأمه:

- ولم الخوف. أليست معي البلطة التي باركها الأب دانيلا؟

أجابت فيكتوريا:

- هذه البلطة لها مهمة أخرى..

* * *

عند الغروب

جاء التاجر ومعه زحافة يجرها جوادان ضامران..

أخذ البضاعة وحملها على مركبته.. كانت أذيال أشعة الشمس الغاربة

منعكسة على الثلوج المتدلية من الأسقف كأنها دبابيس من البللور.. ثم على سماء عميقة الزرقة.. لف الجو هدوء.. وتصاعد دخان المدفأة في عمود متصل لا ينكسر..

أبكرت ربة البيت في إعداد فرش الأسرة استعداداً للنوم، وقال لها ابنها إنه ذاهب إلى القرية ولن يعود إلا عند صياح الديك..

فهو لا يريد أن تفوته زيارة أسرة تسهر فتياتها في تمشيط الكتان، أطفأت فيكتوريا الفتيلة السهارى وبقيت في الظلام طويلاً من قبل أن يطبق الكرى على جفنيها..

واستيقظت على خبط رياح الجنوب على خشب النافذة واهتزازه مرة بعنف ومرة بخفوت، والتقطت أذنها أيضاً شتائم تلفظ بحدة من صوت أجش فعلمت على الفور أنه ميترا صبي المزرعة.. وثبت من فراشها ولبست خفيها ولصقت أنفها بزجاج النافذة وتفحصت الظلام ثم كرت راجعة ونزعت بندقية بروحين مقطوعة... مقطوشة معلقة من رباطها على الجدار كما تركها زوجها..

تأكدت من حشوها ونصبت الزنادين، اكتفت بسترة لبستها على عجل واتجهت إلى مدخل البيت فزاد صوت ميترا وضوحاً. لا ريب أن وحشاً ضارياً قد تسلل إلى حظيرة الماشية، فقد هاجت كلاب القرية وتعالى صياحها وتجاوب..

شدة الترباس وفتحت الباب فسمعت أيضاً صوت ابنها غيورغيتا يختلط بصوت صبي المزرعة، أسندت البندقية إلى المزراب وأطلقت طلقة واحدة فإذا بشبحين آدميين يمرقان من خلف الدار ويهربان في جوف الظلام نحو الغابة.. وجذبت الضجة أهل القرية المجاورة..

كان بعضهم متسلحاً بقوائم خلعوها من الأسوار الخشبية التي صادفتهم في الطريق، بينما أخذ ميترا صبي المزرعة يروي الحادث وكأنه يروي معجزة..

وصف لهم كيف أن ذئباً ضارياً قفز من فوق حرملته الكامش تحتها ليهجم على إناث الخنازير في غياهب الحظيرة، فانفجر عليها فجأة كنمر فما كان من إناث الخنازير إلا أن دفعته بأسنان تصطك بعنف وبضربات قوية من خطومها، فأتاح هذا الاشتباك لميترا أن يسرع فيلتقط عصاه، إنها نبوت صلب من خشب الزان، يبقيه دائماً إلى جواره ليواجه به مثل هذه الطوارئ..

ولقد وقعت أول ضربة له على الذئب فما كان من الأخير إلا أنّ أنين البشر، ثم تلتها ضربة ثانية قضت عليه تماماً فانهدّ على الأرض بلا حراك.. فهجم عليه الكلبان الكبيران الأبيضان وأعملا أنيابهما في زمارة رقبته..

سألته فيكتوريا:

- مادمت قد هجمت عليه وقتلته فلم هذا الصراخ كله؟

اعترف ضاحكاً وهو يرفس جثة الذئب:

- صرخت من الرعب.

* * *

رمت فيكتوريا جثة الذئب بنظرة غير مبالية، إن ذهنها ساح وراء الشبحين الهاربين.. لقد جاء الخطر معهما يدق بابها.

رفعت عينها إلى النجوم وأحست بهبة من ريح دافئ تتخلل سترتها... وبدا لها أن الفجر قد طلع عليها بإحداث تنبئ عن نذر لا تزال مبهمة..

عادت إلى الدار وأشعلت المصباح وطلبت إلى ابنها غيورغيتا أن يجدد حشو البندقية. إنها تدرك الآن بوضوح أنه لابد لها أن تأخذ معها بندقية زوجها.. البندقية من أين جاءت في الأصل؟ لا أحد يدري.. لعلها قد انطلقت يوم فقتلت رجلاً.

إنها مقطوشة بسبب أن يداً قد اختزلت بمبرد ماسورتها مثلما يفعل قطاع الطرق ببنادقهم، كان زوجها قد اشتراها في عهد بعيد من رجل شرير لا يعرف له مسكناً ولا أهلاً.. واحتفظ بها لتسعفه في الطوارئ العصيبة.

ينبغي لفيكتوريا أن تأخذ معها وتسلمها إلى زوجها، يدا إلى يد. ليس لها الآن رغبة في الراحة، فأسرعت تلبس مداسها بعد أن حشت كيساً بحذائها الطويل الرقبة مع تغييره من ملابس داخلية.

كانت قد أنجزت إعداد سرج الجوادين وعلقت به زكائب مليئة بمئونة السفر واضعة إلى جانبها معاطف وصدريات من الفرو، فحين تنقشع في الطريق واضعة سحب حبلى بالثلوج، وحينما يميل الجو إلى الدفء تتخفف مع غورغيتا في أحد الفنادق من هذه الملابس الثقيلة حيث يستطيع كل منهما أن يشمر عن ساعده.

سألها ابنها غيورغيتا بدهشة لا تحد:

- ولكن كم من الوقت سنمكث هناك؟

- لن نمكث في مكان يا غيورغيتا، سنمضي إلى أن نعثر على ضالتنا هذا هو هدفنا الأوحد، لا تنس أن تحمل بلطتك ليكون لنا عليها اعتماد....

وفي فجر اليوم العاشر من شهر مارس، وكان يوم جمعة، امتطت فيكتوريا جوادها، وامتطى ابنها جواده ثم اتجها أولاً إلى دار القس دانيلا، فدخل إليه

غيورغيتا وعاد بالنقود المودعة عند القس، ثم مرا بالحانة وأيقظا المعلم يوردان، ليملئ لهما زمزميتهما الخشبية بخمر الزبيب..

وحين طلعت الشمس كانا قد فارقا حدود القرية، يسيران مع خورسيل يصب في نهر بستريتا..

إن للريح همسة وهي تلفح الثلوج الهشة التي تكدست فوق الطريق.. وهذه السماء في لون شقائق النعمان. كان غيورغيتا قد ربط البلطة بحزام علقه فوق كتفه الأيمن، أما فيكتوريا فقد احتالت حتى وجدت للبندقية المقطوشة موضعاً تستقر به في مؤخرة السرج، وضار بهما الجوادان خبباً.

* * *

جنباً إلى جنب كانا يسيران.

فما أن توهجت الشمس في الأفق الشرقي من ناحية مدينة بسترا رسمت الأم علامة الصليب على رأسها وصدرها ثلاث مرات، فحذا ابنها حذوها، ونصب كل منهما جبهته لضياء الشمس.

# الفصل الثامن

بعد فترة قليلة لحق بهما زحافة التاجر اليهودي وهتف إليها من ورائها:

- أراك يا بنت الناس، إن لم أخطئ قد خرجت لسفر طويل، تابع غيورغيتا سيره أما فيكتوريا فقد شدت جوادها وتأخرت به حتى صارت إلى يمين الزحافة، ثم سألته دون أن تدير إليه وجهها أو تنظر إليه....

- ومن أين أدركت أن سفري طويل؟ هل أخبرك ذلك المعلم يوردان؟ وماذا قال لك؟

- وهل أنا في حاجة لمن أستقي منه الخبر؟ دعيني أصارحك أنك تجشمين نفسك مشقة كبيرة لا بسبب طول الطريق أمامك بل بسبب قلقلته لك بتشعبه وطلوعه ونزوله، ولنقل أنك تريدين الذهاب إلى مدينة دورنا، للبحث عن زوجك.. أفلم يكن من الأسهل عليك ركوب الزحافة، فيقودها ابنك أو سائق آخر حتى تبلغ بك مدينة دورنا، فالطريق إليها مفتوح مادات الثلوج تغطيه.

ألم يكن الأفضل من هذا أيضاً أن تجعلي وصولك إلى مدينة بيانزا ثم تركبين منها القطار وينتهي تعبك. قال غيورغيتا وهو يهز رأسه، باقياً على التفاته إلى الأمام:

- صدق التاجر ونطق الحق.

أجابه السيد دافيد وهو يضحك:

- سارعت إلى تصديقي، هل تظن أنني على حق؟ إن الصواب على خلاف ما قلت، فلو كان سفركما بالزحافة كما أشرت، ثم إذا بالثلوج تذوب فجأة بعد ثلاثة أيام، أفليست هذه ورطة لا تعرفان معها ماذا تفعلان بالمركبة الثقيلة، وما نفعها إذا لزمكما عبور خور أو اجتياز أرض عارية لمراع مهجورة... مشكلة تصبح الزحافة معها عبئاً لاعوناً..

هذا بخاصة إذا ما صادفت هذه المشكلة - لحظة اندلاق السيول من قمم الجبال.. أما ركوب الخيل فأمر مختلف، لهذا قررت أنكما خرجتما لسفر يتاح لكما فيه التريث هنا أو هناك بين الحين والحين كلما دعت الضرورة. وكذلك الصبر عند التحري عن الغائب، وشق الدروب المتشعبة للوصول إليه.

قد رأيت وجه ابنك يتهلل بالفرح حين ذكرت القطار، لكن ركوب السكة الحديدية دوخة وصم للآذان وعفرتة للنظر، أما أنا فمعتزم إلى أن أبلغ مدينة دورنا أن أتريث في فنادق على الطريق أو أنزل في بيوت الفلاحين فأفرّح عيني وأذني..

خبريني..

إنك ذاهبة لمدينة دورنا للبحث عن زوجك، ولعله لم يصل إليها قط.. أنصتت إليه وهي تتدبر كلامه:

- إذن فقد أفضى لك المعلم يوردان بسبب سفري.

- أخبرني بخطاب منه أن عندك صفقة طيبة تنتظرني وأنك في حاجة إلى نقود لأنك ستسافرين للبحث عن زوجك.

كما سمعت في الليلة الماضية من رواد الحانة أحاديث عنك تقصد المزاح، قالوا إن زوجك قد هجرك، وإنه حين يقع بين مخالبك ستسحبينه إلى البيت وتقفلين عليه بالضبة والمفتاح.

لا تبالي بثرثرة هؤلاء المغتابين، لكن خبريني، حين شاورت أهلك وأهله.

من الذي نصحك منهم بأن تصبري ولا تتعجلي فطال قعودك عن السفر بحثاً عن زوجك؟

تنهدت بنت الجبل وأجابته:

- واحسرتاه، ليس لي ولا لزوجي أهل أو أقارب في ماجورا. فلقد رحلنا عن وطننا في الصغر ثم جئنا هذه القرية للتوطن بها.. إن لزوجي أخوة، رعاة مثله، ولقد سمعت أنهم ابتعدوا ذات شتاء في طلب المرعى حتى بلغوا مع قطعانهم بلاد القرم

فأقاموا بها، نازلين في مروج خصبة على شاطئ البحر، والوعد أنهم سيرجعون إلينا بعد خمسة عشر عاماً.

إنهم لايسوقون إلا حميرهم وإن كانت جيوبهم مليئة بالذهب. أما أنا فليس لي أخوة من الذكور، لي أخوات خلفتهن ورائي في جبال بعيدة، لم نتقابل منذ الفراق، أما كبار السن من أسرتي فقد نزلوا إلى القبور.

إننا في القرية أسرة منقطعة لا يزيد عدد أفرادها عن أربعة.. أنا وزوجي وولداي، إذ ليس لي من أشاوره كما أنه لا ناصح لي إلا هذه المسكة من العقل.. والتي وهبها الله لي..

فإذا كنت قد تأخرت طويلاً عن السفر فلأني كنت أنتظر زوجي، كل صباح أقول إنه سيأتي اليوم..

بل وماذا عساي أن أفعل غير ذلك؟

أمّن التاجر على قولها وأجابها:

- معك حق، الآن يدور في خلدك أنه مات هناك..

- لماذا تقول هذا؟

- إنك خرجت تتقصين أثره لتعرفي أين انتهت خطاه واختفى شخصه، وإلا لو قدرت عودته لبقيت إلى اليوم في انتظاره..

- معك حق مرة أخرى، ولكن لا أظن أن اللصوص قدروا على الفتك به بعد أن قطعوا عليه الطريق وهو راكب من بلد إلى بلد.

حقاً أنه كان يحمل نقوداً، مثلي الآن وكان شجاعاً لا يهاب السير بالليل، أما أنا فقد اعتزمت ألا أسير إلا في وضح النهار.. وأن أجد كلما استطعت صحبة مسافرين، فهذه الدنيا بالأشرار، لكنها لا تخلو أيضاً من الأخبار.

في الليلة الماضية بعث لي ربي بذئب متوحش لينبهني أن لصين يريدان السطو على منزلي، وأنهما يحومان، سمعا ولا ريب أنني قبضت منك ثمن الصفقة وهذا دليل على أن المعلم يوردان رجل طيب مؤتمن إذ لم يفض إلى أحد بأنني أودعت الثمن عند الأب دانيلا..

تمتم غيورغيتا وهو يكتم ضحكه:

- أخيراً فهمت لماذا فعلت أمي ما فعلت..

- أجابها التاجر وهو يبتسم ويغمض عيناً وينظر بأخرى إلى جنب، رافعاً سبابته بموازاة عينه اليمنى:

- اسمعيني يا بنت الحلال واسمعي كلامي.. اطردي هذه الهواجس عن بالك، إنها تعقد حياتك، زوجك لم يمت، لا وهو في طريق السفر ولا وهو في مدينة دورنا..

انطلقت منها بالفرح صيحة تكتمتها:

- أواثق أنت؟

- كلا - لست واثقاً.

أحنت رأسها من جديد، واستطرد التاجر يقول:

- وكيف يكون كلامي موثوقاً به، وأنا لم أكن في صحبته، ولكن ليكن في علمك أن عقلي يقول لي إن كل شيء في هذه الدنيا له اسم وإفصاح ودلالة..

انظري هناك... إلى اليسار.

فوق التل ترين أمامك سبعة منازل من الخشب، تغطي الثلوج سقوفها، كما يتعالى فوق كل منزل دخان مدفأة، إنها خرساء صامتة ولكنها تنطق لنا مع ذلك بكلام مفيد وفصيح..

نعلم منه أولاً عدداً، فهي سبعة منازل، وزمناً أننا في فصل الشتاء.. واجتماعاً، ذلك لأنها تقول لنا إن في كل منزل أسرة مزارعين تتحلق حول النار تطبخ العصيدة ودهن الخنزير، أما إذا لم يتصاعد فوق سطح دخان فهذا إفصاح بكلام آخر مختلف وهكذا.

كل شيء في الدنيا له مغزاه ودلالته، بذمتك يا بنت الحلال هل سمعت من قبل عن جريمة بقيت في طي الكتمان ولم تكتشف؟

إن العقبان والغربان ترشدنا إلى المكان الذي تتوارى فيه جثة القتيل ضحية قطاع الطرق.. أما جثة الغريق فتدفعها الأمواج تلفظها على الشاطئ، وحتى لو ألقى بالجثة في قاع بئر.. فسيأتي موسم الجفاف ويغيض الماء، فإذا بالقتيل يشير بساقيه المرفوعتين إلى أعلى لأول حان على البئر.. ولو دفنت الجثة في العراء فستتكفل الذئاب بنبشها، هذا يعني أن كل شيء في هذه الدنيا له إفصاحه وتعبيره...

وتلك مشيئة الرب وحكمته..

ما من علم إلا تلك التي تنقل تباعاً من فم إلى أذن حتى يبلغ من يخصه. وهيهات أن يضل عنه.

بذمتك مرة أخرى، ألم تقولي بلسانك منذ قليل أن أخوة زوجك قد ابتعدوا في طلب المرعى، وحتى بلغوا بلاد القرم؟

هذا إذن انقطاع بالغياب يماثل الانقطاع بالموت، مع ذلك فقد وصلت إليكم أخبارهم..

فإذا لم يكن قد وصلك بعد خبر عن زوجك، فذلك لأنه مختبئ في مكان ما.. ملتزم الصمت..

ولو كان قد هلك لتسامع الناس بخبر هلاكه، دعيني أسمعك نصيحة أخرى:

- لابد لك من الوثوق والإيمان بأنه حي يرزق حتى تواتيك القوة على مغالبة متاعب السفر ومشقة البحث عنه...

هزت فيكتوريا رأسها وزمت شفتيها على ابتسامة لا تفصح إلا أقل إفصاح عن استخفافها بكلامه وقالت له:

- فهمت من طريقة كلامك لي يا سيد التجار أن الذي سمعته منك هو من قبيل المواساة التي يجود بها رجل عطوف القلب، لكني أحب لك أن تعلم بأنني حين خرجت للسفر، كنت أطيع إشارات وأوامر علوية، ثم إن البحث عن زوجي أشد وجوباً لي لو أنه مات قتيلاً، لأنه لو كان حياً يرزق لقدر على العودة وحده، وبإرادته...

أمن التاجر على قولها وأجابها:

- الرأي رأيك..

- ثم حث جواده بسوطه فجرى بالزحافة.

* * *

وصلوا إلى مدينة بستريتا والشمس تتوهج في الأوج، وفي قرية تاركاً كان تساقط الثلج مع دفء الجو كحبات مسبحة من زجاج له بريق، هذا على حين بقي النهر جسراً متجمداً من ثلج في لون الزمرد، تمر عليه زحافات محملة بالحطب، وفلاحون يسيرون وكل منهم يهز بلطته إلى جنبه، أما الاستثناء فهو ملتقى النهر بفرعه، فقد تألفت عنده بقعة يبقبق فيها ماء فضي لامع، كأنها الشمس أوت فيها إلى عشها...

وبلغوا الشاطئ الآخر فتريثوا لتستريح الجياد، وجلست فيكتوريا وابنها يأكلان بجانب زكائب المؤونة، أما السيد دافيد فقد تذكر طلباً له عند تاجر، لا شك أنه سيقابل أيضاً تاجرين أو ثلاثة، يقرب لحيته الشائكة إلى لحاهم وهم لا يكفون عن لف شعورهم على أصابعهم، تلك صورته كما تخيلتها بنت الجبل بابتسامة وهي تنتظر عودته، وتحرس بضاعته.

وأقبل السيد دافيد بعد تأخر طويل، يبدو عليه إنه في عجلة و يوسع من خطوته، ويغرز حذاءه الثقيل في الثلج الهش.. خلع مخلاة الشعير عن رقاب الجياد والتقط السوط وقال:

– هيا بنا، سنمضي الآن، أخبرك أنني تحدثت إلى بعض اليهود هنا، وكعادتي جاذبتهم أطراف الحديث، وتكلمنا عن كل شيء في العالم..

فلقد ذكروا لي أثمان الغلال في جالاتزي وفي هامبورج، وفي باريس، لم يذهب واحد منهم إلى دورنا هذا الشتاء، فقلت لهم أي جنس من الناس أنتم، ما خطبكم، لماذا لم يذهب منكم ولو واحد إلى دورنا ؟

فأجابوني:

– ها نحن قدامك، ترانا...

لم يذهب واحد منا إلى دورنا كما قلت فأجبتهم عادلاً عن تقريعي:

– طيب، رعى الله أولادكم، سيكون فيهم الخير والبركة، وليمد الله في أعماركم حتى نتقابل هنا بعد مائة عام.

فكان جزاء تلطفي، إكرامهم لي بكأس من أطيب النبيذ.. ولماذا النكران؟

إن أجود نبيذ في بلادنا هو من كروم ملتقى نهر تاركا بفرعه، وهو يتخمر مع زبيب مستورد من القسطنطينية..

صاح له غيورغيتا بلا حياء:

– عدت بعد تأخر طويل، يا سيد دافيد، وأنا وأمي في عجلة من أمرنا.

– أمامكما وقت فسيح قبل أن تذوب كل هذه الثلوج، لقد تأخرت لأني وددت قبل أن أتبادل الحديث مع التجار أن أستعير شالاً ينبغي أن أغطي به كتفي عند الصلاة، ثم ذهبت إلى المعبد لتأدية الفريضة، والآن هيا بنا نرحل، سنصل قبل الغروب إلى نهر بكاز، وهناك سننزل عند رجل مسيحي طيب القلب، من معارفي. إن لي معارف كثيرين. ولسوف أذهب إلى الأسر اليهودية لأشرب خمر الزبيب، فهو مر عندهم لا حلو. سأسأل أفراد هذه الأسرة أيضاً، هل ذهب واحد منهم إلى دورنا هذا الشتاء، فإذا خاب توقعي فإني لن أنجيهم من تقريعي.

* * *

وساروا بعد ذلك على مهل مع وادي نهر بستريتا على طرق تغطيها ثلوج هشة، وحكمت بنت الجبل أن رفيقها في السفر هو مبعوث العناية الإلهية لها، فقد انتفعت به.

لسانه ذرب.

لا حجم عن الهجوم يمنة ويسرة، على الناس، بأسئلة..

ومع الغروب كانوا قد وصلوا إلى قرية بيكاز فتريثوا في فندق السيدة دوريا، مسحوا على جيادهم وقدموا لها علفاً من شعير، ووضعوا متاعهم في مأمن في حجرة بالفندق.

ثم استدعوا صاخبة الفندق وزوجها، فلما ذكروا لها اسم نيقفور ليبان لم يجدا هذا الاسم غريباً عليهما.. وتذكروا صاحبه.

وقالت السيدة دوريا:

- إنه رجل لا مثيل له في طيبته وكرمه، إذا حالفه التوفيق ونال ما يريد، لم يبال كم يصرف، قد مضى زمن طويل منذ رأيته آخر مرة، لعل شغلاً احتجزه في مكان ما بالوادي، أو لعله قد استطاب المرح في التردد على حفلات الزواج والتعميد في قريته...

- وحالما يأتي الربيع سنراه قادماً إلينا...

- سألتها بنت الجبل:

- رؤيتك له آخر مرة. هل كانت منذ مدة طويلة؟

- نعم، أطول من العادة... منذ الخريف الماضي... كان ذاهباً يصعد الجبل على جواد عفي..

- أشار السيد دافيد بغمزة من عينه اليمنى فلم تلح فيكتوريا على محدثتها بأسئلة جديدة..

- وقالت دوريا:

- ولماذا سؤالكم لي عنه؟

رد عليها السيد دافيد، قاطعاً الكلام على فيكتوريا:

- لأنني مدين بمبلغ من المال إلى هذه الولية.

- ولماذا لا تبحث عنه في قريته بأعالي تاركاو إنه غير موجود هناك، وقد تحققت من ذلك بنفسي، ونحن قادمون من قريته، وسنظل معاً رفقة طريق حتى نبلغ كالوجاريني...

- ترى أين يكون إذن؟

إذا لم يكن في الجبل فلعله باق مع قطعانه بقرب مستنقعات منطقة بروت أو منطقة جيجا..

- الظاهر أن توقف في دورنا بعد أن مر من هنا.

- نعم.

هذا محتمل، كان قد قال لنا أن في نيتهم شراء نعاج من بعض الرعاة في دورنا إذا كان قد وجد مراعي طيبة، فلعله مكث بها.

- هل بلغك خبر عنه؟ هل حدثك إنسان عنه.

- كلا.. لم أعلم عنه شيئاً.

تنهدت فيكتوريا ومسحت برفق عينيها بكفيها ثم عدلت شالها على كتفيها..

وفي صبيحة اليوم التالي، وكان يوم سبت، امتطيا جواديهما من جديد لكن السيد دافيد لم يلحق بهما إلا بعد تأخر طويل...

ذلك لأنه لم يخرج بزحافته إلا بعد أن توهجت الشمس وأذابت الثلوج فوق السقوف، وبعد أن بدأت المياه تسيل من المزاريب..

اعتذر لهما ضاحكاً:

- لا تغضبا مني هذه المرة لطول تأخري إنني غير محقوق، فالسبب هو معاهدة بين اليهود وربهم، فاليوم سبت، وهو يوم يحرم علينا السفر فيه، أما إذا كان السفر فوق الماء فالأمر يختلف.

إذ يحل لنا السفر حينئذ إلى أن ينقطع الماء من تحتنا، فمن ركب الماء لا يستطيع إلا أن يتابع السفر لذلك..

أجاز لنا ربنا السفر فوق الماء يوم السبت، ولما كان ينبغي لي من كل بد أن أصل قبل المساء إلى بيتي في كالوجاريني فقد انتظرت إلى أن سالت المزاريب، وذابت ثلوج الطريق لأن الماء غمر مسندي زحافتي فتحقق لي شرط السفر فوق الماء، فلا أثم علي..

وسيظل الماء تحتي إلى أن أبلغ بيتي..

كيف فقهت كل هذا؟

أكان بينك وبين ربك حديث متبادل عن الحرام والحلال..

- لم يكن حديثه معي، بل مع رجل من أقربائي منذ عهد بعيد، اسمه موسى بن عمران.

فأنت ترين أنني سأسافر على الماء إلى أن أبلغ بيتي، فتستقبلني زوجتي -

نصفي الحلو- بذراعين مفتوحين، سينتهي ركوبي للماء عند عتبة الباب وأدخل حيث أجد نبيذاً وطعاماً منوعاً أسمع نشيشه على النار بلذة.

وستنزلان ضيفين عندي كما كان ينزل نيقيفور ليبان..

- أفهم من كلامك أنه كان ينزل عندك مراراً.

- أحياناً كثيرة، وأدعو الله أن ينزل عندي من جديد، فإني أعتقد أنه سيكون بصحبتكما في رحلة العودة إلى البيت..

وهكذا تابعوا السير وهو يثرثرون بانبساط، كانوا قد خلفوا وراءهم مناخهم الذي استراحوا عنده وقت الظهيرة، وظلوا من بعد يلمحون من بعيد الظلال الزرقاء لجبال سياهلاو التي تكسوها الثلوج، ففي هذا الموسم تتحرك الدببة في أغوار الجب المشمسة وتخرج رؤوسها من كهوفها ويتردد وهي تستقبل الشمس شخيرها وعطاسها وعما قليل تصفق ديوك البراري بأجنحتها فوق الأشجار ثم تهبط على الأغصان لتنقر ثمار شجر السرو.

كما تهدر السيول بصوت شبيه برنين الأجراس، وتتواثب فوق درجات الصخور وكتل الثلوج، ويعج لها في سيرها، هنا وهناك، زبد متحرك دائم الغناء والتجدد، بين تماسك ونثار، كأنه الدانتيلا.

تنسمت بنت الجبل هي أيضاً كحيوان الغابة أريج الربيع وخرير مائه، وكانت قد تعبت من امتطاء جوادها نهارين كاملين، واشتهت أن تجد فراشاً وثيراً.

* * *

السيد دافيد يسكن في قرية كالوجارني، غير بعيدة من صخرة الزيزفون في حجرة ملحقة بدكان صغير وحانة.

أقبلت إليه زوجته تجري، وهي امرأة شمعية البياض لها لغد مزدوج ورحبت به بصوت تتراقص فيه نغمات الفرح، ثم صوبت نظرة مدهوشة إلى بنت الجبل حين رأتها تنزع من السرج بندقية مقطوشة شأن قطاع الطرق.

ودخلت فيكتوريا وابنها حجرة اشتدت تدفئتها وأكل غيورغيتا بشهية، وجبة دسمة، أما فيكتوريا فقد ظلت واقفة. بحثت عن إبريق الماء ثم شربت بلهفة لترطيب جوفها المحموم من عناء السفر، ومن نافذة راحت ترسل النظرة إلى البعيد... إلى تلك القمة.

وقالت فيكتوريا للسيد دافيد:

- سمعت من زوجي ذات يوم حكاية هذه الصخرة، أجابها:
- نعم، لها حكاية، تروي أسطورة أن الشيطان نزع ذات ليلة هذه الصخرة من قمة جبل سياهلاو ثم حملها على ذراعيه قاصداً أن يلقي بها في عرض نهر بستريا لتكون سداً يعوق جريانه فيفيض ويغرق في الوادي، فإذا به وهو يطير بها في الهواء تفاجئه آخر صيحة للديك في وداع الليل، فيترك الصخرة تهوي قبل أن يبلغ مقصده، كأن يخشى أن تطلع الشمس فتصعقه، فمضى في الظلام قفزاً نحو الجحيم تاركاً الصخرة تقع حيث ترونها، وهذا الكلام كله من قبيل حكايات السمر، لكن الناس تصدقها وترويها مرة بعد مرة.
- عارضه غيورغيتا قائلاً:
- إذا كان الناس ترويها لأنها قد حدثت فعلاً.
- كل شي جائز.

ولكن هذه الحكاية من العسير تصديقها وإلا لكان الشيطان في قمة الغفلة والبلاهة.

لماذا لم يعد في الليلة التالية ويدفع الصخرة بضربة واحدة من قدمه فتسقط من الجبل إلى النهر تواً. لا تنطلي على هذه الحكاية، فالصخرة موجودة في مكانها قبل خلقة البشر، وقت إن لم يك هناك بعد أنس أو جن، أما نيقيفور ليبان فلقد كان كلما نزل عندي، وجلس إلى هذه النافذة غلب عليه من حيث يدري شغف بأنن تسلق هذه الصخرة ليحدث بها شجا ببلطته قاصداً أن يشج رأس الشيطان بالطبع.

كنت أخانقه وأثنيه عن عزمه. وكان يجيبني أنه سيحمل أيضاً زقاً من النبيذ ويصحب جماعة من الغجر عازفي القيثارة ليحتفل بانتصاره، فلما سمع جيرتنا من الغجر كلامه اختبئوا وراء بيوتهم....

واعترضت فيكتوريا قائلة:
- حقاً إنه شديد الانفعال إذا سكر، وكنت أعجب بسطوته حين تلعب الخمر برأسه، أنت لا تعرف سطوة زوجي.

كنا عائدين ذات مرة من بياترا وأنا حبلى بابني هذا الذي تراه أمامك، وفجأة هاجمنا نسر من الأشرار لطخوا وجوههم بالسخام طلباً للتنكر. هددونا بنبابيتهم وأمرونا أن نلق بما معنا من نقود ومؤونة، طلعوا علينا من تحت جسر عال عند مفترق طرق حيث كان زوجي متسلحاً ببلطته، فرمى طاقية من الفرو، وهز شعره الطويل ورفع بلطته وزعق إليهم:

- يا أغـوات، تبـاً لكم.. ولسـوف أهوي بـالبلطة على جبـاهكم، وبضـربة من قدمي أقذف بكم إلى هاوية الجسر.. فتراجعوا لائذين بالأدغال ثم انطلقوا هاربين، هيهات أن يقع عليه اعتداء، إنه كان لا يهاب قطاع الطرق.. يعرف كيف يغالبهم، فإذا كانت قد قتلته يد، فلابد يد رجال زعموا له أنهم أصدقاؤه، طعنوه غدراً، في ظهره...

وأخذت زوجة السيد دافيد تشير وتتكلم بلغة غير مفهومة، فترجم عنها زوجها قائلاً:

- تقول إن هذا هو الذي لابد أن يكون حدث له، وإلا لكان من المستحيل قتله، إنها أيضاً تحب نيقيفور ليبان وتعجب به.. فصوبت فيكتوريا إلى اليهودية نظرة حانية وقد علت شفتيها ابتسامة رقيقة وأضافت ربة الدار كلاماً آخر شرحه لهما التاجر بقوله:

- تقول إنه حين نزل عندنا في الخريف الماضي وهو في طريقه إلى دورنا كان وحده، ليس معه من رفيق..

ثم أضاف:

- أما أنا فأعترف لكما بأنني لم أره يومئذ، كنت في المدينة أبيع بضاعتي.

وعادت ربة الدار إلى الكلام.. فقال زوجها:

- تقول إن نيقيفور ليبان لم يتريث هنا إلا وقتاً قصيراً، وأنه قد تابع سفره مع قدوم الليل.

- مدت فيكتوريا نظرتها إلى الظلام خلف النافذة وهي تزن في سرها هذا الكلام الذي سمعته..

- بينما قال السيد دافيد مترجماً عن زوجته:

- تقول إنه كان يحمل نقوداً، وإنها ناشدته ألا يرحل، لكنه لم يستمع إليها وتابع سفره.

أجابت بنت الجبل من بين شفتين مزمومتين:

- هذا شيء غير مستبعد.

وحين خلت فيكتوريا إلى نفسها أخذت ترسم علامة الصليب بسرعة ومراراً، على باب الحجرة وعلى الوسادة التي ستسند إليها رأسها، ثم تهاوت على مقعد واطئ، له ثلاث قوائم، ثم ضمن ركبتيها بذراعيها وبقيت ملمومة، نظرتها الغائمة بالظلال شاردة في متاهات المستقبل المجهول الذي ينتظرها.

وحاولت أن تقتنص بمخيلتها صورة زوجها ليبان وتدير رأسه نحوها لتبين وجهه، لكن صورة نيقيفور ظلت تتراجع عنها، وقد انهمرت فوقها سيول الربيع.

ومن خارج الحجرة تساقط الثلوج عن السقوف، قطرة فقطرة، وريح الجنوب، تتراوح بين علو وخفوت.

تمتمت كأنها تحادث زوجها:

- غيورغيتا...

قل لي..

هل أنت مع امرأة أخرى؟

تقلقل الفتى في فراشه وفتح عينيه:

- هل كنت تتكلمين يا أمي؟

أجابته ونظرتا مثبته على النافذة:

- كلا.. لم أتكلم..

تأملها قليلاً ثم أطبق فجأة جفنيه واستعاد نومه الهنيء.

أما هي.. فظلت في سرها تحاكم زوجها.

***

وجهت إليه عقاباً طويلاً دون أن تفتح شفتيها، كانت تحدثه من صميم قلبها وتستنفذ من النسيان شكوكها القديمة وآلامها الماضية..

كانت من قبل تصارحه وتؤنبه على هيامه بربط جواده على أبواب نساء يعرفهن ويطيل المكث معهن، فكان هدفاً للوم شيخ الرعاة من أتباعه، ولوم كل العقلاء الذين أنقذهم الله من الغواية منذ زمن بعيد، أما الآن.. إذا كان حقاً قد مات. فإنها تحمد له ما منحها من ابتسامات رقيقة وساعات صفو حلوة.

ومنذ تسع سنوات حدث لها ذات يوم إبان عيد القديس جورج أن هجمت عليه كالنسر الجارح، تهم أن تنشب مخالبها في زمارة رقبته وعينيه، فدفعها بذراعه برفق وهو يضحك فاشتط هياجها درجة فوق درجة وقذفت في وجهه باسم امرأة مشهورة في القرية بدمامتها وتبذلها ومهانتها في خدمة البيوت. وصرخت إليه بصوت متهدج وهي تشرع من جديد مخالبها.

- هذه هي التي تجد عندها انبساطك ونعيمك وتبدد عندها مالك.

- فانهال زوجها عليها ضرباً ثم أخذها في حضنه وحبس فيه ذراعيها، فهدأت وصمتت فجأة كأنما ماتت وأصبحت جثة بلا حراك.

ثم أسندت جبهتها إلى كتف زوجها، وترقبت بمسكنة عفوه وتدليله لها بقبلاته.
وضربها ذات يوم منذ سبع سنوات بسبب امرأة أخرى، ضربها مرة بسبب غيرتها من عينين سوداوين، ومرة في السنة التالية من أجل غيرتها من عينين زرقاوين، إرثاً عن الألمان ثم أدركت وهي لا تصالح نفسها كل المصالحة، أن رجلاً مثل زوجها يأخذ هذه الأمور مأخذ التسلية العابرة، شأنه وهو يشرب قدحاً من النبيذ أو يقطف زهرة، أما هي فلها سمو على بقية النساء.

تنبعث منها قوة أو سحر لا ينجح ليبان في تفسيره فلا يلبث أن يعود إليها، كما لو كان يعود إلى نبع مياه صافية.

واستفاقت من ذكرياتها وقالت في سرها:

- محال أن تكون قد اقتنصته امرأة يهودية، أو امرأة مجرية خضراء العينين.

لا شك أن جثته ترقد في مكان علمه عند ربي. نادته مرة أخرى من صميم قلبها وغفرت له كل نزواته، ولكن ليبان ظل صامتاً لا ينطق لها بكلمة....

وفي صبيحة يوم الأحد عادت من جديد تمتطي صهوة جوادها.

جسدها مخلع من التعب وعيناها تحيط بهما هالات سوداء..

واستمتعت وهي سارحة الذهن إلى نصائح التاجر اليهودي، ثم شدت إليه انتباهها حين بدأ يتكلم عن حساب عليها وعن توصياته فيما يتعلق بنفوذها، أجابته:

- معك حق.

سأدفع ما أنا مدينة به نظير الأكل والنوم، وأريد أن تفك لي بعض أوراق من فئة ألف لاي لأجد ما أدفع به نفقاتي الصغيرة في الطريق، إذ لا أريد أن يرى أحد أني أحمل معي مبلغاً كبيراً، يسيل له اللعاب.

إنه لو كانت النقود نقودي ما باليت، ليأخذها من يريد ليفعل بها ما يشاء، لكنها نقوده.

- نقود من؟

تمثل في ذهنها أن ترد قائلة:

- نقود لبيان....

نقود رجل ميت.

لكنها احتفظت بإجابتها لنفسها فلم تنطق بها، تناولت الفكة وعقدت عليها طرف شالها ولكزت بكعبيها جانبي جوادها.

وسارا تحت شمس مشرقة حتى بلغا قرية فاركاشا، فإذا على مدخلها تستقبلها ريح باردة تهب من ناحية الجبل الكبير وتجر معها سحباً سوداء وأعاصير ثلجية. وحين مرا أمام الكنيسة لم يك يستبين لنظراتهما شيء في السماء أو فوق الأرض. شدت فيكتوريا جوادها وترجلت وركعت أمام الكنيسة وقالت لابنها:

- يا غورغيتا.

هذا أمر من الله بأن نتريث هنا، فترجل ابنها بدوره ومضيا وهما يقودان الجوادين بزماميهما يبحثان عن مأوى لهما.

# الفصل التاسع

القرية غريبة عليهما

سارا على غير هدى في الحارة الرئيسية يتلفتان تارة يسرة وتارة يمنة، والعاصفة الثلجية تخبط عيونهما بأذيالها، ثم هدأت زوبعتها وأشرقت الشمس فاستعادت قبة الأفق كسوتها الزرقاء، فإذا بهما كأن عالماً جديداً قد انكشف لهما فجأة.

فلقد انعطف الطريق بغتة ورفعهما إلى ربوة شاهدا أمامها حشداً كثيفاً من القرويين لهم ضجة مختلطة، آخر القادمين يقلقون المزدحمين أمامهم فلا ينقطع التدافع.

ووقف قروي يتكلم بصوت عال على عتبة منزل، وانشق الحشد ليفسح الطريق لرجل قصير أسمر ضخم الرأس، يبدو من كل أحواله أنه من رجال الحكومة، يرتدي قلنسوة مخروطة من فرو الأستراخان، ومعطفاً له ياقة من فرو القندس، يتشمم الهواء ويتابع بنظرته زعابيب الثلوج المتسحبة هرباً نحو الغرب.

وتقدم إلى الحشد عند مفترق طريقين قلة من القرويين قادمين من جهة أخرى. ويسبقهم اثنان من رجال الخفر والبندقية على الكتف وهما يدفعان أمامهما رجلين يرتديان ملابس تستحق إلى حد كبير وصفها بالرثة.. معطفاهما الضيقان عليهما ولهما أكمام تقصر عن أذرعتهما، ومع ذلك فيبدو عليهما أنهما غير مستاءين من الوضع المهين الذي رآهما الناس عليه.

وحين لحظهما الرجل اللابس قلنسوة فرو الأستراخان والمعطف ذي الياقة من فرو القندس، بدت عليه علامات الجد والقسوة، وتلبث مكانه ينتظر أن يسوق الخفيران هذين الرجلين إلى موطئ قدميه، هذا الإذلال هو قصده الذي يريد من الناس أن تفهمه. كان معتلياً لربوة، فوقف الخفيران أسفل منه قليلاً، وكانت الريح قد هدأت وبسطت أشعة الشمس مرحها الحلو البريء، فوق الأرض، فلم يعد أحد يشغل باله بعذاب العاصفة وعصفها.

وثار فضول فيكتوريا وغيورغيتا -شأنهما شأن الجميع- لغرابة صورة قدوم هذين الرجلين، وسألت الأم بلهفة رجلاً من أهل الجبل:

- ترى أي محظور ارتكبه هذان الرجلان؟
- لا أدري، فسيجري استجوابهما وسنعلم.
- وهذا الموظف شديد القصر والسمرة، هل تعرف من هو؟
- هذا رجل مهم، إنه وكيل مأمور المركز.
- وكل هؤلاء الناس المحيطين به.. لماذا؟
- لأنه دعا إلى عقد اجتماع في بيت العمدة ليذيع على الأهالي تعليمات الحكومة، إذ بعد بضعة أيام سيكون مطلوباً منهم انتخاب نائب جديد للبرلمان..

لا علم لفيكتوريا بكل هذه المسائل، إن أكبر اهتمامها منصرف إلى الرجلين في الملابس الرثة.

نهضت من السرج مرتكزة بقدميها على المهمازين حتى تنال رؤية أفضل، وكان وكيل المأمور يستجوب الرجلين بلهجة قاسية، صوته عال وكلماته تنطلق كالرصاص.

سأل الخفيرين:

- من هما هذان الرجلان؟

أجابه أحد الخفيرين.

- ضبطناهما في الحانة يعرضان على روادها لعبة قمار غريبة، يفرشان غطاء من المشع عليه رسم مربعات مختلفة الألوان ولكل مربع رقم، ويستدرجان القرويين إلى وضع نقود على المربع الذي يختارونه، ثم يرمي كل واحد منهم بالنرد فإذا جاء برقم يطابق الرقم الذي راهن عليه دفعا له ربحه، أما إذا لم يخرج هذا الرقم فإنهم يلمون نقوده المرصوصة ويضعانها في جيوبهما.

صرخ إليهما وكيل المأمور:

- أهذا هو الضرع الذي عرفتما كيف تحلبانه؟

اندفع أطول الرجلين يجيبه محتجاً مكثراً من الإشارة والتلويح بيديه، على حين ظل الثاني صامتاً منكسراً يرفع نظراته ويخفضها:

- يا سيدي وكيل المأمور.

ألتمس منك أن تتكرم بالاستماع إلى كلامي.. من فضلك وإحسانك..

فسترى أن اللعبة ليس فيها غش أو احتيال.. وإنما تعتمد على الحظ. يا سيدي وكيل المأمور، إني أعرفك حق المعرفة، أنت السيد أناستاس بالميز وكيل مأمور المركز، أنت رجل عادل، هذه شهادة كل الناس.

فإذا كنا نكتسب من هذه اللعبة في بعض الأحيان فأنت تعلم أننا لا نسلم أبداً من الخسارة، بدليل أننا خسرنا فعلاً في بعض الأحيان، كما حدث لنا في قرية هانغو.. هذه هي شغلتنا، مثل أية شغلة أخرى؟

* * *

ها هو أناستاس بالميز وكيل مأمور المركز قد شد من قامته وعدل ظهره فصويت قلنسوته المخروطة قمتها المدببة نحو السماء، ورد عليهما بلهجة فيها دهاء ومكر خبيث:

- عجباً.. كنتما أيضاً في قرية هانغو؟ تسرحان على حل شعركما وأنا هنا مغروز أجاهد في تجميع الأهالي منشغلاً برعاية مصالحهم، لا صنعة لكما غير مد حبائل لاصطياد الناس غشاً وخداعاً..

- إننا أناس غلابة.. مساكين.

لا لنا ولا علينا.

فيا سيدي وكيل المأمور، هيهات أن نتصور أن إنساناً يبلغ به الحمق أن يفعل ما تنسبه إلينا. إننا لا نغش أبداً، ولعبتنا هو مع رجال بالغين عيونهم مفنجلة، ولا تنطلي عليهم حيلة، نحن نشرح لهم قواعد اللعبة ولكن لا نملك لا إرغامهم على المقامرة. منهم من تروق له اللعبة فيضع بمنتهى طيب الخاطر نقوده على رقم. فهل نستطيع منعه بالقوة والغضب؟

- كلام فارغ.

أنا أعرف من أي طينة أنتما.. فالأفضل أن تشرحا لي قواعد هذه اللعبة.

- هي لعبة النرد، يا سيدي وكيل المأمور، هناك رقم يكسب ورقم يخسر، فإذا راهن رجل على رقم يكسب، دفعنا له سبعة أمثال المبلغ الذي قامر به أياً كان.

- شيء عظيم، إذن لو كان بين الناس هنا من كسب بهذه اللعبة، فليرفع أصبعه، فهأنذا أرى أن لا أحد قد رفع إصبعه إرضاء لصاحب المهنة الشريفة الواقف أمامي الذي يدافع عن نفسه بفصاحة.

والآن أرجو ممن خسر أن يرفع أصبعه!! إلى هذا الحد كثر عدد الخاسرين؟

إن نظري يعود لي قائلاً أنكم جميعاً بلا استثناء من الخاسرين.

واندفع القرويون يضحكون ويهزون أذرعتهم، إنهم مصممون على أن ينالوا بهذا المرح مقابلاً ولو قليلاً لنقودهم التي ضاعت عليهم.

زادت علامات القسوة على وجه وكيل الأمور وقال لهما:

- من فضلكما يا صاحبي الذمة الشريفة، أريد أن يريني كل منكما بطاقته الشخصية، من أنتما، ومن أين جئتما؟

قدم إليه أحد الخفيرين تقريراً شفهياً حسب الأصول، متكلماً باحترام شديد:

- لي الشرف يا سيدي وكيل المأمور أن أحيطكم علماً بأني استجوبت هذين الرجلين في هذا الخصوص فتبين لي أنهما لا يحملان بطاقة تحقيق الشخصية.

من أنتما؟ ومن أين جئتما؟

- نحن من مدينة جالاتزي، اسمي سبيرو غورغيتو واسم رفيقي أيناكولاي.

- تقولان أنكما من جالاتزي، إذن فأنتما تعرفان أهل الجبل لأنكما تريانهم هناك نازلين إليها فوق النهر بأطوافهم المحملة بالأشجار المقطوعة.. إلى هذا الحد بلغ بكما الشوق لرؤيتهم حتى جئتما هنا لمقابلتهم؟

أريد أن أرى الآن الترخيص الممنوح لكما لمزاولة القمار؟

- ليس معنا ترخيص.

صرخ السيد وكيل المأمور، وقد شد من قامته فبدا كأنه طويل جداً، قائلاً للخفيرين.

- عليكما باقتياد هذين الهمامين من نقطة بوليس إلى نقطة بوليس حتى تبلغا بهما المركز تحت الحراسة، ولكن لابد لهما أولاً من رد النقود المسلوبة من هؤلاء القرويين وستسلم إلى حضرة العمدة مع محضر التحقيق.

ارتفع صوت من وسط الحشد يسأل:

- وماذا سيفعل حضرة العمدة بهذه النقود؟

- سيرد منها لكل منكم المبلغ الذي خسره..

- إن شاء الله يعرف من هم الخاسرون وكم خسر كل منهم.

تعالت الضحكات من جديد، استمتعت فيكتوريا بهذا المشهد، وودت لو أنها جربت حظها وقامت بالمراهنة بمبلغ لتكسب سبعة أمثاله، وأحست أن ابنها غيورغيتا يرثي مثلها لهذين الرجلين من مدينة جالاتزي يسيران مقبوضاً عليهما بين خفيرين شاكي السلاح.

وتشاور القرويين ماذا يفعلون بالنقود إذا ردت إليهم، فانقسم الرأي اقترح بعضهم شراء برميل من النبيذ واقترح آخرون دفعها إعانة للكنيسة.

ترك وكيل المأمور مكانه وتقدم نحو فيكتوريا وغيورغيتا، ورغم قامته الضئيلة فإن بنت الجبل لم تجسر نظرتها على مقابلة نظرته، بل نسيت أيضاً أن تتحول إلى جانب الطريق.

سألهما:

- وأنتما؟ ماذا تفعلان هنا؟

أجابته بخوف؟

- أنا أيضاً ليس معي بطاقة تحقيق الشخصية.

- لا أسألك عن بطاقتك ولست في حاجة إليها، إذ مما لا شك فيه أنك زوجة لراع مالك قطعان من قرية تاركاو.

أجابته وهي تبتسم:

- صدقت يا سيدي.

- وهذا الفتى هل هو ابنك؟

- نعم، هو ابني.

- إذن لماذا هذا التسكع. اركبي جوادك من جديد وسارعي بالعودة إلى بيتك، فلا شك أن زوجك قلق لغيابك.

- لم أكن في طريقي إلى بيتي يا سيدي، بل أنا ذاهبة إلى مدينة دورنا.

- فهمت، سفرك لقبض ثمن بضاعة لكم من مشتر لها في دورنا. والربيع قادم وستكون لكم حاجة إلى النقود، هيا، مع السلامة.

رأت بنت الجبل من واجبها أن تضيف:

- أنا زوجة نيقيفور ليبان.

هز وكيل المأمور كتفيه، إنه لا يعرف من هو نيقيفور ليبان، ولا يعرفه أيضاً

أحد من القرويين الذين اقتربوا منهم ليستمعوا إلى الحديث وكل منهم يريد أن ينال منهم نصيب الأسد.

أحست فيكتوريا كم هي بعيدة عن قريتها، كم هي قاسية غربتها، ولكن ها هي ذي نعمة قد هبطت عليها، بإعلان السيد وكيل المأمور أنها مسافرة متلهفة على تحصيل نقود. إذن فجيبها فارغ، وهذا ما ينبغي أن يتناقله الجميع فينقطع إغراء اللصوص بالسطو عليها، وقالت له:

- إنني معجبة بك يا سيدي وكيل المأمور، لأنك نفهم كل شيء ولا تخفى عنك خافية.

أجابها السيد أناستاس بالميز بلهجة تنم عن الاغتباط:

- ليس هذا بمستغرب، فقد عشت طول عمري مع أهل الجبل، إنني أعرفهم مثلما أعرف زوجتي.

لمحت فيكتوريا خلف وكيل المأمور رجلاً من أهل الجبل يتكتم ضحكته وبعد أن انصرف السيد أناستاس بالميز منتفشاً كالديك سمعت همساً ما لبثت أن ضحكت له أيضاً:

- وهل هناك رجل يعرف زوجته؟

إنه بهذا القياس لا يعرف عنا أموراً كثيرة.. هبت فجأة زوبعة ثلجية جديدة، فلفت الواقفين بقماط من ندف غليظة مبللة..

وتفرق الجمع وهم يتضاحكون، واحتمت فيكتوريا وابنها ومعهما الجوادان في أول مخبأ صادفاه، وكان مخزناً مليئاً بالدخان، اعتزما البقاء به ريثما تنتهي العاصفة الجديدة..

لكن عسفها استطال ولم تنته سريعاً هذه المرة، كأن الشمس قد اختفت وهاجرته إلى عالم آخر.

وهبط الثلج بعنف كثيفاً غزيراً في أفق غشاه لون الرماد، وقال غيورغيتا:

- كان الأمل أن نقدر على متابعة سفرنا فإذا بنا نواجه ضرورة التوقف والبحث عن فندق ننزل فيه.

- سنبحث وسنجد وعسى يعود الجو سريعاً إلى الصفاء، ألا تعلم أن العجوز دوكيا تنفض معاطفها في هذا الموسم ثم تجففها في الشمس واحداً بعد آخر.

دوكيا شخصية أسطورية ترتدي تسعة معاطف ترمز إلى الأيام التسعة التي تسبق اعتدال الربيع.. انطلق إليها سؤال بحدة وانفعال:

- ومن تكون دوكيا هذه؟

والسائل رجل قد دخل المخزن للاحتماء به أيضاً من العاصفة، يرتدي معطفاً واسعاً من الفرو ملبداً بالصوف، وبيدين مسودتين ناتئتي العظام خلع قلنسوته من الفرو ونفض عنها الثلج بقوة.

إنه رجل بادي الشيخوخة سرى لون الرماد في فوديه ولمته وتهوش شعر الحاجبين، يتنفس بشخير عال، ولحظت فيكتوريا على الفور أنه مخمور، أحنى الغاضب هامته قليلاً، من قبل أن يفرد قامته وينتصب أمامها بطول جسده، شأن المستفسر الغاضب والمستخف بمحدثه معاً، سألها من جديد في زمجرة :

- من تكون هذه العجوز دوكيا التي تتحدثان عنها؟

قال له غيورغيتا:

- العجوز دوكيا يا عم..

- ولكن أيهما تقصد؟

هل هي دوكيا ساكنة الجبل. أم دوكيا صاحبة البيت؟.. تدخلت فيكتوريا قائلة:

- مهلاً شيخنا، لا تغضب، لا أحد يعرف من هي دوكيا العجوز التي تسأل عنها، ولم يرها أحد.

- أقول لك إن التي أعنيها اسمها دوكيا.

- بارك الله لها في اسمها.

- حلال عليها، ولكن أنتما، ماذا تفعلان هنا، تدخلان المخزن اقتحاماً، ومعكما جوادان أيضاً، لا تباليان بشيء، هل هي الأصول، لا إذن ولا دستور، كان لابد من الاستئذان أو مناداة زوجتي من تحت البيت لتخرج إليكما.

- لا تغضب، سنرحل فوراً، ذلك أننا قادمان من رحلة طويلة.

- لا ليست هذه الأصول يا جماعة، أنت يا ولية قادمة من تاركاو، قاصدة دورنا، مسافة طويلة، والجوادان فوق ذلك في غاية التعب، وكيف لا أغضب، كنت أنتظر منكما بدلاً من اقتحام المخزن أن تدقا على الباب وتناديا زوجتي فتلبي طلبكما ثم تفتح الإسطبل وتسوق إليه جواديكما وتقدم لهما العلف، ثم تحتفي بكما فتطلب منكما إيداع أمتعتكما في البيت والدخول إليه لتستريحا كما تشاءان، فإذا جئت قدمت لكما خبزاً وكوباً من الماء، فلا أحد يستطيع أن يعطي أكثر مما يملك،

إنني لا أقبل إهانتكما لي بأن تكون استضافتي لكما في المخزن لا في البيت، وفوق ذلك فإن كل حافر في جوادكما محتاج إلى حدوة جديدة، وأنا حداد. واشتغل أيضاً بصنع الحدوات وتركيبها، ولكني لا أستطيع تجهيز جوادكما قبل صباح الغد، فاليوم عطلة، إنه يوم الأحد.

كنت في الكنيسة ثم عرجت قليلاً على الحانة، ولكن أين هي الست دوكيا. وصرخ منادياً:

– يا دوكيا.. يا دوكيا..

وأخذ يقرع الباب بقبضتي يديه مراراً:

– هذا هو الغضب وإلا فلا.. ما باليد حيلة.

أدركت فيكتوريا وابنها سبب إثارة النقاش معه أول الأمر.. إن زوجته تسمى هي الأخرى دوكيا.. أقبلت زوجته وسألته:

– لماذا تدق الباب هكذا يا رجل؟

– لكي تفتحي الباب، ألا تفهمين.

– ومتى كان هذا الباب مغلقاً؟ ما على الداخل إلا أن يدفعه فينفتح، أرى أنك عدت ومعك غرباء.

– وهل هذا يضايقك؟

– ولماذا تحسبني أتضايق. أنني أدعوهما عن طيب خاطر للنزول في بيتنا.

– سأضع لجواديكما حدى صباح الغد.

– طيب هذا عن الغد، أما الآن فادخلهما الدار، لا تتركهما بلا مأوى رد الباب وسق الجوادين إلى الإسطبل واحمل أمتعتهما على حين أطبخ أنا لكم العصيدة.

– حاضر.. سأفعل كل هذا، ولكن ليكن في علمك أنني في شدة الغضب.

التفتت إليه فيكتوريا وقالت له بصوت رقيق:

– يا أبتاه. ما أسمك؟

– اسمي بريكوب.

– يا أبتاه بريكوب.. كفي غضباً ودعني أقول لك إن زوجتك كانت بلا ريب جميلة جداً أيام شبابها.

– معك حق، كانت جميلة، ولكنها أرتني النجوم في عز الظهر، لهذا فإني لا أنفك غاضباً، ولا ينقضي غضبي سريعاً، ثم إنني لا أحب معارضة كلامي، هيا إلى البيت، تأكلان وتشربان معنا، ومن غد أجهز لكما الجوادين..

- ترى أي خاطر دعا فيكتوريا، وهي تصف مع ابنها أمتعتهما أمام المدفأة أن تعتزم ملاحقة مضيفهما بمزيد من الأسئلة؟

* * *

كان الشيخ قد خلع معطفه وحمل مضيفيه على التخفف من ملابسهما الثقيلة وأجلسهما على مقعدين واطئين حول المدفأة، وصب لهما نبيذاً في كأسين من زجاج أخضر..

- ألم يسبق لك يا أبتاه بريكوب صنع حدى لجياد قادمة من تاركاو؟

- نعم.. حدث هذا مراراً.

- ألم يقدم عليك في الخريف الماضي رجل أسود يخالطه بياض.

- نعم جاءني جواد كهذا.

- هل تتذكر كيف كان ملبسه؟

- نعم، أتذكر، كان يضع على رأسه قلنسوة من فرو رمادي غامق، ويرتدي معطفاً ثقيلاً من فرو لا يتجاوز ركبتيه، وحذاء عالياً.

- هذا الرجل يا أبتاه زوجي...

- آه.. أهو زوجك؟ لا جدال أنه رجل شهم، لكن الذي لم يعجبني منه أنه أصر على متابعة السفر رغم قدوم الليل، كنت أود أن أقرع كأسي بكأسه كما أفعل معكما الآن، ليست هذه خلتي مع القرويين، لكنني أحتفظ بها للغرباء المارين، فإني أدرك متاعبهم وعناءهم..

أنني أستقبلهم بكأس من النبيذ وبكلمة حلوة طيبة ولكن هذا الرجل قال إنه لا يهاب السفر بالليل، وإنه يحب السير تحت ضوء القمر ويزعم أنه يهزأ بقطاع الطرق، فهو مسلح بغدارة مضمونة، أحسن حشوها كما قال لي.

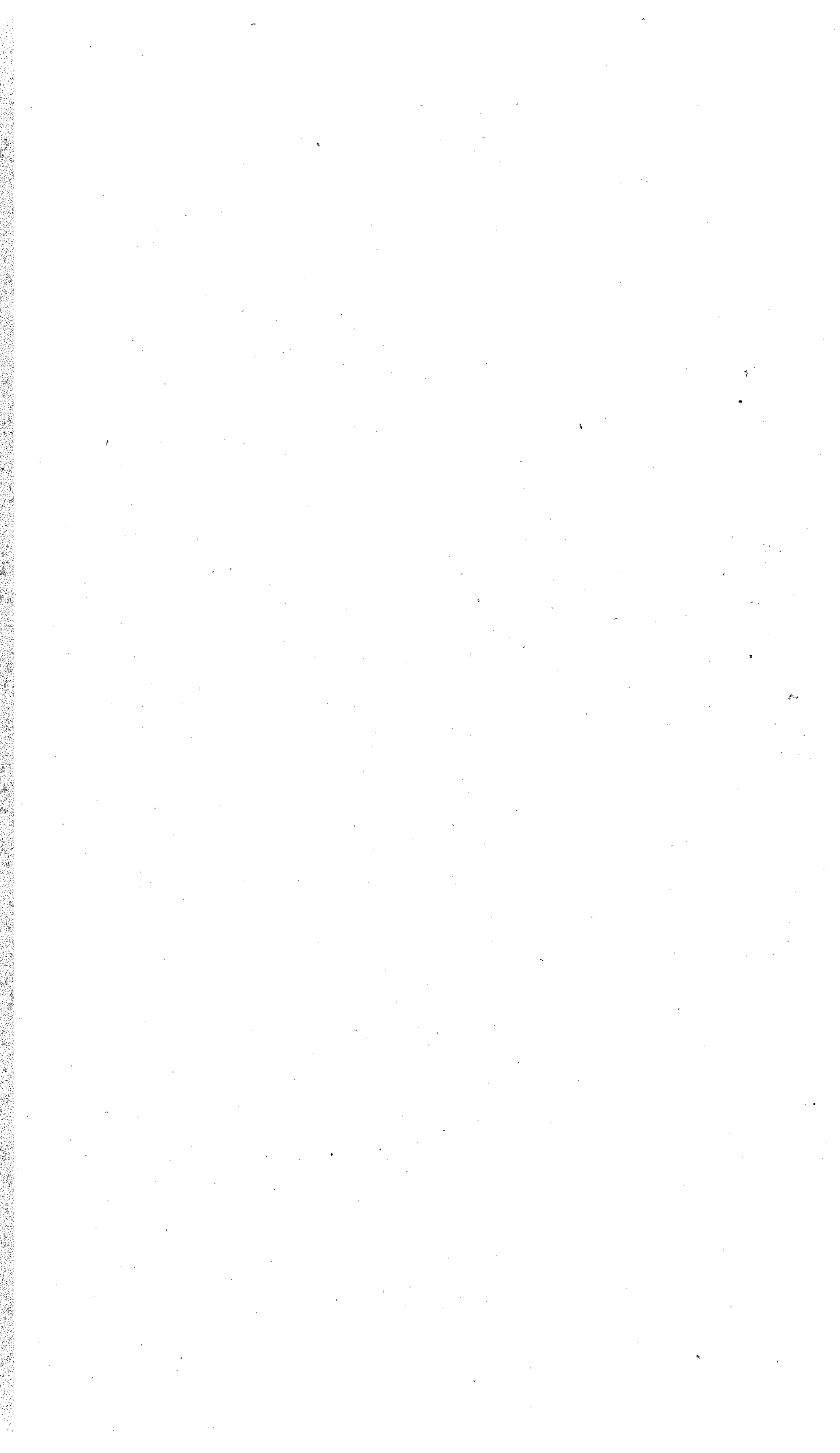
وهكذا لم يشأ المبيت ومضى..

وبعد قليل سمعت خشخشة صدفات كان يضعها في جيبه، فعلمت أن هذه هي وسيلة تسليته وهو مسافر وحده في طريق خال...

تمتمت بنت الجبل:

- هو زوجي بعينه...

وقبل أن ترفع الكأس إلى شفتيها صبت منه بخشوع بضع قطرات على الأرض.. استدعاء وتكريماً لذكرى نيقيفور...



# الفصل العاشر

ما أعجب هؤلاء الناس.

أهل الجبل الذين يعيشون تحت ظلال شجر السرو، لطبعهم حدة وتقلب، شأن سيولهم، شأن طقسهم.

يصمدون للآلام صمودهم لقسوة الشتاء، بقلوب لاهية يتقبلون المرح ويتقبلون هجير الصيف القائظ في ربوعهم، يحبون الحبّ والخمر وعادات لهم قديمة قدم الزمان، لهم ريبة بالغرباء وسكان السهول، يتحصنون في بيوتهم كالضواري في كهوفها، وقلوبهم فوق ذلك وهاجة كالشمس، تفيض بالأناشيد والوداد أغلب الوقت، هكذا كان نيقيفور ليبان الذي انقطع الآن دابره.

ولم يحدث لفيكتوريا أن صادفت في طريقها أحداً من أهل الجبل إلا ولقيها بكرم وحفاوة كما فعل الشيخ بريكوب، وفي رقية بوركا صادفت حفلة تعميد، فأقبل عليها أهل هذه القرية الجبلية يمسكون بلجام الجوادين ويجبرونها على الدخول إلى فناء بيت مزارع، كانت وجوههم قد علتها لحمرة الشراب، فلابد للعابرين من أن يشربا معهم، أن يأكلا معهم، وهكذا لم تجد فيكتوريا مفراً من أن تستجيب لهم، ودخلت عند الأم النفساء ودست تحت وسادتها رمزاً للتعميد، قرطاساً به قطع من السكر، وألصقت بجبين الطفل ورقة نقد من فئة عشرين لي، ثم رفعت كأسها لتشرب في صحة الإشبينين، ولثمت يد القس، وشرحت لكل من يريد الإنصات أنها

في ضائقة مالية شديدة، وأنها منذ أيام طويلة تتبع مديناً لها في دورنا دون أن تفلح في قبض حقها منه، وأنها أنفقت آخر نقودها في سفرها هذا الشتاء، بل أنها لا تدري هل تستطيع الوصول ولو إلى قرية بروشتني، فمن حسن حظها أن لها بها معارف لا يرفضون إقراضها نفقة مواصلة السفر إلى أن تبلغ غايتها.

وأعرب القس عن دهشته كيف يكون في الدنيا أناس بلا خلق أو ضمير إلى هذا الحد، وأضاف وهو يتنهد:

– من المؤلم والمحزن أن أقول هذا، لا مفر من الاعتراف بأننا نجد أيضاً بيننا نحن أهل الجبل أفراداً لهم قلوب كالحجارة أو أشد قسوة، لا يتورعون عن اغتصاب حقوق الناس ونهب مال التجار، وهيهات أن ينضح لهم بئر.

– نعم نجد بيننا من يشتط ضراوة جشعة كالضبع الناهش للقبور.

نعم. هذه نقمة من الله عليهم وإن أخفوا خبث طويتهم بكلام حلو مزوق من لسان معسول، ومنهم من يصيح قاطع طريق، يحمل بلطة ويهوي بها على المسافرين المساكين ويستولي على أموالهم.

واستطرد القس وهو يضحك:

– فأهل الجبل إما أناس مثلنا، عامرة قلوبهم بأناشيد الحب، لهم الجنة ونعيمها، وإما أشرار، غيلان، سيمضون واليد باليد إلى الشيطان فيقذف بهم إلى الجحيم، يسألون عن يمين وعن يسار من أين النجاة ولا مجيب.

هكذا نحن أهل الجبل، إما تمام الطيبة، وإما تمام الشر، ولا وسط.

ومع أن فيكتوريا كانت معجبة في سرها بدهائها حين زعمت لهم أنها مفلسة، فقد أجابت القس:

– واحسرتاه يا أبتاه، إن غرمائي هم من الصنف الذي مآله إلى الجحيم.

وفي قرية الصلبان صادفت حفلة زفاف، الزحافات المزدحمة بالضيوف تمرق بسرعة فوق سطح نهر بسترينا المتجمد، والعروس والفتيات المختارات لشرف ملازمتها يضعن جميعاً على رؤوسهن تيجاناً من الزهور. والنساء المتزوجات يرتدين ملابس مطرزة ويلتحفن بالفراء، والرجال يطلقون الرصاص من مسدساتهم فوق أشجار السرو كأنما لتخويف الشتاء فيولي هارباً بسرعة.

لم يكن الجمع يلحظ فيكتوريا وابنها فوق الطريق المردوم، حتى اندفعت إليهما زحافتان ركابهما من الفتيان المختارين لشرف ملازمة العريس، وقد تطايرت بفعل

الريح فوق آذان الجياد في الزحافتين كسوة من قماش أبيض، وقدم الفتيان إليهما زمزمية ملئى بالنبيذ، وشهروا في وجهيهما مسدساتهم ولا خيار لهما، إما أن يشربا نخب العروس ست الحسن والجمال، ونخب العريس ألطف الأمراء، وإما أن يستعدا للهلاك فوراً.

ومال موكب الحفلة أيضاً إلى الطريق، رفعت فيكتوريا الزمزمية وهتفت بتحية جميلة للعروس، علا البشر وجه فيكتوريا، وانحلت عقدة لسانها ولكن رأت من واجبها أن تبدي لهم سحنة مغبرة لأنها تلاحق في دورنا مديناً يتهرب منها.

وقالت لهم:

– إننا من قرية تاركاو، وزوجي اسمه نيقيفور ليبان، لا شك أنه عبر الطريق هنا مراراً عديدة، ولعه شرب معكم نخب عروسين من أهلكم، لقد صادفت في سفري حفلة تعميد، ومن حسن حظي أني أصادف الآن حفلة زفاف، وكان ينبغي لهذا الترتيب أن ينعكس، فأصادف أولاً حفلة زفاف ثم أصادف بعدها حفلة تعميد ولكن الأمور لا تسير دائماً كما نريد، ولا بأس، مادامت هذه إرادة الله.

وبقي لي شيء أدهشني منكم، فقد مر بنا في قريتنا المنادي العمومي، ونفخ في بوقه وأعلن قانوناً جديداً قد صدر بتعديل التقويم فإذا بنا نعلم أننا استيقظنا وقد شخنا ثلاثة عشر يوماً، فنحن الآن وفقاً للتقويم الجديد في أيام الصوم الكبير، وأنتم تحتفلون اليوم بزفاف كأنكم في أيام الدسم..

نهض إشبين العريس وإشبين العروسة في زحافتيهما وصرخا إليها:

– يا ست يا بنت قرية تاركاو، أنت تجهلين ولا ريب أننا أناس لا نستسلم وأننا نريد أن لا يتقدم بنا العمر بل يتأخر بنا ثلاث عشرة ليلة، نحن نتمسك بالتقويم القديم قدم الزمان، التقويم الذي شرعه الرب لآدم، لا نقبل غيره، ونجبر القس سواء رضي أو لم يرض أن يحترم شريعة الحق، ينبغي له أن يقول ما نقوله، وإذا كان عندنا أناس يريدون الاقتداء بالألمان أو باليهود فهذا شأنهم وليس شأننا، مآلهم في العالم الآخر هو الجحيم.

أجابته بنت الجبل:

– اهدأوا ولا تغضبوا، إن أهل قريتي تاركاو يحترمون أيضاً التقويم القديم، دعوني من هذا وقولوا لي هل رأى واحد منكم رجلاً من قريتنا يلبس قلنسوة رمادية من الفرو ويركب جواداً أسود يخالطه البياض.

لم تجد بينهم رجالاً يشهد بأنه رأى مثل هذا الرجل ولكنها وجدت بين النسوة امرأة قالت أنه يخيل إليها أنها تذكره، ثم عدلت وقالت إنها لم تره.

وتابع ركب الزفاف طريقه على سطح نهر بستريا وقد تعالت الضحكات بمرح صاخب، وسار الجواد بفيكتوريا على مهل، مستغرقة في الفكر ونظرتها داكنة ساهمة، تعمد أحياناً إلى الإفصاح لابنها باقتضاب عن بعض ما يجول في خاطرها، حقاً إنها غير مستاءة من هذا التعطل المتكرر فمن الخير مخالطة الناس، وبالأخص إذا أبدوا حفاوتهم بها؟

فإنها حينئذ تستخدم عينها في الملاحظة وإذنها في الإنصات لكل ما يقال حولها، بل إنها حينئذ تتلقى دروساً ترشدها كيف تتصرف وتأخذ حذرها إذا مرت من بعد بأقوام جدد عليها.

حقاً إن اللقاء بأصدقاء لها يتعارفون كلهم عياناً بياناً أفضل من اللقاء في مكان مجهول بأناس مجهولين لها، لعلهم من الأعداء الأشرار، فعندها إن الاجتماع بالناس حالات، حالة تجد فيها نفسها مضيعة، غفلاً وسط زحمة مختلطة، إنها حينئذ تستطيع استخدام عينها على راحتها في الملاحظة.. فكل مخلوق في الزحمة كأنه منفرد بنفسه، لا رفيق له.

وحالة تجد فيها نفسها بين عدد قليل من الناس، حينئذ ترشقها النظرات كأنما تريد أن تخترقها..

بم يفهم غيورغيتا هذا التصنيف لأنواع الالتقاء بالناس، ولكنه قال في سره:

– ربما يكون هذا هو الحق كما تقول أمي..

– أغلب الاحتمال عندها الآن أن نيقيفور ليبان قد مر بهذا الموقع سالماً وتابع سفره.

وقالت فيكتوريا:

– ربما قدرنا نحن أيضاً على متابعة السفر في أمان حتى نبلغ مراعي المرتفعات وسنرى كيف هي ربوع دورنا، وكيف هو جبل راراو.

وهذا هو ما جرى..

تابعاً السفر، ولم يخطئا العثور على فندق، كلما دعت الحاجة إليه، وبلغا بقرب ربوع دورنا، فرفعت فيكتوريا رأسها وتشممت الهواء كأنها تتشمم عطراً ذكياً، سرها دفء النسيم وهو يهب من الغرب، سينتصر على الثلوج ويذيبها قليلاً

قليلاً، ولكن شعور فيكتوريا بالطبيعة حولها مشلولاً فليس من شاغل إلا هذه النار الخفية في قلبها.

تلتهمها وتصيبها بلهثان.

- وأحست أن الأرض التي تجتازها الآن هي المسرح الذي سيتكشف عليه قدرها الجديد.

وربوع دورنا ما هي إلا جداول هادرة وربى تكسوها أشجار السرو وحقول خضر، تتناثر فيها القرى وبعدد الأسر.. عدد النجوع...

أما رجالها فيالهم من رجال، لهم وسامة وكرم، أعجبت بهم فيكتوريا حين راقبت حفلاتهم الشعبية ورقصهم فيها بحماس واندفاع، كأنها آخر وداع للدنيا قبل أن تقوم القيامة بعد ساعات قليلة..

لم تجد في دورنا هذه لا سوقاً ولا بيعاً أو شراء للنعاج، ولكن الناس قالوا لها إن سوقاً كبيرة أقيمت الخريف الماضي في جهة فاترا.. أحنت فيكتوريا رأسها وسرحت لها نظرة تعبر عن إعياء شديد.. تنهدت وقالت لهم:

- ما العمل يا ترى. أفينبغي أن أبلغ فاترا حتى أعثر على مدينتي؟

ثم قالت لابنها:

- هيا يا غيورغيتا، كل وأنت راكب، فلا وقت عندنا للتعطل، وسنطعم الجوادين بالشعير حينما نصل، إني لم أسترح منذ أمس، لم أنم ولا أحس بجوع أو عطش.

يبدو لي أنني أقترب من اللحظة التي سيصدر فيها الرب حكمه، وينبغي لي أن أسجد له.

* * *

وسارا قاصدين فارنا...

لفحتهما شمس الظهيرة ببهاء لمعتها، وذابت الثلوج عن الطريق درجة بعد درجة، وتحت أكوام الثلوج همس خرير الجداول، ومع ذلك فقد كان يظن من صدى وقع حوافر الجوادين على الثلج المتجمد أنهما يسيران فوق أرض من خشب، وانقشع ضباب الشتاء وتكومت طبقاته في بطون الوادي من بعيد.. وبدا للعين صعود نفثها وبخارها نحو السماء..

صاحبها منذ قليل رجل طويل، سائر على قدميه، مخلع المشية، يحمل صديرياً

من الفر ويرميه على كتفه، يلبس حذاء من جلد رقيق، ويمسك بهراوة قصيرة لا ينفك يرسم بها هنا وهناك خطوط متشابكة فوق الثلج من قبيل التسلية...

كان يسير بخفة وراء الجوادين.. ثم أسرع الخطى حتى صار محاذياً لفيكتوريا فسألها من أين تأتي؟ وسألها بالأخص أين تنوين التريث؟

أجابته:

- أنني قادمة من بعيد يا أخي، ولن أتريث حتى أبلغ فاترا..
- لك فيها مطالب ولا ريب.
- نعم مطلبي رجل مدين لي.
- وأنت.. ألا تسألينني من أين أنا قادم وإلى أين أنا ذاهب؟
- إن كان هذا يسرك فلا مانع أن أسألك.

كان رفيقهما مبسوطاً رائق البال، يكتم ضحكة تحت خصلات شعره، شد من قامته كأنه يشد خيطاً من بكرة حتى بلغ فمه أذن فيكتوريا، وهمس لها بكلام يخفيه عن سمع ابنها غيورغيتا..

ضربت بنت الجبل جوادها من فورها بطرف اللجام وتجاوز بسرعة الرجل السائر على قدميه ثم أدارت وجهها إلى غيورغيتا وهتفت تأمره:

- أخرج البلطة واضربه.

صوتها الحاد المملوء بالحنق قذف الفرع إلى قلب الرجل الغريب وقلب ابنها على السواء، أمسك غيورغيتا البلطة بيده على الفور، قفز الغريب وانحدر إلى درب جانبي متعرج واختفى وراء ربوة.

كان يضحك في سره مندهشاً لما رآه ويقول:

- أي امرأة هذه التي انشقت عنها الأرض؟ كأنها قادمة من عالم آخر، فالنساء هنا على عكسها، لطيفات، قد يكون لهن في بعض الأحوال ردود قاطعة، وإنما بحد اللسان لا بحد البلطة...

- أما فيكتوريا فالعالم الوحيد الذي تنتمي إليه هو عالم الأرض التي تغرز فيها قدميها وتعرف كيف تخطو بهما عليها وعينيها مفنجلة.

تابعت الرجل بنظرة ملؤها الحقد والاشمئزاز، ثم لكزت جوادها فسار بها جنباً... لم يفت فيكتوريا وهي تلتفت إلى الشرق أن تتعرف على صخور العذراء وجبل راراو دون يلفت أحد نظرها إليها أو يسميها لها.

أنا عرفتها من أوصافها التي سمعتها مراراً.. فإلى ربوعها المنعزلة في صقيعها كان الرعاة بلا شك ينزلون مع قطعانهم لمقابلة نيقيفور ليبان..

دخلا قرية فارتا ورأت فيكتوريا تاجراً يصف في العراء بضاعته من جلود مدبوغة ومصنوعات حريرية.

سألته:

- أين شارع السوق؟

فأشار لها بمد يده إلى اليمين، فساقت جوادها إلى تلك الناحية وهي مغبرة النظرة متوترة الأعصاب..

وجدا في شارع السوق فندقا نزلا فيه، أودعا أمتعتهما في حجرة صغيرة، مطلبهما هو الاطمئنان على هذه الأمتعة لا التماس الراحة أو القيلولة، فلم يتريثا بل خرجا على الفور وذهبا بناء على نصيحة صاحب الفندق إلى مكتب حكومي يعمل فيه موظف هرم ضئيل يلبس كاسكته، فهمت فيكتوريا من لهجته أنه ينتمي إلى عرق ألماني.

ورفع الموظف يده إلى الكاسكيت، تحية لها وقال:

- من فضلك، ما هي حاجتك، أنا تحت أمرك..

أجابته بنت الجبل وقد اضطربت نظرتها ووجف قلبها:

- أرجوك يا سيدي أن تتفضل وتبحث لنا في سجلاتك عن بيانات تتعلق ببيع نعاج في الخريف الماضي.

- البحث سهل ولكنه يكلفك كثيراً.

- سندفع الرسم المقرر وقد قال لي التاجر الذي أرشدني إليك أنني لابد أن أقدم لك أيضاً ثمن قدح كبير من البيرة..

- إذا كان قد قال لك ذلك فلا بأس، ولكن ينبغي أن أبحث أولاً عن البيانات، في أي شهر تمت الصفقة؟

- في شهر نوفمبر.

- فعلاً.. هاأنذا أجد أمامي في بيانات شهر نوفمبر أن غيورغ أو أماكي أو فاسيلي أو رساكي قد باعا يوم أحد ثلاثمائة نعجة لنيقيفور ليبان.

هتفت فيكتوريا:

- نعم، هذا هو ما كنت أريد معرفته...

لهثت أنفاسها، واتسع إنسان عينيها.. ومدتها تتأمل الموظف، سألها باهتمام:

- من فضلك، ماذا بك؟

- لا شيء سوى أن نيقيفور ليبان هذا هو زوجي.

- طبعاً، ولماذا كل هذا الانزعاج؟

أزاح ورقة النقد التي كانت قد وضعتها أمامه ليشتري بها البيرة رافضاً تناولها وقال:

- لست مكلفة بدفعها لي، فقد شربت البيرة اليوم على حساب أناس آخرين، وهذا يكفي، الصفقة التي تتحدثين عنها كانت أكبر صفقة تمت في الموسم، فقد جاء زوجك هنا وصافح البائعين وأخرج نقوده من جيبه. وعدها وطلب الإيصال، وجاء رجال يطلبون شراء نعاج ولكن النعاج كانت قد بيعت كلها.. ثم تقدم إلى زوجك اثنان من المزارعين وناشداه في كرب أن يتنازل لهما عن نصيب من الصفقة.. فدعاهما للشرب على حسابه، وقال إنه يرحب بطلبهما متنازلاً لهما عن مائة نعجة، فدفعا له الثمن وفوقه علاوة بسيطة فدل هذا التجرد من الأنانية والطمع أنه رجل شهم.

أعجبت به وتصادقنا.

- من فضلك قولي لي : لماذا تبكين؟

كانت فيكتوريا تحيط رأسها بكفيها، وانهدت على صندوق وهي تنشج بالبكاء:

- من فضلك، اجلسي على هذا الكرسي.

ولكنها رفضت أن تتحول عن الصندوق.

- من فضلك قولي: ما هي الحكاية؟

أفضت إليه بأشجانها وهي تمسح دموعها بكمها من الفرو، وأخذت تتكلم بسرعة:

- بعد هذه الصفقة لم يعد نيقيفور ليبان إلى بيته ولم يبلغنا عنه خبر.

- شيء غير متصور؟

- لا.. بل هو متصور.. وهذا هو سبب تطوحي في السفر إلى هنا لأقف على آثاره.

- هذه مسألة لا أستطيع فهمها.. فلقد حضرت فرز النعاج المائة، ثم سار الجميع مع شلة البائعين، غيورغ.. أداماكي.. فاسيلي، يسوقون الغنم ومعها الحمير والكلاب على السهل لتمضية فصل الشتاء، وحين لم يكن يبدو من غبار القطيع إلا سحابة خفيفة على الأفق، رأيت جماعة زوجك يربطون جيادهم ويمضون.

- جماعة زوجي؟ من هم؟

- طبعاً زوجك ليبان واثنان من أهل الجبل، ذكرتهما لك من قبل، هما اللذان اشتريا النعاج المائة.

- من هما، من أين كانا قادمين؟

- هذا ما أجهله.

الظاهر أنه كان لهما شغل مع زوجك، وأظن أنهما من معارفه، فقد ضمتهم جلسة مرحة، شربوا معه ودعوا الغجر للعزف على القيثارة لهم وتبادلوا العناق، ثم مضوا للالتحاق بقطعانهم، وكنت قد ودعت زوجك وقلت له:

- إلى اللقاء، ستجدني دائماً في خدمتك.

وأنا أيضاً لم أرهم قط بعد ذلك...

سوّى الموظف الهرم شاربه الأشيب بإصبعه ومسح بظهر يده ذقنه الناعمة، ورفع نظراته إلى السقف كأنما يريد أن يشرق ذهنه بفكرة تفض حيرته، وقال وهو يهز رأسه:

- شيء عجيب... تقولين إن زوجك لم يعد لبيته..

هزت فيكتوريا كتفيها دلالة على حنقها وضجرها من تكرار هذا السؤال:

- لعله في المشتى مع قطيعه.

هتفت له بضيق:

- إذن لماذا لم يكتب لي.. لماذا لم يصلني منه خبر؟

أجابها مدافعاً عن نفسه وقد مد أمامها يدين مبسوطتين:

- وما أدراني أنا.. لم يحدث شيء بسبب خطأ مني، وأظن أن زوجك إذا كان لم يصبه سوء لابد عائد إلى بيته بإرادته وحده، بلا حاجة إلى سائق.. رمته بنظرة ساحقة وقالت له:

- لا أفهم ماذا تعني بقولك هذا.

أجابها بلهجة مالت إلى الرقة:

- يعني إذا كان لم يصبه سوء.

فهم غيورغيتا كلام هذا الموظف الهرم وبدا له أن أمه لم تفهمه، ومع ذلك لم يجسر على التدخل ليشرح لها ما فات عليها..

ونظر فجأة من طرف عينيه إلى أمه فإذا به يدرك من رؤيته لها أنها تتصور الآن بجزع كل ما حدث.. بل أنها تعلم ما حدث علم اليقين، وهذا هو سبب مجيئها إلى قرية فاترا.

سألها الموظف الهرم بصوت فيه نغمة احترام وتهيب:

- والآن ماذا ستفعلين؟

أحاطت صدغيها بكفيها وأخذت تترنح بهدوء، وكانت قد أغلقت عينيها ففتحتهما وتلفتت حولها.. ودهش الموظف حين رآها تبتسم.

ترى ما الذي دار بخلدها ؟ أجابته:

- سأذهب الآن لأتتبع قطيع زوجي، فقد قلت إنهم نزلوا نياجرا.

- نعم، من فضلك.

- وهل داوموا السير مع السهل في طريقهم إلى المشتى؟

- نعم، من فضلك، فقد فهمت أنهم ساروا مع وادي نياجرا.

- أمدني الله بعون من عنده كي أتمكن من الاهتداء إليهم.

أجابها الموظف الهرم الضئيل:

- نعم، من فضلك.

وحين خلا لنفسه استغرق في التفكير مندهشاً أن يكون بين الناس مثل هذه المرأة العجيبة.

# الفصل الحادي عشر

وكرت فيكتوريا عائدة إلى الفندق، فإذا بالطقس يسوء فجأة.

زعابيب رياح وصفير هواء، وانقطع الثلج عن الذوبان، وشحب ضوء الشمس فوق ضباب كثيف، سارت فيكتوريا وابنها صامتين.

رياح باردة تدفع في ظهورها وندف من الثلج تتطاير فوق رأسيهما، وزاد صمتهما أنهما يجوسان خلال ديار غريبة عليهما.. كانا قد قدما إليها بالأمس وليس لهما بها ألف إلى الآن.

امتطيا من جديد جواديهما وسارا يطلعان ربى ويهبطان إلى أخاديد كلها مكسوة بالثلج، تدق حوافر الجوادين على الأرض بفضل الحدى التي صنعها لها بريكوب الحداد الهرم.

الطريق خال مهجور، هيهات لواجهات الحانات، وهي تعرض أنواعاً من البقسماط حول زجاجات خمر متعدد الألوان، أن تفض ما يجثم على الجو من مسحة الوحشة والكآبة، ولكن مهلاً، عما قليل ستسطع الشمس مزهوة بانتصارها، وكانت الطبيعة كلها ترقب، عما قليل ستنحدر السيول حاملة أنباء طيبة، هذا هو التفسير عند فيكتوريا لتقلبات الطبيعة.

وحين بلغا آخر قرية في ربوع دورنا وجدا في مداخلها فندقاً، كأنه أقيم لينتظرهما، فترجلا وتركا الجوادين جنباً لجنب على الباب واللجام فوق الظهر والبطن ضامرة خاوية.

نهضت لهما وراء عوارض الاستقبال امرأة يغالبها النعاس وتكتم بكفيها تثاؤبها. طلبت فيكتوريا إبريقاً من النبيذ ثم طلبت أيضاً قدحاً ثالثاً، واشتركت معهما في ثرثرة عن الجو وعن الحصاد، وبغريزة الأنثى لا بحصافة ربة فندق فحسب، رأت المرأة من واجبها رغم نعاسها أن تطرح عليهما الأسئلة المعتادة لتشبع فضولها:

– من أين أنتما قادمان؟

– قادمان من قرية فاترا.

– وإلى أين تذهبان؟

– ذاهبان إلى الوادي في هذه الناحية.

ترددت فيكتوريا قليلاً ثم قالت بلهجة من يستأمنها على سر:

– أبحث عن مدين لي.

– ها، فهمت، طيب.

– الدين باق من صفقة نعاج نزلت إلى المشتى في الخريف الماضي.

أجابتها بلهجة من لا يعنيه الأمر:

– ها... فهمت..

– ألم يمر القطيع من هنا؟

– جائز.

– هي صفقة ثلاثمائة من النعاج، وكان أصحاب القطيع يمتطون جيادهم.. هم ثلاثة.. واحد منهم جواده أسود.

– لا أذكر شيئاً من هذا القبيل.. ربما مروا وقت غيابي عن الفندق، ولو أني كنت في زيارة لابنتي المتزوجة والقاطنة غير بعيد من هنا.

– وأين زوجك، هل يعلم شيئاً عن القطيع؟

– إنه ليس هنا.. فقد ذهب بدوره يزور ابنتنا.

ثم أضافت بلهجة مريرة:

– أخذتما حقكما من الجلوس والكلام نظير مشروب واحد.

وامتطيا جواديهما من جديد، وتعمدت فيكتوريا أن تتكلم بصوت مرتفع حتى تسمعها صاحبة الفندق وهي بداخله.

– يبدو أن هذا الفندق غير مجهول للإقامة به..

برزت رأس صاحبة الفندق من الباب باندفاع وأجابتها بصوت عال:

- ولأي شيء إذن مجهول هذا الفندق؟

أجابتها فيكتوريا بتحد ومن بين أسنانها، نظرة واحدة تكفي لإثارة الرغبة في مغادرته.

أحست صاحبة الفندق أن هذا الرد يخترقها كسهم مسموم فخطت فوق العتبة، وانهال من فمها سيل الشتائم.. لم تتنازل فيكتوريا بإدارة رأسها نحوها، تصنعت أنها لا تسمع الكلام وإن كان حنقها منه يخنق أنفاسها.

هذه هي أول مرة في سفرها يصادفها إنسان أساءها.. ودعت على صاحبة الفندق بأن تموت وتدفن أمام عينيها.

شقاً القرية دون أن يتبادلا كلمة.. وحين بلغا آخر منزل شدت فيكتوريا اللجام وقطعت سيرها..

سألها ابنها في حيرة خفيفة:

- ماذا؟ ألا نكف عن التريث هنا وهناك، وعن الكلام مع هذا وذاك؟

- نعم ينبغي لي أن أفعل ذلك... أليس هو واجبي؟

كانا حينئذ أمام فناء واسع لفندق بقيت عليه آثار مرور عجلات عديدة، صاحب الفندق رجل أشهب الشعر، لوحته الشمس واكتسى وجهه بسمرة شديدة، رشيق القامة، لا يوحي بأنه جلف نكد، وتنبعث من عينيه نظرة حادة، قال لهما:

- أبهذه السرعة عدتما، لم يمض على رؤيتي لكما آخر مرة إلا ليلية واحدة.

- نعم، عدنا يا أخي، ما العمل، لقد تعقدت أشغالي سأسألك سؤالاً وعسى أن يصدق ظني بقوة ذاكرتك فتجيبني عليه.

- وهو كذلك، اسأليني كما تريدين.. هذا هو قدح النبيذ، وهذان هما الكأسان.. اشربي أنت أولاً فأنت التي تطرحين الأسئلة، فإذا رأيت أنني كنت ذا نفع لك شربت بعد ذلك بدوري.

قالت له فيكتوريا بصوت رقيق:

- لا قلب لي للمزاح يا صاحبي يصونك الله من كل شر كما يصون أهلي.

- لا أستطيع أن أكون ذا نفع لك إلا إذا كشفت لي إذن عن همومك.

حدثته فيكتوريا عن قطيع النعاج الثلاثمائة وعن أصحابه الثلاثة فوق جيادهم.

أشرق وجه فيكتوريا قليلاً حين رأته يتذكر بيقين لهؤلاء الرجال مع القطيع

وقال إنه قرابة عيد الملكين جبرائيل وميكائيل مر فعلاً أمام الفندق هذا القطيع الذي وصفته فيكتوريا ثم نزل إلى حقل قريب واتجه الرعاة الأجراء إلى الحانة ثم لحق بهم أصحاب القطيع.

نعم، نعم.

كان واحد منهم يمتطي جواداً أسود يخالطه البياض، ويلبس قلنسوة رمادية من الفرو هو الذي طلب إلي الشرب، حساب للرعاة، ودعاهم إلى الشرب، ثم طلب قنينة له ولزميليه، وكان القس فاسيلي في الحان فدعاه هذا الرجل ليشرب معهم أيضاً، فلم يرفض القس لأنه رأى الدعوة جاءت من أناس طيبين.

وقدم صاحب الحانة للقس كريسا وضعه أمام مائدة الثلاثة، ثم طلب الرجل اللابس القلنسوة الرمادية دوراً آخر من الشراب، وبعد قليل سأل القس أن يصلي له وأن يرش القطيع بالماء المبارك.

رق قلبي لهذا الرجل الطيب الشهم، وأرسل القس يطلب شاله الأحمر الذي يلف به قلادته وكتاب التراتيل وبقية الأشياء التي تستلزمها الطقوس الدينية وبارك القطيع ودعا له بالسلامة إذا بلغ المشتى، وبوفرة النتاج في الربيع.

وكان الرجل اللابس القلنسوة الرمادية هو الذي أخرج نقوداً من حزامه ودفع رسوم هذه الصلاة، فكان سرور القس فاسيلي عظيماً.

وفي ساعة متأخرة من النهار نهض الثلاثة عن المائدة تلبية لإشارة بالرحيل..

– من الذي أعطى هذه الإشارة؟

– هو أيضاً الرجل لابس القلنسوة الرمادية.

فهو الذي يملك ثلثي القطيع وزميلاه لا يملكان إلا الثلث، وقد سمعتهم يتحدثون ويحددون نصيب كل واحد منهم في نفقة المشتى، وكان زميلاه يقولان إنهما يعرفان مرعى خصباً رخيصاً تطيب الإقامة به للقطيع.

كما نسيت أن أخبرك أن الرجل اللابس قلنسوة رمادية قبل أن يمتطي جواده تذكر واجباً آخر يلزمه القيام به.

طلب مني رغيفاً وقدمه لكلبه، فزاد قلبي رقة له، كانوا قد دفعوا عن طيب خاطر ثمن شربهم كاملاً، ثم مضوا.

– هل في حسبانك أن زميليه كانا رجلين طيبين وكانا من أصدقائه.

– نعم هما كما قلت، كان أحدهما نحيفاً وسمرته شديدة مثلي والآخر وهو أقوى الثلاثة كان دائم الضحك والقهقهة، شفته العليا مشرومة، له فم الأرنب.

وكان هذا الرجل أكثرهم شرباً ولكن كلامه كان على الضد من شربه، قليلاً، يقهقه ويشرب، أما لابس القلنسوة فكان حلو الحديث.

- لابس القلنسوة الرمادية.

- نعم... لابس القلنسوة الرمادية كما قلت..

تنهدت فيكتوريا وقالت:

- هذا هو طبع زوجي وكيف لا أعرفه من وصفك له، إنني خرجت من أجل هذا الرجل للسفر.

- أهو إذن زوجك؟

- نعم.. إنه زوجي.

- وأنت تبحثين عنه الآن هنا.

- وما العمل، إذا كان لم يبحث عني فلأبحث أنا عنه.

قال لها صاحب الفندق يمازحها:

- ابحثي عنه بالأخص في مكان طاب له وأخذ فيه راحته..

هزت فيكتوريا رأسها ولم تسمح لشفتيها إلا بطيف لابتسامة خفيفة، هكذا كتمت إجابتها الجارحة التي كانت تهم بنطقها هاتان الشفتان، ثم أدارت رأسها وفكت عن حزامها طرف شالها الذي عقدته وأخرجت منه نقوداً لتدفع ثمن النبيذ.

وبعد أن ركب غيورغيتا جواده استأذن من صاحب الفندق قائلاً له:

- أستودعك الله يا سيد ماكوفي، وأتمنى لك صحة طيبة..

- مع السلامة وبالتوفيق.

قالت فيكتوريا لابنها ببرطمة:

- تتفالح أنت أيضاً يا أخي، من أين عرفت أن اسمه ماكوفي؟

- وكيف لا أعلم اسمه وهو مكتوب على لافتة فوق باب الفندق.

إن اسمه ديمتري وماكوفي..

- طبعاً حلال لكم جميعاً العلم والنصاحة.. أما أنا فلست -وياحسرة- إلا امرأة بلهاء.

لاذ الفتى بالصمت.

حقاً... لقد ضاق ذرعاً باحتفاظ وجه أمه بتجهمه.

* * *

افترس بنت الجبل قلق شديد، ومع ذلك أحست بأنها تتواثب فيها قوة عارمة لاسبيل إلى قهرها.

ها هو ربها قد قبل شفاعة القديسة حنة ومنّ عليها بأول ضوء ينير بصيرتها.. وهداها إلى أول الطريق المؤدي إلى زوجها.

إذنا فلتقسم في قلبها على أن تقدم الشموع والعطايا لدير بستريتا، وكان الريح وهو يدفع في ظهرها يريد أن يسوقها حتى تبلغ بطن الوادي، تدرك أن ابنها قد أنهكه التعب والجوع ولكنها تصنعت عدم الملاحظة.

مطلبها أن تسرع ما أمكنها لتبلغ قرية بروشتيني، وليس إلا حين يبدو على الجوادين عجزهما عن متابعة السير، سترضى إكراماً للحيوان بالتريث قليلاً على الطريق.

كان لنظرتها حينئذ لهيب متصل، على حين انطفأت عينا ابنها، وأخذ الجوادان يمضغان الشعير بلذة، يمد كل منهما خطمه إلى قعر المخلاة المربوطة من وراء أذنيه.

يهز عرفه ويحمحم ويترقب ماء عليلاً يمده بكل ما في الأرض من قوة. بدأ غيورغيتا يعاني من آثار قلة النوم، تقلص وجهه وشحب لونه، فقالت أمه بابتسامة ماكرة:

– شكلك هكذا أجمل.

أجابها:

– سنتهي كل هذا ذات يوم، كل هذا.

أجابته أمه تعارضه:

– آه يا حضرة الكاتب القارئ.. واضح أن كل علمك مرجعه إلى كتب محنطة وأوراق بالكوم، ورق في ورق، كان يحسن بعلمك أن يكون مرجعه أن تأكل صيداً لتملك قوته، لا من أجل أن تكون ضربتك بالبلطة عفية.

– اسمعي يا أماه.

هناك شيء واحد لم أفلح في فهمه، لماذا يلزمنا نحن ركوب الطريق ويقع على عاتقنا نحن متابعة البحث، على حين هناك أناس تدفع لهم مرتبات شهرية لكي يفعلوا ما نفعله نحن.. أليس في بلدنا قوانين ومحاكم وشرطة وخفر.

أجابته باحتقار:

– لا تحدثني عن هذا واتركني لشقائي.

أجابها طائعاً:

- سأفعل كل ما تطلبينه مني، يا أماه، ولكن هل سينتهي بحثنا بالعثور عليه؟

- على من؟

- أبي طبعاً.

- نعم، سنعثر عليه، ثق من ذلك...

وفعلاً أرشدها شاهد بعد شاهد إلى الطريق. أي فندق بعد فندق.

ويبدو أحياناً أن الطريق قد أنبهم عليهم، فإذا به يتضح لها بعد سير، يطول أو يقصر، إنها لا تظفر بشيء إذا كان صاحب الفندق قد سرقه الذهول مع أنها تسأله عن حوادث لم يمض عليها إلا أربعة عشر أسبوعاً.

تستنجد بذاكرته فإذا هي عاجزة عن استعادة ولو إشارة، ولو نظرة ولو كلمة من هوة النسيان، فكأنه حجر لا تعثر عليه القدم بل تعثر به القدم، وقد تمر بمكان فتصادف فيه الذكريات لا تزال حية عند إنسان، ثم تتجاوزه إلى مكان آخر فتجد هذه الذكريات قد انطمست ولا يسعفها أحد بجواب.

إن أسرع الذكريات إلى ذهن محدثها تتعلق بالرجل المشروم الشفة، المقل في الكلام المسرف في القهقهة والشراب حتى السكر، أما ثالث الرجال فصورته عند من تسألهم كأنها ظل شبح سارب. إنه يمثل في الذاكرة مع الآخرين، ولكن لا وجهه ولا جماع أحواله يبقي منها أثر فيها.

* * *

وجدت فيكتوريا في قرية بروشتني ذكريات عن زوجها لا تزال حية، قيل لها إن القطيع مر بها وهو يثير التراب في طريقه إلى ملتقى نهري نياجرا وبسترتيا.

وكان يصحب القطيع رجل أكرش أراد أن يوفر جهده فركب حماراً مثقلاً بالأحمال، وفوق حمار أخر ثلاثة جراء حديثة الولادة تطل رؤوسها من زكيبة لتتعرف إلى هذا العالم الشاسع الذي جاءت إليه على حين أخذت الكلبة أم الجراء تجري بخطى قصيرة تحت أولادها بين قوائم الحمار.

كان الأطفال على جانبي الطريق يصطفون ليروا هذا المشهد الظريف، ثم ظهر إثر القطيع ثلاثة خيالة وقفوا أمام باب الفندق دون أن يترجلوا وأفرغ كل واحد منهم في حلقه قدحاً من النبيذ صبه لهم صبي الفندق من إبريق، وخرج صاحب الفندق إلى

الباب، وهو رجل شيخ من عرق ألماني ودود، مبادر للخدمة، قال لابس القلنسوة الرمادية لزميليه:

– نبيذ طيب تعتق على مهل في قبو رطب، اعلما عني أن هذا الألماني يحتفي بالمسافرين حفاوة الأب بعياله.

هذه الذكريات ظلت باقية في ذهن صاحب الفندق فرددها كما سمعها كلمة كلمة على الأم وابنها.

استغرقت فيكتوريا في لجة الأفكار وتاهت نظرتها، ومع ذلك استمعت إلى رواية صاحب الفندق بسرور كبير.

وحدث أيضاً في قرية بوركا، ذكريات عن الخيالة الثلاثة، وعلمت أن طريق القطيع مال عند هذه القرية إلى اليسار بعيداً عن مجرى نهر بستريتا... وجدت فيكتوريا نفسها من جديد تجتاز ربوعاً تجهلها كل الجهل، لجبالها وقراها أسماء لم تسمعها من قبل.

حطت رحالها في قرية تسمى ساباسا وهناك وجدت ذكريات عن القطيع وعن الخيالة ثم تسلقت طريقاً متعرجاً مغموراً بين الصخور واجتازت مواقع موحشة ليس بها إنسان، تحلق فوقها النسور.

هي صحراء من الثلوج والجليد، تهب عليها الريح بقوة وعنف حتى ليستطيع السائر أن يسند إلى هذا الريح جسده كأنما يسنده إلى جدار.. ومن هذا الموقع المرتفع تكشفت المنظر من ناحية نهر موالدافا.

أراض شائعة تغمرها الشمس، والجبل الذي تلف سطحه دروب متعرجة تطل حافتها الصخرية على مهاو سحيقة. هذا هو جبل ستنتسورا، وكانت فيكتوريا تستقي أسماء المواقع التي تمر بها من صبي استأجرته دليلاً لها، هو ابن صاحب الفندق في قرية ساباس. ووصلت فيكتوريا إلى قمة جبل صليب الطليان، فتركت الجوادين يستريحان قليلاً مستترين من الريح وراء كتلة من الصخور، والتزمت هي الصمت لتنصت إلى زمجرة الريح في الأغوار وإلى حفيف أشجار السرو، لاشك في أن نيقيفور ليبان قد اتجه إلى ناحية الشمس التي تسطع هناك فوق مجرى نهر مولدافا.

هكذا كان قلبها يحدثها.....

ولاشك في أنه تريث أيضاً حيث تريثت هي.. كما لاشك أنه نظر مثلها إلى هناك من بعيد.

* * *

استغرق الهبوط من الجبل وقتاً أقل من صعوده.. وكان النزول على طريق معبد يحاذي جدولاً أخذت ثلوجه في الذوبان، ولم تتوقف فيكتوريا وابنها إلا عند مخرج قرية سوها على الجانب الآخر من الوادي من قرية ساباسا:

– هنا فندق السيد يورغي فاسيلي، ستنزلان به، أما أنا فعائد لأن أبي قد أمرني أن أرجع قبل حلول الظلام.

قالت له فيكتوريا:

– بلغ السيد دورما خالص شكري، قد يقيض الله لي أن أنزل عنده مرة أخرى، وأن يكون بالي أقل انشغالا منذ الآن، هذه النقود لك يا عزيزي نيقولا، فهذا هو المبلغ الذي وعدتك به، وسلم لي أيضاً على أمك وردد عليها ما أقوله لك الآن.

إننا سرنا إلى الأمام مع الطريق ونزلنا إلى سهل وادي مالدوفا قاصدين مدينة فولتشني، فإذا بلغناها فربما لزمنا مواصلة السير حتى قرية بروت في ربوع بوتشاني.

أجابها الصبي نيقولا:

– وأنا أيضاً أشكرك.

ركب فرسه كبيرة الكرش، سرجها قطعة رثة من غطاء صدفي، تتدلى شراشيبه، وكر راجعاً على الطريق الذي قدم منه، كان الصبي يلبس صديرياً من فرو الغنم يتحزم عليه بحبل، ويلبس أيضاً قلنسوة ضخمة من الفرو، ضحك غيورغيتا لمنظر هذا الصبي الضئيل فوق رأسه الضخمة ودخلت فيكتوريا فندق السيد يورغوفاسيلي، قرر رأيها أن تنزل وتستريح به هي وابنها وفق هواهما، ولعرفا نعمة الشبع بعد الجوع.

حكما على السيد يورغوفاسيلي من مظهره أنه رجل جاد، فهو يلبس نظارة ويكتب في سجل، ولما رأت فيكتوريا صلعته حكمت أيضاً بأنه رجل ذكي.

إنه بيدين صغيرتين مطخطختين يلف خصره بفوطة زرقاء، فهو إذن رجل لا يجيد الكتابة في السجل فحسب، بل يحرص أيضاً أن يكون له مظهر مهندم نظيف، رفوف حانة الفندق من الخشب الأبيض تعلوها زجاجات متلاصقة بترتيب حسن، وإلى جانب الرفوف صفوف من الأدراج تكدست فيها أنواع متخيرة من طعام محفوظ.

أخرج من برميل، إكراماً لفيكتوريا، سمكة مدخنة من صنف السالمون، تناولها برشاقة بين إصبعين ووضعها باعتناء على ورقة بيضاء فرشها على منضدة أحكم تنظيفها وتلميعها.

ثم ملأ من برميل خشبي كأسين كبيرين من البيرة فعلت لهما رغوة..
قالت فيكتوريا في سرها:

- ما أطيب شرب البيرة لمن حل به التعب وأحس بالجوع والعطش، أما غيورغيتا فلم يعتد شرب البيرة ورفع كأسه إلى فمه ثم أنزلها ودفعها، ظن أن البيرة فاسدة بسبب مذاقها المر..

* * *

يتنقل السيد يورغوفاسيلي بهدوء. لا يسمع لوقع أقدامه صوت.. فهو يلبس خفا له نعل من اللباد، ويجيب بحسن أدب على كل سؤال. خلت الحانة من الرواد، ليس بها سوى فيكتوريا وابنها غيورغيتا.. يلمع زجاج النوافذ بضوء الشمس المائلة، فقد كانت الساعة الواحدة بعد الظهر، في ظن فيكتوريا أن الرياح قد هدأت، فلما تحولت من الظن إلى التأكد تملكها القلق، انقضى العذر ولابد لها من متابعة السعي وراء زوجها.

وبفضل حصافتها وسابق تجربتها قادت الحديث هذه المرة أيضاً مع يورغو حتى دار بعد قليل عن المسألة التي تهمها.

فلما فهم غرضها قال إنه لابد أن يبدأ من البداية، فهو رجل يحب الترتيب والنظام، واستوثق أولاً من تحديد السنة والشهر ثم فتح سجله وقارن بعناية بين بياناته وأقوال فيكتوريا، ثم لجأ إلى ذاكرته يستنطقها بصبر وعلى تمهل فوجدها تشهد أيضاً بما تريدفيكتوريا أن يؤكده لها.

إن قطعياً من النعاج مر من أمام الفندق في سنة كذا كذا في شهر كذا كذا، قال غيورغيتا في سره.

- إذنا فنحن في الطرق الصحيح ولابد أن نمضي معه إلى الأمام، لكن فيكتوريا لم تقنع بما سمعته، إنها تريد أن تقف على كل ما لدي صاحب الفندق من معلومات عن أصحاب القطيع، لا شك في أن القطيع قد مر أمام الفندق مع الرعاة الأجراء والأواني والكلاب والحمير ثم ظهر في أثره أصحابه.

أجابها صاحب الفندق بعد أن امتحن ذاكرته طويلاً، أن هذا الذي تقوله هو الذي حدث فعلاً فقد تريث القطيع والرعاة الأجراء بالقرب من الفندق وانتظروا أن يلحق بهم أصحابه.

سألته فيكتوريا:

- جاؤوا راكبين جيادهم، أليس كذلك؟.

- هذا ما حدث فعلاً، لماذا تقولين أصحاب القطيع لم أر إلا رجلين نزلا عندي وقدمت لهما طعاماً كالذي قدمته لك، سمكة مدخنة من السالمون وخبزاً وبيرة كل شيء عندي من أجود صنف، هذا ما أحرص عليه منذ جاء العمال الطليان لتعبيد الطريق وإقامة كوبري بعدنا بقليل.

قالت فيكتوريا:

- كيف تقول إنهما اثنان، وأصحاب القطيع ثلاثة.

- لا.

- لم أر إلا رجلين اثنين.

أغمضت فيكتوريا عينيها على لجة من الظلام غمرت قلبها وذهنها فجأة. وأعاد السيد يورغو تأكيده أنه لم ير إلا رجلين، في تقدرها أن لجة الظلام التي غمرت قلبها وذهنها لابد أن تنجلي عنهما.

لزمت الصمت وهي مستغرقة في التفكير تنتظر ما ستأتي به الأيام من جديد لها.

إنها الآن على يقين بأن الرياح قد هدأت وصمتت أيضاً مثلها، بعد أن تحولت وهبطت إلى الوادي، هذه علامة واضحة لفيكتوريا.

ينبغي لها أن لا تتابع الطريق با أن تكر راجعة إلى الوراء.

ليس هناك أقل احتمال بأن نيقفور ليبان كان أحد الرجلين، فطريقه قد انقطع قبل هذا الفندق، هنا لا أثر لوجوده حياً.

سألت صاحبه من جديد بهدوء في يقظة شديدة:

- رأيت رجلين فحسب، أحدهما طويل مشروم الشفة وله فم الأرنب، والثاني قصير أسمر، أليس كذلك؟

- نعم

بالضبط.. لم أر إلا هذين الرجلين، ويخيل إليّ أنني أعرفهما، فهما يسكنان في أحد الوديان قريباً من هنا، أما صاحب الشفة المشرومة فيسمى بحق بيورا- بيورا في الرومانية اسم الأرنب- كلا، أخطأت، هذا هو اسم الرجل الآخر، وقد رأيتهما وهما يغادران الحانة ليلحقا بالقطيع.

- وهل عندك خبر بأنهما عادا بعد ذلك؟

- طبعاً، فإنهما بعد أنزلا القطيع بالمشتى لم يبق أمامهما ما يفعلانه هناك، فلاشك أنهما قد عادا.. انتظري..تذكرت اسم الرجل الطويل هو كاليسترات بوغزا.

- أي الرجلين هو؟

- الرجل المشروم الشفة وقد قلت لك إنني لم أر إلا الرجلين، وها أنذا أتذكر فجأة اسميهما بوضوح، لماذا تقولين أن أصحاب القطيع كانوا ثلاثة؟

أجابته بصوت حائر وقد أغمضت جفنيها نصف إغماضه:

- هذا ما سارع به لساني فقد كنت أظن أنهم ثلاثة، أنا متأكدة الآن أن الحقيقة هي كما تقول..

ها قد بدأ بصيص من النور يترا ءى لها في لجة الظلام، كانوا ثلاثة حينما بلغوا قرية سوباسا وفي قرية سوها اختفى كل ذكر لنيقيفور ليبان... هل طار بين القريتين في الهوا ء، هل وقع في هوة ابتلعته، ستجد على كل حال بين القريتين مفتاح السر، ولن يشق عليها ذلك، فباستطاعتها أن تعثر على الرجلين في مسكنهما سواء في الوادي الواقع على اليمين أو الواقع على اليسار، من هذين الرجلين سيكون استفسارها هل طار نيقيفور إلى الشمس أم غرق بين الأمواج، لا شك في أن الله أراد أن يبقي له أثر.

من واجبها الآن أن تكر راجعة على الطريق الذي قدمت منه.. وأن تجد هذا الأثر، فهذه هي إرادة القديسة حنة، التي سبق لها أن عبرت عنها بأن أسكنت الرياح ولمتها تحت سقف محرابها.

# الفصل الثاني عشر

لم يكن هدوء الريح هو العلامة الوحيدة التي تكشف عنها رعاية القديسة حنة لفيكتوريا وقيادتها لخطواتها، فقد تبعتها علامات أخرى.

الباب الخشبي الخلفي للحانة له في مستوى الرأس طاقة صغيرة مستديرة من الزجاج، بدت وراءها مرة بعد مرة عين لها نظرة حادة، ثم تتخلى عنها للعين الأخرى، وانفتح الباب فظهرت في العتمة هاتان العينان ووجه ممتلئ وجسد عظيم البطن والوركين فتنحى صاحب الفندق ما أمكنه ليفسح المرور لزوجته فهي تلبس بلوزة منتفخة متراكمة الثنيات.

وبدا لفيكتوريا أن أكبر قدر من الاحترام واجب لمن له مثل هذه الفخامة وهذه البشرة ناصعة البياض، كانت الداخلة تلبس جورباً أحمر وخفاً له نعل من جلد رقيق له على الأرض وقع كالتصفيق الخفيف، جلست على كرسي وقالت لزوجها:

– أنت تذكرت بصدق كل شيء ولكن لا أدري لماذا فاتك تذكر اسم أحد الرجلين، ألم تكتبه في سجلك؟

– لم أسجل إلا اسم بوغزا، وأنا أعلم أن الآخر يسمى بيورا.. أي فم الأرنب.

– مستحيل، بيورا هو اسم الشهرة المعروف به بوغزا، لأن أسنانه تشاهد من شرم الشفة، أما الآخر فيسمى إيليا، وكل الناس تعرفه، كما تعرف بوغزا، وكيف لاتعرفهما وهما يسكنان نجع شجرتي التفاح في الوادي، أجابها زوجها وهو مندهش، مبتسماً للضيفين:

- صدقت والله.

أجابتها فيكتوريا بصوت ينم عن تواضع شديد عجب له ابنها غيورغيتا

- أنا مدينة لك بفضل كبير، يا سيدتي ولا أعرف كيف أشكرك على هذه المعلومات.

ثبتت المرأة الضخمة في جلستها على الكرسي ونطقت بالخيلاء ذقنها المتدلية طية بعد طية، وقالت:

- يا صاحبتي، أنت تسعين وراء أحد هذين الرجلين لأنه مدين لك في جيبه نقود مستحقة لك، وهذا لا يدهشني، فقد بدت عليهما أخيراً مظاهر النعمة وانتفخت أوداجهما كالضفدعة المقاوحة، إنْ لي صلة قرابة بزوجة بيورا، وقد لاحظت أخيراً أنها أصبحت تتعالى ولا تتكرم بزيارتنا، فقلت لها ماذا جري يا إيليانا، هل نسيت سحنة أصدقاءك؟

أجابتني:

- لست كما تقولين، ما عاقني إلا أنني لا أملك وقتي، فأنا مشغولة جداً هذه الأيام يا عيني.

أكاد أتميز من الغيظ حين أسمع منها هذا الكلام، يا خسارة حضرتها لا تملك وقتها، على حين أنها رائحة غادية في زيارات تارة لزوجة العمدة وتارة لزوجة القس، هل الدين المستحق لك باق من صفقة نعاج في الخريف الماضي؟.

لزمت فيكتوريا الصمت وهي تثبت نظرتها عليها، ثم تكلمت بصوت خافت لا تخفي به إلا محدثها.

- من المحتمل أن يكون قد بقي في ذمة أحدهما شيء من الثمن، ولكن كم وعن أي صفقة، لست أدري..

- كيف، ألم يبع لهما زوجك نعاجه؟

- هذا الذي مازلت أجهله فلم تكن لي وسيلة لأعرف الحقيقة.

- كيف.. ألم يقل لك زوجك.

- ألم تسنح له فرصة، فالغائب أخرس، إنني يا سيدتي منذ هذا الخريف، عرفت الترمل قبل الأوان.

- هل هجرك.

- لا أعرف.. العلم عند الله.

أجابتها المرأة الضخمة بصوت خافت كأن الحانة ليس بها أحد غيرهما:

- قولي لي : ما أسمك؟

ذكرت لها اسمها وعلمت منها اسمها هي أيضاً...

استطردت تقول بصوت ناعم، تريد به ألا تنقطع عن مسامرتها لمحدثتها...

- يا عزيزتي فيكتوريا.. لابد أن أروي لك ما سمعته من زوجة الثاني.. زوجة إيليا كوتوي، أسمها غبافينا وهي متعالية أيضاً ومتعاجبة بنفسها لأن زوجها يريد أن يراها دائماً في أحسن ثياب، فهي تظن أن جمالها لا يفوقه جمال، جميلة في عين زوجها فليكن، لكنها عندي محرومة من الجمال، كل همها بذل غاية جهدها في التصنع والتلطف لزوجها لتجره من أذنيه فينقاد وراءها وهو غافل، حتى يقال إنها عملت له سحراً، هي وزوجة يورغا من طينة واحدة، تأدب مفتعل وكلام معسول ولكنهما قادرتان على تقليع العين.

- وما السبب يا ست ماريا.

- السبب أنهما عرفتا الترف، فقد هبط عليهما كنز من السماء.. وفي الربع ستلد نعاجهن مائة حمل على الأقل، وبوغزا دائماً مخمور، يعود إلى بيته من الحانة وقلنسوته من الفرو مائلة على أذنه فيدفع زوجته إلى ركن ويضربها.

- من يا ست ماريا؟

- ألم تفهمي؟ أليانا زوجته.

- ولماذا؟

- لا شيء إلا ليثبت لها رجولته وقوته، ولكنها تهزأ بالضرب، هو عندها نوع من التسلية.

- والآن؟

- من؟

- كوتوي، إنه يشرب كذلك، ولكن أقل من زميله، غير أنه يسجد أيضاً على أربع أمام زوجته غافيتا، اسمعي، سأروي لك ما قاله لها كوتوي عن النعاج، رغم أنه اشتراها هو وبوغزا من مالك لقطعان من أهل الجبل قدم من بعيد، وأنهما دفعا الثمن بالكامل نقداً، وأن المالك باع لهما كل قطيعه.

- طيب وابن الجبل هذا، ماذا فعل بعد ذلك، أتراه عاد إلى بيته في تاركا.؟ لا هل مرض في طريق عودته.. لو حدث هذا لعلمنا به، هل نثر نقوده تحت أقدام

غانية خضراء العينين في هذه الناحية، إذن لبلغك الخبر والعلم، أيضاً أناس غيرك، وأنت تقولين إنك لم تسمعي مثل هذا الخبر، فلابد إذن من أن يكون مرجع السؤال إليهما ليقولا لي ما يعلمانه ويتفضلا بإرشادي أين أجده، فلعله أستأمنهما على سر نكوصه عن العودة لبيته.

- لابد من حضورهما للإجابة على هذه الأسئلة وسنرى ماذا يقولان سنرى حينئذ بعض الأنوف الشامخة تندس في التراب.

جرى الحديث بينهما بانفعال، أغلق السيد بروغو سجله ونقل نظرته من واحدة إلى الأخرى وقال لهما:

- ما هذا الكلام. ماذا جرى لعقلكما، كيف تتولد عنكما شبهة بجريرة، علمي بها علمكما، بل اتهام بجريمة لا تتورعان عن توجيهها إلى رجلين من المزارعين الطيبين، يشهد لهما الناس جميعاً بالأمانة والاستقامة، لكل منهما ثروة ولكنه كسبها حلالاً، فكيف يخرج من يدهما قتل إنسان وسرقة ماله.

هذا فعل قطاع طرق مجرمين لا فعل مزارعين طيبين من بلدنا.

أجابته زوجته وهي ترسم علامة الصليب على رأسها وكتفيها:

- يا قوة الله، كيف تقول هذا الكلام من الذي تحدث عن قتل وسرقة؟

أعوذ بالله، لم يدر ببالي مثل هذا الظن، ولا دار أيضاً ببال هذه المرأة المسكينة، ولكن ينبغي لهذين الرجلين أن يحضرا هنا لتبييض وجهيهما أمام هذه الأرملة التي تجوب الأرض على غير هدى، ينبغي أن يشرحا كيف وضعا يديهما على القطيع، وأن يقدما الدليل على أنهما دفعا ثمنه، وأن يرشداها إلى المكان الذي قصده نيقيفور ليبان، أليس هذا مطلباً عادلاً.

- نعم، مطلب عادل، فلتسألهما هذا هو حقها..

- إذن اتفقنا وهناك مبرر لسؤالهما، وعندي لها نصيحة صغيرة، أقول لها أحذري يا عزيزتي فيكتوريا من الذهاب وحدك، بمفردك، أو لارفيق لك إلا ابنك إلى مكان موحش منعزل عن العمران كنجع شجرتي التفاح، ربما لن تجديهما في بيتهما أما إذا كانا بهما فلربما لحقك أذى لأنك ذاهبة مطالبة بدين وها هو زوجي يقول بأنهما قتلا صاحب القطيع، فلماذا لا يقتلانك أنت أيضاً.

ذهل صاحب الفندق وقال وهو يضرب كفاً بكف:

- أنا.. هل قلت هذا الكلام.. يا عالم؟

- نعم، هذا ما قلته، وحتى إذا لم تكن قلته فالرأي عندي أن نبعث إليهما بصبي الفندق ليدعوهما إلى بيت العمدة بدعوى أنهما مطلوبان لمسألة تهمهما، وينبغي أن يضيف أن المسألة في صالحهما وقد أذهب أنا بنفسي إلى بيت العمدة أيضاً، فأنت لك هنا أشغال كثيرة، ولن يستغرب مني اصطحاب هذه المرأة المسكينة.. حتى لا تحس بضياعها ووحدتها، وكذلك أنفعها بإرشادها إلى بيت العمدة وأن أجد لها إذا لزم الحال محامياً وأدلها على الشهود، ألا تراها قادمة من بعيد، من تاركاد، فكيف تواجه وحدها رجلين غريبين مثل بوغزا وكوتوي وكلاهما بجح جشع، قال لها زوجها:

- لماذا تصفينها بالجشع والبجاحة؟

- هذا حكمي.. هل تنكر الآن أنهما جشعان بجحان. نعم أنهما جشعان بجحان.

- فليكن ولكن حذار من الإفصاح عن اتهامكما لهما، فهذا الاتهام يكون من إنسان عاقل ليس إلا قمة الحماقة.

- حماقة؟ وكيف لا تصدق هذه المرأة المسكنة التي تؤكد لنا أن زوجها لم يعد لبيته؟

- عاد أو لم يعد، هذه مسألة أخرى.

- هل تعتقد ذلك حقاً؟ ليس هناك إلا مسألة واحدة، أين هو، هيا ضع الأغلال في يد هذه المرأة المسكينة وخذها إلى مستشفى المجاذيب فهي حسب قولك.. صرخ زوجها متفجعاً:

- وهل قلت أيضاً مثل هذا الكلام يا عالم؟

- نعم قلته.

وينبغي الآن أن نبعث غيتشور يستدعيهما إلى بيت العمدة، وستتولى هذه المرأة استجوابهما بأدب، وينبغي أن يجيبا عليها بأدب.

وغيتشور صبي نحيل طويل الرقبة، يملأ النمش وجهه، وهذا هو مدلول اسمه.

- سارع بارتداء معطفك واسلك درباً مختصراً ليعتلي التل، وفي أثناء ذلك دعت زوجة السيد يورغو فاسيلي ضيفتها فيكتوريا إلى حجرتها الخاصة وراء الباب ذي الطاقة الصغيرة الزجاجية، لتأخذ راحتها وتطلق لسانها وتخوض في سيرة كل امرأة متقمعة أو متكبرة، أو مزهوة بجمالها، ورمت شبكتها على امتداد المنطقة

كلها بقدر ما أسعفها بصرها ومكر فرأستها وحصيلة معلوماتها، ما أكثرهن، ولكل واحدة عيبها، ولكن أسوأهن جميعاً في نظرها هي زوجة بوغزا كالسترات، فهي محظوظة بجمالها وتدع زوجها مشروم الشفة يضربها مرة بعد أخرى، إنها تستحق الضرب ولكن لا أثر له عليها.. بل قد تفوقها في إتقان هذا الفن، وما من امرأة نفوق زوجة معلم المدرسة في معرفتها بأنواع السحر ووسائله وقدرتها عليه.

وقد عمدت ذات شتاء أن تحتجز لديها امرأة مجربة لمدة ثلاثة أسابيع لا لشيء إلا من أجل أن تتعلم منها ضروباً جديدة من السحر.

تركت فيكتوريا هذا السيل من الكلام ينصب فوق رأسها واستمعت لها بتوقير وتصديق، وإن كانت لم تمنحها إلا أذناً ساهية، فقد كان فكرها يطير مشتتاً يحاول أن يشق المعميات وينفذ إلى سر الأشياء كأنه مثقاب.

وكانت الشمس قد انحدرت حين رجع غيتشور، فأقبلت عليه صاحبة الفندق تسأله بلهفة أن يقول هل وجدهما في منزليهما أم لا؟

– نعم، وجدتهما في منزليهما.

– وماذا كان جوابهما حين علما أنهما مطلوبان لبيت العمدة؟

– لم يجيبا بشيء، ولم يزد كوتوي عن قوله طيب، أما بوغزا فقد ضحك ساخراً.

– ألم يطلب مزيداً من الإيضاح عن سبب دعوتهما، ألم يسألاك عن شيء آخر؟

– نعم.

– وماذا قلت لهما؟

– لم أقل لهما شيئاً.... فقد حاذرت كطلبكما أن أتكلم.

– وزوجة بوغزا، ماذا كانت تفعل؟

– لا أدري، فلم أنظر من النافذة.

– وزوجة كوتوي؟

– لم أرها أيضاً.

– ألم أقل لك يا فيكتوريا أنهما يقضيان الوقت في الزيارات...

قال الصبي:

– كلا... فإن زوجة كوتوي كانت في البيت، وقد سمعتها تغني ولكني لم

ألمحها، والأخرى كانت في بيتها، وقد سمعت نكشها في المخزن العلوي، وقد سألني بوغزا من هم المسافرون الذين نزلوا بالفندق.

- وهل قلت له؟

- كلا لم أقل شيئاً...

ولكنهما أدركتا أن الصبي قد باح بما استؤمن عليه، فأبدت له سيدته غضبها موجهة إليه نظرة حانقة ولوت له فمها باشمئزاز.

- هل قالا متى سيحضران إلى بيت العمدة؟

- لقد نزلا في صحبتي.

أحست فيكتوريا أن قلبها يثب في صدرها ومضت صاحبة الفندق تتكلم وتشير بحدة وسرعة وهي تلبس سترتها من الفرو..

تركتا غيورغيتا في الفندق بناء على نصيحة حكيمة من صاحبة الفندق ومضت الاثنتان وحدهما إلى بيت العمدة وهناك وجدتا العمدة وموثق العقود يثرثران مع رجلين..

* * *

رمت بنت الجبل من النافذة نظرة خاطفة كالبرق ثم دخلت وقد نطقت ملامحها بالوداعة والتواضع، تتبع صاحبة الفندق الآخذة لها تحت جناحها. سكتت الأصوات الغليظة القوية وارتفع دخان السجائر إلى السقف، من نظرة واحدة تعرفت فيكتوريا على بوغزا كما تعرفت أيضاً على كوتوي القصير الأسمر، والعمدة وموثق العقود لهما تنم عن شبع وريث، ويرتديان ملابس أهل المدن.

وكان بوغزا أول من تكلم، قال بصوت سوقي متهكم:

- أنت ولا ريب زوجة ليبان.

هزت رأيها تقول نعم.

ثبتت عليه نظرتها وإن كانت قد بدت كأنما تدبرها إلى ناحية أخرى.

وصمتت...

انتظرت ماذا يحدث من جديد.

- هل جئت تطالبين بدين، أما أنا فقد دفعت له حقه عندي، أما عن زميلي كوتري فلعله لا يزال مديناً له بمبلغ من المال.

أجابه كوتري بلهجة حادة:

- ليس في ذمتي دين مستحق له.

ضحك بوغزا ساخراً من جديد.

- إذن لعلك جئت لتري كيف نعيش هنا في سوها. وها نحن كما ترين نعيش في أحسن حال والحمد الله..

تنهدت فيكتوريا وقالت:

- طبعاً.. معك حق، أنتم أناس تعيشون في راحة بال بلا هموم، والدور والمتمة علي أنا.. أنا التي دفعني ضغط الهموم على هجرة الدار والاغتراب..

- أحقاً هذا هو حالك. إذن ما سبب همومك اذكريها لنا من فضلك وسنرى هل نستطيع خدمتك ألأجل هذا طلبت يا ست حضورنا إلى بيت العمدة؟

* * *

خلع بوغزا على وجهه مظاهر الدهشة ورمى بنظرة ماكرة متصيدة إلى العمدة والموثق وقد بدت عليهما أيضاً مظاهر الدهشة.

صمتت فيكتوريا وأحنت رأسها فتدخلت زوجة صاحبة الفندق وقالت:

- ألا تعلمون يا سادة أن زوج هذه المرأة لم يعد حتى الآن إلى بيته؟

قذف إليها بوغزا بنظرة متعجبة، وطرفت عينه اليسرى وابتسم من ركن فمه..

- وإذا كان زوجها لم يعد لها حتى الآن فماذا نستطيع أن نفعله نحن؟

أجابت فيكتوريا برفق دون أن ترفع رأسها:

- وماذا تستطيعان فعله لي؟ ما أنا إلا امرأة مسكينة جئت أبحث عن أصدقاء أسألهم أي حديث جرى بينهم وبين نيقيفور زوجي حينما افترقوا عنه، وأن يذكروا لي الجهة التي رأوه سائر إليها فلربما قال لهم شيئاً يرشدني أن أبحث عنه..

غرز بوغزا كفيه في حزامه العريض ونظر إليها بإشفاق ثم هز كتفيه، وقال:

- ماذا أستطيع قوله لك؟

- لقد اتفقنا على الصفقة ونحن في الطريق عائدين من دورنا، عددت له النقود ودفع كوتري الحاضر أمامك حصة من الثمن، كما دفعت أنا حصتي.. ثم افترقنا.. حيث كان بادياً على نيقيفور ليبان أنه مستعجل، قالت له فيكتوريا وهي تتنهد:

- هل لك أن تقول لي في أي موقع كان الافتراق. في أي موقع؟

- ذكرت لك أننا افترقنا على الطريق.

- في أي موقع منه بالتحديد؟
ضحك بوغزا بسخرية:
- للنساء فضول لا ينقصني، وكيف تطلبين أن أعرف الموقع على وجه التحديد.. إن صحت ذاكرتي فقد افترقنا عند صليب الطليان.
- وإلى أي جهة سار زوجي بعد أن قبض النقود؟
- أي وجهة تريدين؟
إنه لوى عنان فرسه وكر راجعاً أدراجه ليعود إلى بيته.
قالت فيكتوريا:
- لا تغضب مني يا سيد بوغزا.. خبرني من فضلك.. هل حدث مرة أن نطق بكلمة تدل على أنه لا يعتزم العودة لبيته؟
- لست غاضباً يا ست ولو أن كل هذه الأسئلة الملتوية التي وجهتها إلي غير مقصود بها أنها تطيب لي، إذا كانت عندك شبهة فأفصحي عنها بصراحة دون تحويمها حولي كالنحلة قبل أن تشك إبرتها...
رسمت فيكتوريا على رأسها وكتفيها علامة الصليب وأجابته بلهجة محتجة:
- إلى هذا الكلام وما أنا إلا امرأة مسكينة... صانني الله منْ أن يدور في خلدي خاطر سوء أو شبهة، لا أطلب سوى أن أعرف هل لمّح لكما زوجي بشيء فهمتم منه ماذا كان في عزمه.
أجابها بوغزا وهو يهدهد بقية غضبه:
- لم يلمح لنا بشيء إطلاقاً، فدفعنا له الثمن ومضى لحال سبيله.
- كنتم حينئذ عند صليب الطليان؟
- نعم كما ذكرت لك.
- وهل كان القطيع يسبقكم؟
- نعم كالعادة دائماً.
- هذا يعني أن لا أحد من أجراء الرعاة أو الحراس قد رآه بعد ذلك.. فلو كان قد صادف واحد منهم لأخبره بما يعتزمه.

* * *

عادت فيكتوريا إلى الصمت محتفظة بوقفتها وانحناء رأسها على حين يظن بها أنها تريد أن تخرق الأرض بطرف عصاها البيضاء التي حملتها معها عند خروجها من دارها...

وتدخلت زوجة صاحب الفندق بلهجة فاترة تدل على التطوع بلا اكتراث، بعد أن تأملت الصور المعلقة على الجدران وغمزت بعينها للحاضرين تفهمهم أنها مترفعة كل الترفع عن مشاركة هذه المرأة لوثتها وحماقتها.

- من قال لا أدري فقد أصبح في نجاة من ملاحقتها بسؤال آخر.

ابتسم بوغزا وهو يلف سيجارته بين أصابعه.

- كلام صحيح.

واستطردت زوجة صاحب الفندق تقول لفيكتوريا:

- لو كان السؤال لامرأة لعلمت منها المزيد، أما الرجال فكلامهم قليل، قد تجدين أناساً آخرين من قابلهم زوجك في الطريق يستطيعون إمدادك بأخباره، مثلاً أصحاب الفنادق التي نزل بها ولعلك تجدين أيضاً شهوداً كانوا حاضرين الصفقة عند عقدها أو عند دفع الثمن...

رفعت فيكتوريا رأسها على مهل.. وأشعل بوغزا سيجارته وجذب نفساً ثم أطلق الدخان من منخريه وقال:

- كفى.كفى، قلت لك ما تريدين سماعه.. وقلت كل شيء تذكرته. ولعل عند كوتوي علماً بتفاصيل أخرى.

- لا علم لي شيء أكثر مما قلته أنت.

تدخلت صاحبو الفندق من جديد موجهة الكلام إلى فيكتوريا.

- إذا كان من بين شهود الصفقة راع بقي هناك فإنك تستطيعين أن تكتبي له وتسأليه، وإذا كان هناك رجل من الغرباء، فإنك تستطيعين سؤاله عن مزيد من التفاصيل.

المهم أن نعرف على وجه التحديد من يكون هذا الراعي أو هذا الرجل الغريب؟

أجابها بوغزا:

- أشوف، إذا نجحت في تذكر شيء من هذا فسأخبرك به أيضاً، ولكن خطرت لي الآن فكرة، أليس من الجائز أن يكون قد ضاق ذرعاً ببيعته فأراد أن يقيم له بيتاً جديداً.

قالت فيكتوريا:

- ماذا تعني بقولك هذا يا سيد بوغزا؟

أجابها بابتسامة ساخرة:

- أعني أنه أخذ امرأة أخرى.
وابتسم أيضاً جميع الحاضرين...
أجابته فيكتوريا منقادة وقد علت فمها هي أيضاً ابتسامة وإن تكن باهتة:
- كل شيء جائز، وعسى ألا تكون الأحضان التي ورد ذكرها على لسانك هي أحضان عزرائيل؟
جذب بوغزا آخر نفس يريده من سيجارته ورمي بها على الأرض.
ساد الصمت في الحجرة، واتجهت المرأتان إلى الباب، فإذا بفيكتوريا تلتفت قبل أن تخرج لتقول له بطرف لسانها:
- يا سيد بوغزا، لا تغضب مني، من فضلك، فقد كنت صديقاً لزوجي، اسمح لي أزوك في بيتك، فإذا تذكرت شيئاً من الآن إلى أن نتقابل، ذكرته لي....
- نعم، ومتى تنوين العودة؟
- نعم أنوي العودة، لم يبق لي لآن إلا أن أعود لأبحث عن زوجي في كل بر، إنه كل مالي في هذه الدنيا.. ولقد بحثت عنه على جانبي الطرق الرئيسية، ينبغي أن أبحث عنه الآن على جانبي الدروب الفرعية، أو حتى في مهاوي الجبال.
وسترعاني القديسة حنة في دير بستريتا..
ستقود خطاي...

* * *

أمضى غيورغيتا المساء كله في مساعدة السيد يورغوفاسيلي على إنجاز عمله، على حين اختلت المرأتان في الحجرة الصغيرة للتشاور كيف تتابعان التحريات..
وكان من رأي صاحبة الفندق أن تذهب بنفسها إلى مربط الفرس، أي إلى بيت بوغزا وكوتري والسبب أنها تريد أولاً أن تتأمل بإعجاب حوريتين هبطتا من السماء، ولتحكم أيهما أخف في الميزان، الجمال أم الذكاء، وإذا لم يتأت عن طريق المرأة التلصص على زوجها وهو راقد في ارتخاء واقتناص إفشائه لداخليته وهو مخمور أو لأسراره التي لا يفضي بها إلا إلى زوجته فلم يبق إلا القسم في وجه الله هو الذي يضيء الظلام بنوره لفيكتوريا، شفيعها أنها بذلت من قبل كل ما تستطيع من جهد معتمدة على نفسها..
قالت فيكتوريا وقد غامرت نظرتها:

– كان ليبان يكرر لي دائماً مثلاً سائراً.

– ما هو؟

– لا يستطيع أحد أن يثب فوق ظله.. وهذا ينطبق علينا الآن كما ينطبق على أناس آخرين.

– مثل حكيم بلا شك.

– اضطربت فيكتوريا فجأة وأغمضت عينيها، فقد انقشع الظلام المحيط ببصيرتها، وبدا لها شبح زوجها لأول مرة وهو يدير رأسه إليها، مانحاً لها وجهه، متمتماً في وضوح بكلمات يريد أن تبلغ أذنها هي وحدها، وتكرر هذا أيضاً في منام لها بالليل.

وجاءتها كذلك علامة أخرى كانت تترقبها.. فقد عاودت الريح هبوبها بعد سكوت. من ناحية الجنوب هذه المرة.

واستجابة للنصائح التي تلقتها. وللعزم الذي عقدته، غادرت هي وابنها الفندق تاركين به معطفيهما الثقيلين وبعض متاعهما، واعتليا الجبل من جديد للوصل إلى ساباسا والبقاء بها زمناً...

وكانت صاحبة الفندق، الست ماريا، قد نصحتها بأن تقوم فيها ببعض التحريات، أما فيكتوريا فقد كانت لها نية أخرى..

سطعت الشمس من جديد بقوة.

وعند صعودهما مع الطريق الرئيسي المتعرج على سفح جبل ستينشورا، وصل إلى سمعهما هدير للسيول، ما لبث أن تحول إلى زئير عند مرورهما على قنطرة السد المبنية بالحجر المطلة على هوة سحيقة.

* * *

ونزلا إلى ساباسا مع ابتداء ذوبان الثلوج، وكان جريان الماء يصحبهما طول الطريق، ونزلا في فندق السيد توما وزوجته.. لقيا فيه صداقة وضيافة.. جديدتين عليهما، وبقدر ما كان توما ضخماً كثير الشعر، كانت زوجته كاترينا ضئيلة ولكن لا تقل ثرثرة عن الست ماريا وزوجة فاسيلي، باختلاف واحد، هو أنها تتكلم بصوت خافت تريد أن تجعله نوعاً من المسامرة.

واعترفت هذه لفيكتوريا في أول حديث لها أنا عاشت طوال عمرها وهي ترهب زوجها وترتعد منه. حقاً أنه يجيد تلاوة التراتيل، وربما خيراً من القس، ويركع

بخشوع صباح مساء أمام الأيقونة، مع ذلك فإن صورة من الغضب تنتابه مراراً يكون معها في هياج واندفاع الكركدن، غير أنه رغم ذلك كله ليس بالرجل الشرير، إذ ما يلبث أن يهدأ بعد أن يتبين له أن سبب هياجه هو نسيانه طول النهار أن يشرب قدحاً ولو صغيراً من النبيذ...

جلست فيكتوريا إلى المائدة مع صاحب الفندق وزوجته وروت لهما كل شيء فعلته أو رأته أو علمت به في سوها، على الجانب الآخر من الجبل، وطلبت منهما النصيحة، وسألتهما أن يؤديا لها خدمة..

واختلطت أفكارها، فإذا كانت تسمع فإنها لا تعي ما ينطق به مضيفاهما من آراء عديدة، غامضة..

أما عن الخدمة التي سألتهما أداءهما لها فإن السيد توما نهض من فوره عن المائدة مستعداً لأن يصحبها تلف في القرية.

ارتدى سترته الجديدة المبطنة بالفرو ومسح بكفيه شعره الطويل المنحدر على جانبي رأسه ولبس قلنسوته الفروية وتناول عصاه المركونة وراء الباب، وخرج تتبعه فيكتوريا التي كانت قد حملت من سوها عصاها البيضاء التي بدا أنها تخرق الأرض بها في بيت العمدة، حملتها تحت إبطها كأنها أداة نافعة وإن لم يكن لها أقل نفع عندها.

وسلكا طريقاً مبتلاً بماء الثلوج الذائبة، وسكان القرية يحتمون من البرد بالتدثر بثيابهم الثقيلة وببقائهم في بيوتهم المبنية على سفح الجبل في مهب الريح، ندر منهم من يجسر على الخروج أمام باب بيته ليرى المارة.

وقال السيد توما:

- حين ينتهي ذوبان الثلوج سيخرجون من أكنانهم، أما اليوم فأهل الجبل هنا في نعاس، هذه هي عادتهم.

- فلا نوم عندهم أحلى من النوم في شهر مارس، وكل الناس يعرفون ذلك عنهم. وكانت فيكتوريا تتريث أمام بوابات بعض البيوت وتطل من فوق أسوارها الخشبية.

- قال لها السيد توما وهو ينفض قلنسوته:

- لم نصل بعد، أمامنا مسافة أخرى لنبلغ مقصدنا.

وعند منحدر على الطريق انعطفا إلى درب ضيق يؤدي إلى فناء المزرعة..

كانت مزرعة تبدو عليها مظاهر العناية، قرع السيد توما بعصاه السور الخشبي فتعالى نباح الكلاب على الفور.

أسرعت فيكتوريا تفتح الباب لتكون أول الاثنين دخولاً منه وقبضت على عصاها استعداداً للدفاع عن نفسها.

وسار السيد توما خلف ظهرها فأمال رأسه ومدّ عنقه ليملك الرؤية، ليملك الرؤية فهو متحرق إلى معرفة ما سيحدث. أقبلت عليهما ثلاثة كلاب ضخمة، تضج، بشدة، ما لبث أكبرها -وكان في الوسط- أن سكت وجمد، فحذا الآخران حذوه، ثم ابتعدا وهما يزمجران. أما الكلب الذي كان في الوسط فقد بقي مكانه، مثبتاً نظرته على فيكتوريا.. هو كلب رعاة شعره رمادي وأذناه وذيله مقطوشة جرياً على عادة رعاة الجبل.

نقلت فيكتوريا عصاها إلى اليد اليسرى ومدت للكلب يدها اليمنى.

- يا سبع الليل.

نادته بصوت لم يفلح السيد توما في التقاطه، وإن كانت قد هتفت بالألفاظ من قرارة قلبها.

* * *

إنه كلب زوجها..

أخذ يهمهم بوداعة ويئن بحنان، ثم رفع خطمه وبدأ يلحس يد فيكتوريا وهي تربت عليه، كادت فيكتوريا، أن تتهاوى على الأرض من فرط الانفعال، ومن فرط الفرح على السواء، لأنها كأنما وجدت في هذا الحيوان بضعة من زوجها الذي اختفى

# الفصل الثالث عشر

السيد توما.... صاحب الفندق... دقت على رأيه طبول كثيرة
إنه يلم بالأحداث جميعها.... مع ذلك فلم يتمالك نفسه من الدهشة حين علم بمغامرة فيكتوريا....

لم يكن السيد توما يتصور أن تنبري امرأة... ربة البيت.... لترحل من أعالي جبال تاركاو وتقوى على متابعة السفر حتى تبلغ جبال ساباسا وتعتمد على كلب زوجها.

وكذلك صاحب المزرعة التي وجدت عنده فيكتوريا سبع الليل.

لقد دهش أشد الدهشة حين رآه يأتي إلى فيكتوريا حين نادته باسمه بل ويزيط من الفرح الشديد حين تعرف على سيدته روى لها مجيباً على أسئلتها العديدة أن هذا الكلب كان ضالاً في مهاوي الجبل ثم أتى للمزرعة ذات يوم في الخريف الماضي.

شوهد أولاً وهو يدور حولها ثم اعتلى ربوة وأخذ يعوي عواء الكلاب الضالة ثم نزل والتزم سور المزرعة ورقد على بطنه علامة على الاستسلام....

تبين للرجل أن الكلب ضل عن صاحبه.. إذ مما لا شك فيه أنه كلب أحد الرعاة الذين مروا من هذه الناحية بقطعانهم وأدرك لأول وهلة قيمته وحدّة ذكائه، فإذا به يهتف من البعيد لزوجته لتأتي له بنصيب من العصيدة البائتة فأتت بها في طبق وضعته فوق الأرض أمامه، فانقض عليها يأكلها دفعة واحدة بنهم شديد.

ثم أقترب من باب السور ينتظر أن يؤذن له بالدخول، فتحه له صاحب المزرعة فدخل بلا تردد فما لبث أن تعرض لهجوم من كلبين هرمين يتوليان حراسة المزرعة. لم يهرب، لم يقابل الهجوم بهجوم مماثل، لم يكشر لهما عن أنيابه، بل ثبت مكانه صابراً وقوس ظهره قليلاً كأنه يريدهما أن يفهما من حاله أنه كلب ضال مسكين، يبحث عن سيد ورفقة..

ثم أتجه بهدوء إلى مخزن العربات فتقبله الكلبان بلا اعتراض..

أطلق عليه خدم المزرعة اسم "تزيل" ففهم معناه وارتضاه لنفسه، وظل طول الشتاء أميناً على أداء واجبه يحرس المزرعة من أركانها الأربعة ويستحل بذلك طعامه...

أعترف صاحب المزرعة بحق فيكتوريا وقال لزوجته:

ما دام أن هذا المرأة قد وجدت كلبها وأنها في حاجة إليه، فما علينا إلا أن نرده لها بلا نقاش، لا نطلب منها إلا نفقة إطعامه عندنا، ولكن لن أغالي في تقديرها وبالأخص لأنه كلب مالك لقطيع، ابن حلال، مفتقد الأثر.

كان هذا الكلب في الأسابيع الأولى من إقامته معنا يهرب في بعض الليالي إلى الجبل كأنه يبحث عن شيء لا شك أنه يبحث عن صاحبه.

وهذا هو مصدق لأقوال المرأة القادمة من تاركاو، لعله يبحث عن حدث في مكان منعزل موحش، فلما نزل الثلج وغطى الأرض هدأ الكلب قليلاً، ومع ذلك كان يخرج من جديد لجولته في الجبل، فإذا بلغه توقف طويلاً كأنه يتدبر معضلة تحيره، ثم ينصرف ويرجع إلى الدار. فهيهات أن تكون لكلب ذاكرة الإنسان؟.

لا شك أنه نسي أين كان الطريق، فلا خروج له إلا للبحث عن سيده.

وأدركت فيكتوريا أن هاتفاً ودوداً أدار هدايتها. فأوحى له فجأة بأن تبحث عن الكلب...فمن يكون هذا الهاتف؟.

حقاً أن جسد زوجها قد اختفى. ولكن روحه هي التي جاءتها ولا ريب لتهمس لها بما ينبغي أن تفعله، بل تعتقد أن الإيحاء جاءها أيضاً من هاتف علوي ظل يصحبها، لا تنفك تحني رأسها له إجلالاً وخشوعاً.

فكت شالها ودفعت لصاحب الفندق مبلغاً يفوق ما كان يؤمله، قدّر أولاً أنها تعجلت ولم تستوثق من مقدار المبلغ الذي دفعته ثم خامره اشتباه بأنها قصدت دفع مبلغ فدفعت خطأ مبلغاً أكبر منه وهي لا تدري، فمد لها تحت بصرها خمس أوراق تسلمها منها قيمته مائة لي... فأشارت إليه أنها مدفوعة له عن عند لا عن خطأ.

وكررت له شكرها..

صحبها الكلب طائعاً...

له بين الحين والحين نبحات سريعة خافتة، فكانت تحني كتفها إليه وتربت بيدها على قمة رأسه، كانت في سرها وتسأله، هل سيصدق أملها فيه وهو سيصدق ولا ريب فما كانت لتهتدي إلى هذا الرفيق لولا هاتف من عناية علوية.

أبقت الكلب إلى جانبها وقادته مراراً إلى المرتفعات، عسى أن يتذكر المكان ويهتدي إليه، لعله لن ينجح إلا بمشيئة من الله... بعد الزمن... حين تنحدر السيول وتنكشف الثلوج عن الأرض فيمضي الكلب من غور إلى غور، ومن سفح إلى سفح باحثاً عن رفات سيده وسلاحه، أما جواد نيقيفور ليبان فلا ريب أنه اختفى، لعلهم الجناة باعوه في سوق قريبة أو لعله دفعوه ليتردى في هوة كصاحبه ويصبح طعاماً للغربان...

أدركت فيكتوريا منذ البداية أن حياتها ستصدمها أكبر فجيعة، وأحست منذ أول يوم بانقباض شديد يعصر قلبها، جزعاً على زوجها وهذا -من جانب- أرحم لها، فعلمها بموت زوجها لا يطعن كرامتها مثل علمها بأنه يخونها بين ذراعي امرأة أخرى وعلى فراش امرأة أخرى، ولكن ما دام القدر أراد له أن يموت ولا وسيلة لانقاذه، فأن ربها قبل شفاعة قديسات دير بسترينا، وهداها بعد تخبط ودوران، إلى المكان الذي تعثر فيعه على زوجها... عزيزها وحبيبها، فتضم رفاته وتنقلها لتدفنها في أرض مباركة، وبعد أداء كافة الطقوس الدينية، فيكون له قبر معروف، يرقد فيه بسلام.

أما الآن فهي منقادة إلى نصيحة زوجها السيد فاسيلي وإلى رأي السيد توما... وترى أنه من الأصوب لها أن تمد طريقها إلى بوركا، لعلها تستفسر من جديد، وفي مسرح الحوادث ذاتها...

هل تأتى لأحد ولو لصدفة، أن يُرى نيقيفور ليبان عائداً من ستنشورا، فإنه لو كان قد عاد، فلا بد أن يكون قد نزل في الفندق الذي صادفه في طريق سفره، فمن ينزل في فندق ويستريح إليه يعود له مرة أخرى إن لم يكن التماساً لطعام فإرواء للعطش، أو على الأقل إكراماً لصداقة مع صاحب الفندق، وهي تعلم أن نيقيفور ليبان لم يمر هناك إلا مرة واحدة، فقد رآه السيد توما وهو يوليه ظهره، ماضياً في طريقه فوق جواده بين زميليه من أهل الجبل... أما أن يراه عائداً مقبلاً عليه بوجهه فهذا هو ما ضاع الأمل فيه إلى الأبد.

كان ابنها غيورغيتا قد فرح أيضاً حين رأى الكلب، وربطه بسلسلة، كما طلبت منه أمه، وأبقاه بجانبه بجوار الجوادين.

وبعد تناول العشاء نهض السيد توما عن المائدة وشد قامته الطويلة وطوح شعره الغزير وراء رأسه وقال إنه تذكر فجأة أن جريمة مماثلة وقعت ذات يوم وهو شاب صغير.. وكان مسرحها أيضاً مرتفعات ستنشورا الموحشة...

ولا شك أن القاتل لا يفلت من عقاب ربه.. فهو ملعون ومنتنه ولا بد من وقوع التهمة على رأسه... ستتعقبه الناس بل ستطارده وحوش الأرض كلها فلو أتيح لنا أن نفهم هذا البلاغ الذي تنطوي عليه هبة ريح أو صيحة طائر أو عويل حيوان أو فزع حشرة، لما شق علينا أن نعثر على القاتل وأن نقبض عليه، وإن يوم وقوعه في يد العدالة آت لا ريب فيه وإن تأخر...ولأن السيد توما رجل مستقيم خدوم فقد تطوع أن يربط جواده إلى زحافته ويقود فيكتوريا بنفسه، إذا شاءت إلى بوركا، ثم يعود بها إلى ساباسا، ويكون لهم في الطريق تريث واستقصاء حيثما وحينما يريدون...

كان الأمر من قبل قاصراً على الشك، أما الآن وقد اقتربت رحلتها من نهايتها فقد تحول الشك إلى يقين...فمن المقطوع به الآن أن نيقيفور ليبان قد هلك على الطريق ما بين ساباسا وسوها..

ولم يكد السيد توما يفصح عن رأيه هذا حتى اندفعت زوجته السيدة كاترينا في البكاء وتقديم العزاء لفيكتوريا، أما بنت الجبل فقد رأت هذه المرة أن الوقت وقت أداء واجب ومواصلة البحث وإنجاز عمل وستبكي فيما بعد، أما الآن فليس عندها وقت لذرف الدموع...

ومضت فيكتوريا وابنها غيورغيتا راكبين جواديهما إلى سوها يصحبهما سبع الليل طائعاً، وإن طوقته سلسلته..

كانت السيول تنحدر بهدير من كل جانب، ومالت الريح إلى الدفء، وتريثا حين بلغا القمة ليلتقط سمعهما صوت تحطيم السيول لكتل من الثلج في قاع من الوادي لا يدريان أين هو...

وحلقت فوقهم غربان ونسور ولكن لم يهتف لهما واحداً منهما ببلاغ..

وصلا مع المساء إلى فندق السيد فاسيلي وكانت فيكتوريا تتوقع بحدسها أن تقع فيه على نبأ جديد، فإذا بحدسها لا يخيب...

علمت أن قصتها قد ذاعت وأثارت اهتماماً شديداً في القرية وقال بعض أهلها أنه لا بد من استقدام قاض للتحقيق، حتى يتبين كيف تمت صفقة النعاج ويطلب إلى المشترين أن يقدما الأوراق التي تثبت أن النعاج بيعت في دورنا ويقدما له أيضاً الإيصال الذي تسلماه من البائع دلالة على دفعهما للثمن.

لم يكن هذا القول عن ريبه في رجلين من خيرة المزارعين لا يتصور أنهما قادران على ارتكاب جريمة، بل لأن العدل يقتضي أن يثبتا أنه لا غبار على أمانتهما..

وتشدد بعض أهل القرية -ولا يدري أحد من هم على وجه التحديد- وأعلنوا أنه لا بد لهذين الرجلين المحترمين أن يوضحا أين تمت الصفقة ومن هم الشهود الذين حضروها وحضروا دفع الثمن كاملاً عيانا بياناً.

فمن المحتمل أن الغريب أو الغرباء الذين حضروا الصفقة، هم الذين تعقبوا ليبان وقتلوه وسلبوه نقوده..

وقد يكون شهود الصفقة -كما يحدث أحياناً- من الغرباء فلا يستطيع كاليسترات أو إيلي أن يذكر أسمائهم ولكن لا بد من لهما من الإدلاء بوصف تفصيلي لهيئتهم وملابسهم وجيادهم. فقد يكون في هذا الوصف إشارة واحدة تكفي وإن كانت ضئيلة لتعقب المتهم والقبض عليه.

وأقبلت السيدة ماريا زوجة السيد فاسيلى صاحب الفندق تقول لفيكتوريا بانفعال:

عندي لك أخبار جديدة، تصوري يا عزيزتي فيكتوريا أن زوجة بوغزا عادت فتذكرت -كأنما فجأة- أنني صديقتها وجاءت لتزورني لم أقدم ماء ولا قهوة ولا مربى يكفيها ماتجده عند حبيبتها زوجة العمدة ولكني دعوتها للجلوس... فما قالته لي حسب ظنك يا عزيزتي فيكتوريا؟.

أتتصورين أنها ذكرتني بما بيننا من قرابة، وقالت إنها جاءت تزورني لتعرف مصدر هذه الإشاعات الخبيثة التي تلاحق زوجها، فأجبتها ومن أين أعلم يا نور عيني... لعل مصدر هذه الإشاعات هم أصدقاء أو صديقات عزيزات عندك. حلال لك محبتهم لك.

ثم إذ بي أراها تستدرجني في الحديث بأسئلة عديدة لتعرف هل بنت الجبل القادمة من تاركا قد عادت لقريتها، وماذا كان مطلبها، فأجبتها أنه ليس لك مطلب

محددٍ ، وأنك هائمة في البلاد علي وجهك من فرط حزنك على زوجك، فإذا بالست إيليا تنخرط في البكاء. ثم قالت أنها أسفت لاستدعاء زوجها إلى بيت العمدة فإن هذا الاستدعاء هو الذي آثار الشائعات الباطلة، وكان أجدر ببنت الجبل أن تذهب لمقابلة زوجها في بيته. إذن لإكرامها -كما تقول- وقدم لها قدحاً من النبيذ وطيب خاطرها بل وأضافت أن زوجها كان جديرا ًبأن يساعدك في البحث عن الجناة إن كانت قد وقعت جريمة.... فأجبتها بنعم هناك جريمة... وهناك جناة.

ذلك شيء مؤكد..

بل ومن المؤكد أيضاً أن أمرهم سينكشف قريباً... أما عن بنت الجبل فأنا أوافقك على رأيك، كان ينبغي أن تذهب إلى بيتكم.

وابتسمت السيدة ماريا بخبث.. فابتسمت فيكتوريا أيضاً دون أن تنطق بكلمة.... واستطردت السيدة ماريا بنفس الخبث تقول:

وبعد هذا الحديث قامت وانصرفت، وهي لا تخفي خيبتها.

ثم لم تكد تمضي ساعة واحدة حتى قدمت زوجة الآخر..

هل جاءتك جافيتا أيضاً....

نعم.جافيتا زوجة كوتوى بشحمها ولحمها ، هي أكثر أناقة من صاحبتها ولكنها أقل ذكاء منها وانطلقت في حديث متشعب لم أخرج منه بشيء، فجاريتها وأسمعتها على لساني من مديح لأناقتها تارة ولجمالها تارة..

ثم قلت لها :

- من المؤسف حقاً أن يغتابك الناس، وبالأخص إذا كانت الغيبة من صديقة عزيزة عندك، لا أذكر اسمها حتى لا أتسبب في الوقيعة بينكما ، فهي كما قلت صديقتك. بل هي زوجة رفيق لزوجك كوتوي....

فسألتني:

- هل تكون هي إليانا ؟

فأجبتها بهدوء لا ، ليست إليانا....

فقالت : لا شك أنها إليانا. لا تكذبي علي. فماذا قالت عني ؟

فأجبتها أنني لم أقل إنها إليانا...وإنما كانت تلك التي اغتابتك فإنها لم تنسب لك شيئاً اختراعاً من عندها. بل كانت تكررما يتحدث به أهل القرية جميعاً من أن رجلاً يعرفون من هو يزورك في بيتك بالليل حين يكون زوجك غائباً في مربط نعاجه.

فلما سمعت هذا الكلام انطلقت منها صرخة فز لها زوجي من مقعده، ولو أنه كان في ردهة الحانة بعيداً عنا.

وقالت:

- هل بلغت الوقاحة و الجرأة إلى هذا الحد؟

- أليست زوجة بوغزا هذه التي تغتابني هي مدينة لزوجي لأنه أنقذها من مخالب الفقر. فقلت لها:

لم هذا الهجوم على صديقتك إيلينا وأنا لم أذكر لك أنها هي التي اغتابتك؟ فأجابتني:

-أنا خبيرة بها وأعلم على أي شيء هي قادرة، إنها في الكنيسة لا تنفك ترقبني لترى كيف تخيرت ملابسي، وتدل نظرتها على أن الغيرة تنهش قلبها، لماذا لا تنشغل بحال غيرها من الناس.... فلست أنا امرأة مثلها يدفعها زوجها المخمور في ركن، وينهال عليها ضرباً وثم إن زوجي لا يخرف في نومه كما يفعل زوجها في أحلامه المزعجة...

انقطعت السيدة ماريا عن الكلام وتبادلت نظرة سريعة مع فيكتوريا التي ارتعشت أجفانها وتقطب جبينها...وقالت بهدوء:

سأذهب لزيارتهما غداً... وألتمس منهما الصفح عني لأني كنت مصدر متاعب لزوجيهما. إنني متلهفة على معرفة أسماء شهود الصفقة، وأوراق البيع والشراء وإيصال دفع الثمن ولكن همي الوحيد الآن أن أعرف كيف أحملهما على الفضفضة لي بما عندهما.

فأنا أعرف مثلك يا ست ماريا كيف أقول كلاماً من قبيل الاستفزاز وتسميم الدم، فلا يكتمان عني أسرار قلبيهما به إليّ، وإلا فلن أبالي بهما وأتركهما لحالهما، فليس من حقي أن ألقي التهمة جزافاً على أبرياء، لا هم لي أن اعثر على زوجي، سأقيم له صلوات في الكنيسة حتى تنزل السكينة على روحه، قد رايته في أخر حلم لي مقبلا ًنحوي بوجهه، إنه كان يناديني إليه....

تدارست المرأتان طويلاً كافة الاحتمالات حتى اهتديتا إلى أفضل الحلول.

سيقوم السيد فاسيلي من غد صباحاً باستدعاء بوغزا كوتوى للاتفاق معهما على صفقة من الجبن يتعهدان بتوريده للفندق، ثم لتسوية حساب معهما، كانت تؤجل من موعد إلى موعد طوال الشتاء، أما الآن فقد أقبل الربيع وبدأ موسم نشاط التجارة...

سيقومان إذن من نجع شجرتي التفاح لتوقيع العقود وقبض العربون، ولا بد وفقاً للعرف في مثل هذه الأحوال من تبادل الدعوة إلى الشراب ومن دردشة غير قصيرة. ويكون غيورغيتا حينئذ مختبئاً في المخزن بأقصى الفناء حتى لا يبصره الرجلان ويعلمان أنه حضر مع أمه وتتسلل السبت ماريا وفيكتوريا وتذهبان معاً أولاً إلى بيت بوغزا ثم إلى بيت كوتوي أو يتقاسمان المهمة فتذهب كل واحدة منهما، منفردة إلى كل من المنزلين بالتناوب والقصد أن تطبقا الخناق على الزوجتين وإرباكهما بأسئلة محيرة وتقليبهما على جمر قليلاً، قليلاً حتى يكون لهما التواء كالدود.

ستحكم فيكتوريا بنفسها على مقدار ما تعلمانه عن أفعال زوجيهما أو حتى من أسرارهما التي لم يفضيا بها إليهما بعد انتزاع أيمان مغلظة بالكتمان، وتستطيع بنت الجبل بعد ذلك أن تستأنف طوافها للبحث عن زوجها، وتبقى الست ماريا حيث هي لتحكم نسج خيوط الشبكة التي تصطاد الجناة...

لا ريب أن المولى سبحانه هو الذي يعلم وحده كل الحقيقة، لكن هم الست ماريا ومنى عينها أن ترى زوجة كوتوى من ورطة تجني على أناقتها....

فلقد عادت المرأتان من الزياتين دون أن تسفر تحرياتهما إلا عن معلومات ضئيلة....ودخلتا الفندق وهما تتبادلان الرأي والحكم في انفعال شديد، وامتطت فيكتوريا جوادها لأنها اعتزمت أن تجتاز الجبل مع ابنها غيورغيتا.....

القنوات التي تنحدر فيها السيول بدأت تفرغ من الماء... وانحسر ذوبان الثلوج عن الطريق فانفتح لسير العربات، وانبعثت من غابة أشجار الصنوبر هسهسات لطيفة وتصاعدت أنفاسها كلها بخار يجلجلها... وما بين الأشجار أرض غمرتها الشمس بعد الثلوج، فكشفت عن ثرى خصب، وبدأت البراري تكتسى بالخضرة..

ووجدت فيكتوريا على حافة حفرة بين أوراق شجرة جافة زهوراً من الأقحوان يتألق بياضها، فترجلت عن جوادها لتقطفها وتملأ عينيها برؤيتها فوق سيقانها الرشيقة، ثم رفعت رأسها للسماء وتشممت أريج الغابة...

لفت اللجام على ذراعها وسارت في مدق بجانب الطريق، تتجاوب في كيانها كله أناشيد الربيع المختال بمقدمة، تمنح وجهها للشمس وتفتح قلبها للجذب، ولكنها تحس في الوقت ذاته أن هذا القلب قد ذبل، مثل هذه الزهور البيض التي تمسكها مابين أصابعها، وتراها قد رثت سريعاً، وفقدت نضارتها...

بدأ الكلب ينبح بطلب الفكاك من سلسلته....

آثار ذلك انتباه المرأة فقالت لابنها فوراً:

أطلقه يا غيورغيتا.......

* * *

ترجل الابن وفك السلسلة عن رقبة سبع الليل، لكن الكلب لم يحاول الابتعاد، وأخذ يجري حولها هنا وهناك وخطمه مرفوع للشمس، يبدو عليه أحياناً أنه على وشك العطس.

فرج شفريه كشف عن أسنانه، وأخذ بتشمم ويملأ منخريه بالروائح التي تنفثها الغابة...

وأخذ يصعدان الجبل.

كانا يتحركان خطواً مجتازين قنطرة بعد قنطرة حتى إذا بلغا القمة تريثا...

الكلب باق على ترقبه، قعد على ساقيه الخلفيتين وهو يتأمل الوديان السحيقة بنظرة تماثل نظرة الإنسان... يشوقه أن يعجب بجمال الطبيعة هذا هو ما لاحظه غيورغيتا مراراً، فغمز بعينه لأمه ينبهها إلى حال الكلب وهو يضحك... فقالت له بلهجة جادة..

- سبع الليل يحب أن يرى الدنيا هو أيضاً...

وبدأ نزولهما على السفح المواجهة لقرية ساباسا وحين بلغا القنطرة الثانية، وقف الكلب واضطرب كأنما تملكه القلق فجأة وأخذ يهاجم الجوادين وهو ينبح كأنما يريد أن ينهال عليهما عضاً...

قال غيورغيتا وهو يعجب لمسلكه ويحار في فهمه...

- لا أفهم ما جرى اليوم لسبع الليل...وكنت هذا الصباح أربطه إلى جانب في مخزن السيد فاسيلي فأراه يريد أن ينطلق من السلسلة من كل بد، ويزمجر بصوت كالرعد يأتي من بعيد..

قالت له فيكتوريا :

- هل فعل هذا ؟

- نعم :

ولم يهدأ إلا بعد وقت، أي بعد أن انصرف الزائران الآن فماذا به الآن حتى تفتر رغبته في الانطلاق..

- لنر ماذا يريد. فلنقف هنا...

كف الكلب عن مهاجمة الجوادين وعدل عن صب غضبه عليهما ليصبه الآن على فيكتوريا وابنها، تسلل وراء سور حافة الهاوية وبدأ ينزل إلى قاعها.

تزحلق مسافة غير قصيرة على المنحدر، حتى بلغ أرضاً حديثة انكشفت الثلوج عنها، فلمعت تحت أشعت الشمس، ثم عاد الكلب يصعد إلى الطريق، واندفع يغرز أسنانه في ذيل معطف غيورغيتا، فضربه الشاب بقدمه، فنزل مرة أخرى إلى الهوة طبقاً لما فعله أول مرة ودون أن ينقطع له النباح.

قالت بنت الجبل :

- يا ولدي...افعل مثلي واربط جوادك إلى شجرة واهبط بسرعة وراء الكلب ولقد سبق له النباح في هذا المكان بالأمس. ونحن نصعد هذا السفح، لكنه لم ينطلق لأنه كان مربوطاً...

- لماذا أهبط المنحدر، لعل هناك مدقاً يصلح للنزول براحة...

- قلت لك اهبطِ وراء الكلب، فاني اسمعه ينبح، لا بد أنه عثر على شيء...

اندفع الدم إلى وجهها فجأة ولمعت عيناها ففهم الشاب أن لا مفر...

دخل وراء سور حافة الهاوية المبني بالحجر، وبدأ ينزل إلى الهوة وهو منحني يغرز قدمه في الأرض ويستند فوق كفيه...

وانحنت المرأة فوق الهاوية لتنظر قاعها....

وكان غيورغيتا حينئذ قد بدأ يتزحلق ببطء على المنحدر الرطب، فتيقلقل أحجاراً صغيرة تتدحرج إلى الهوة.

الكلب غير مرئي لكن نباحه مسموع من قاع الهوة.

أبصرت فيكتوريا ابنها معتدل القامة وهو يخطو بحذر على جانب المنحدر القاسي....وفجأة وثب إليها هتاف مرعوب وأدركت عن يقين سببه وفأحكمت لف ثيابها وألقت بملئها إلى الأمام، ثم تركت جسدها يهبط على المنحدر وراء ابنها حتى وصلت إلى القاع، والعروق تنبض بعنف على صدغيها.... بينما الكلب ينبح بقوة....

رأت غيورغيتا واقفاً يهتز متشنجاً بالبكاء.

أسند جبهته إلى ذراعه الأيمن وأخفى عينيه..

فلقد انتشر على الأرض أمامه بياض عظام متناثرة، تنز غضاريفها بالرطوبة.

هذا هو حذاء نيقيفور... وذلك هو جرابه... ثم حزامه الجلدي وقلنسوته من الفرو الرمادي...كلها أمامها.أما هو فقد نهشت الوحوش جثته...

وإلى جانبه غير بعيدةوعظام جوداه، وقد تكوم فوقها السرج والسجادة..

إنه أيضاً كصاحبه..نهشت الوحوش جثته...نادت من المرأة صرخة عالية مشروخة:

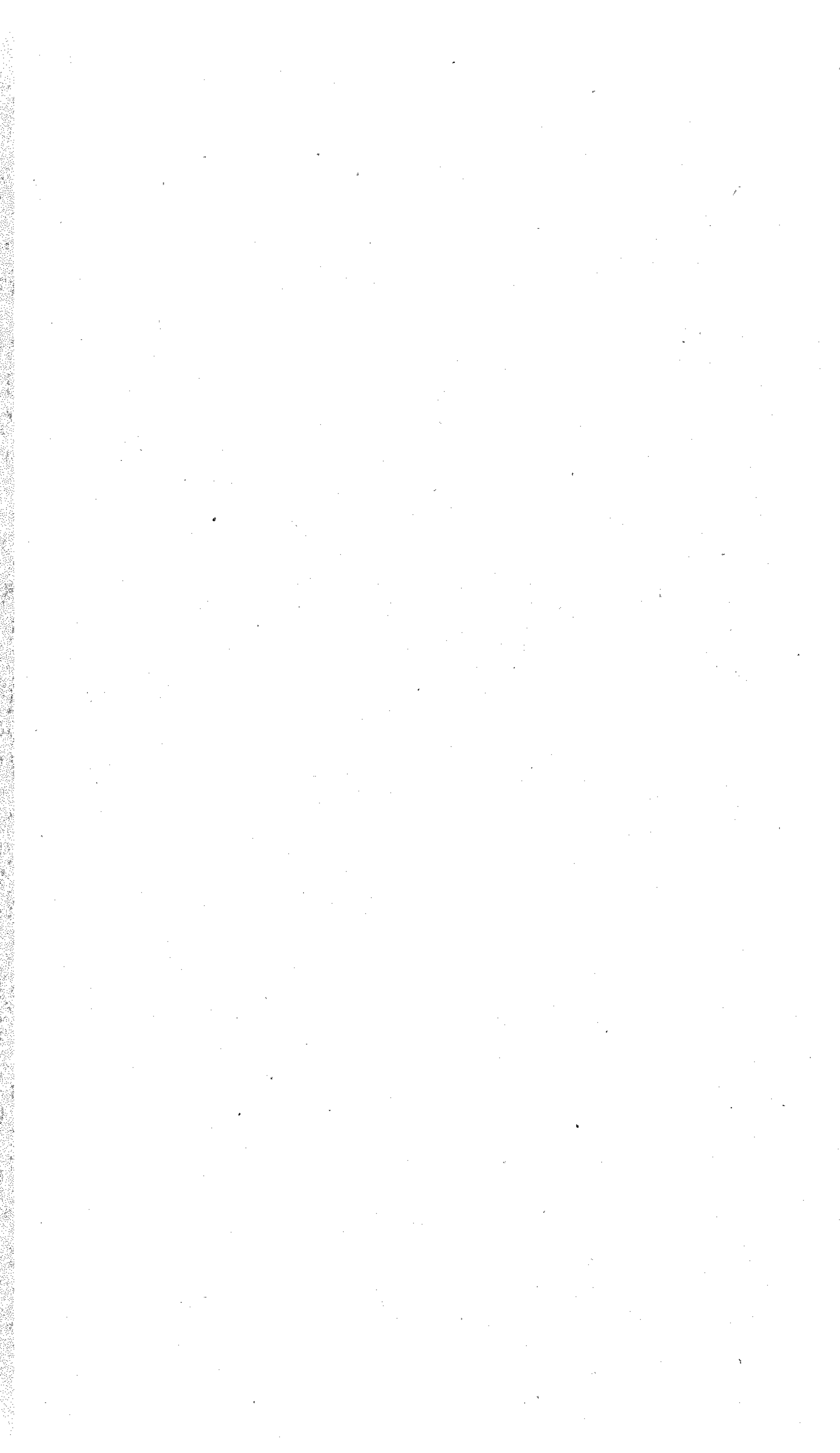
-يا غيورغيتا....

انتفض الشاب وأدار نحوها رأسه، لكنها لم تكن تناديه....

بل تنادي زوجها...

فذلك هو اسمه عند مولده... متكتم إلا بينه وبينها.

ركعت وجمعت على عجل العظام المتناثرة، وضمت الأشياء بعضها على بعض... أما جمجمة الميت... فقد كانت مشقوقة بضربة من بلطة....



# الفصل الرابع عشر

في حركة محمومة، ولكن بدون ذرف للدموع، أدركت فيكتوريا أول واجب وقع على عاتقها، متاع زوجها تفشت فيه الرطوبة وفاح بالعطن وتخيرت من بينه سجادة وسترت بها رفات ليبان.

ابنها غيورغيتا أسقط في يده.

بدأ بعيد لأن يدرك أن الذي يراه أمامه هو كل ما بقى من أثر لأبيه.

بكى كالطفل الصغير فتورمت عيناه وانفجرت شفتاه.وظلت فيكتوريا واقفة وقد عقدت ذراعيها على صدرها وهي تتلفت حولها ليستقر المكان في ذاكرتها....

من فوقها وابتداء من السور على الطريق يهبط إليها المنحدر بميل قاس كأنه القمع لهوة سحيقة، في قسمه الأعلى ضعف قابل للانهيار فأقيم له جدار يسنده، ما بين هذا الجدار من فوقها والشق الذي تقف فيه مسافة لا تقل عن عشرين متراً، والسفح حيث هي له تجويف حافته مقببة تغطيها الأعشاب وتحوطها قطع من الحجارة، ومن تحتها الهوة تزداد اتساعاً.

أنه مكان شديد الضيق، شديد العزلة. شديد الاختفاء، أشعة الشمس وحدها هي التي تصل إليه وتغمره، لا مدق يؤدي إليه، ولا معبر عنده لمكان أخر مجاوراً، هنا أراد القدر لنيقيفور ليبان أن يسقط كأنما في قعر بئر، ضربته ودفعته يد عدو. فلم يتأت لأحد أن يشهد مآله الفظيع ويمر المسافرون من فوق على الطريق، وهو لا يدرون ماذا تحتهم.

حتى الرعاة....هيهات أن تحدثهم نفوسهم بالاقتراب بقطعانهم من مثل هذا المكان.

لم يتبق إلا شمس الخريف في شروقها وغروبها تبعث أشعتها لتربت على رفات الميت والجواد المحطم وثم هبط المطر الكثيف كأنه ستارة من العتمة فوق الجثتين.وأحاطت بهما أسراب العقبان والغربان تلتزمهما ولو سهرت الليل بطوله وخرجت الوحوش من كهوفها في بطن الجبل وغرزت مخالبها في الجثتين لتسمرهما فوق الأرض وأعملت فيهما أنيابها..

كلب نيقيفور وحده هو الذي شهد كل ما حدث ثم ألتزم المكان دون أن تغمض عينيه إلى أن دفعه الجوع على التماس صحبة من ناس، ولما وجدهم عاد لها، بين الحين والحين وجمده عنده يترقب وثم هبط الثلج ذات يوم وغطى الفجوة.

إرادة المولى عز وجل وحدها هي التي قضت بان تتولى الشمس إزاحة الثلوج عن هذه المغارة لكشفها وإنها السبب الكلب رائحة الرفات وهو مار على الطريق فينبح وينبه فيكتوريا....

ورأت فيكتوريا أن ابنها لم يتمالك جأشه بعد، فقاست بنظرتها المسافة بينها وبين سور الهوة، من فوقها، وتدبرت الوسيلة التي تعنيها على صعود المنحدر لكي تبلغ الطريق.

تحسست الأرض في بعض المواقع بقدمها، تبحث عن موطئ لها مأمون وأخذت تتعلق بذراعها على ما تجده في الصخر من نتوء يسعفها حتى وصلت بعد تعرج وبشق النفس إلى الطريق، وهتفت لابنها غيورغيتا:

لي مطلب من صعودي إلى الطريق وسأعود إليك فوراً...

فلما استقرت على الطريق انحنت فوق الهوة ونادت سبع الليل إليها فطلع إلها ببطء متعقباً أثره...

جعلته يقف لحراسة الجوادين حتى تستأمن عليهما من عابري الطريق.

نقبت في متاعها ونزلت على السفح ومعهما علبة كبريت وشمعة فأشعلتها وثبتتها في ركن مستور من المغارة.بجانب رفات زوجها...

كل حركاتها ونظراتها تفصح عن القوة الهائلة التي تجندت في كيانها، استقرت على رأي فقالت لابنها:

يا غيورغيتا. ستبقى أنت هنا لحراسة رفات أبيك، أما أنا فسأهبط من الجبل

بسرعة إلى قرية ساباسا لأبلغ الخبر إلى أهلها وسأعود مع السيد توما وعربة أنقل عليها الرفات إلى القرية لأداء الطقوس الدينية اللازمة.

أجابها وهو يتنهد:

أمرك يا أمي. سأبقى هنا كما أردت.

طلعت إلى الطريق وركبت جوادها ومضت تاركة سبع الليل مع الجواد الآخر.

ثبت الشاب نظرته على الشمعة الموقدة لا يكاد يتبين نورها من شدة الشمس الهائلة التي يغشى لها بصره. ساقه مألوف طبعه إلى الجلوس غير بعيد، مديراً ظهره للسجاد الفلاحي الذي تناثر فوق العظام والغضاريف، والشعر ومتعلقات أبيه، ليس التقزز على وجه التحديد هو الذي يجده في نفسه، بل هو مأخوذ بمشهد مرعب لم يسبق له أن رأى طوال عمره مثيلاً له.

رفع رأسه ومد بصره بعيدا فأدرك أنه في مكان منعزل تماما الانعزال، مضّيع تحت قبة السماء. بين الصخور ومخاطرة الهوة والغابة قريبة. وبقي شيء من الثلج متجمداً كالجزر الصغيرة في باطن الأغوار...

وفجأة أصبحت الشمس لا تلحق إلا رؤوس الأشجار والقمم العالية...

ورأى بطرف عينيه أن نور الشمعة زاد وضوحاً في جوف المغارة، ثم ساد الصمت كأن كل شيء قد جمد وتحجر، فجمد هو أيضاً في مكانه. ينصت إلى دقات قلبه.

ثم ارتجف حين انطلقت من فوقه طي ضوء في صبغة من الذهب، صيحة نسر، تكررت مرة بعد مرة، ورآه يحوم فوق رأسه وقد فرد جناحيه.

وقد يقال إنه يرقب الشاب بنظرة فاحصة ووصلت إليه من بعيد صيحة مماثلة. فأتجه إلى مصدرها هذا النسر المحوم فوق رأسه. وخلت السماء ثم ما لبث أن هبط من هذه السماء الخالية ظلام الليل كأنه غلالة من ندف الثلج.

امتحن الشاب نفسه فحكم أنه غير خائف، ولو انه كان يتمنى لأن يجد بجانبه إنساناً... أما الكلب فواقف فوقه على الأرض... لم ينبح إلا مرة واحدة.أما الآن، فهو صامت مع هبوط الليل...وهذا دليل على أن المرور على الطريق قد انقطع.

للنجوم لمعان. وللريح أحياناً هبة مفاجئة وسمع غيورغيتا زمجرة وحش في بطن المغارة فقال لنفسه:

لعلي واهم.

ومع ذلك كان الغم يكويه ويخترقه كصعقة البرق من جوفه إلى مخه، فر واقفاً وبدأ يتسلق المنحدر كما فعلت أمه ينشب أظافره في الصخر...

ويتحسس... وهو مقوس الظهر نتوءاً يستند عليه كعب حذائه، حتى وصل يلهث ويتصبب عرقاً...

استقبله الجواد بصهيل خفيف ووثب إليه الكلب وبدا له أن الطريق أقل إظلاماً عما قريب سيطلع القمر ويغمر الكون بضوئه وسيصل إلى بطن الهاوية، لا ريب أن الميت قد هب واقفاً في المغارة، متدثراً بثيابه مطالباً بأن تقام له الطقوس الدينية التي حرم منها.

وأصاغ غيورغيتا سمعه، لم يطرقه إلا حفيف النسيم، وخيل إليه أن أذنه التقطت مرة وقع أقدام تتفحص الأرض في بطن الهوة، ومرة صوت همهمة من حوله.. ثم تبين له أنه يسمع صدى هدير السيول البعيدة.

وحين تقدم الليل عبرت أسراب من الطيور المهاجرة فوق أشجار الصنوبر تحت ضوء القمر ووفي قلب الجبل الموحش المتفرد بقبقة مياه الربيع ورمت الحياة من جديد. بقنطرة فوق هوة الفناء...

هل أصبح لنيقيفور ليبان إذن نشور يتمثل في وقع أقدام أو انطلاق أجنحة أو صياح مدو؟

أحس الشاب من حوله رعباً متكتماً نابعاً من جذور ممتدة إلى قلب الأرض... أخذ يخاطب الجواد والكلب بكلام لا معنى له... أراد أن يملأ فراغ وقته فانشغل بإخراج مخلاة الشعير... ثم بحث عن مكان يرقد فيه ويتغطى بسجادته، هدأت أصوات الليل، وهن جسده ووهن تشوقاً للنوم، فإذا به يسمع سبع الليل ينبح فجأة تجاه الوادي.

هب واقفاً على الفور فصدمت جبهته المخلاة المعلقة برقبة الجواد وهتف بخوف:

- من هناك؟

فلم يجبه إلا نباح الكلب بنباح جديد ثم صمت وتبين الشاب في الصوت الشامل المحيط به صوتاً لقعقعة كأنها دقات جرس منبعثة من حديد مفصلات عربة نقل سائرة ثم تهادت إليه نداءات زادت اقتراباً منه. فعرف صوت السيد توما.

عادت فيكتوريا لا في صحبته وحده... بل أيضاً في صحبة عمدة القرية وأحد حراس الغابات، وقفوا عند سور المغارة وفكوا الفرس من عربتهم، وأوقدوا ناراً من كوم صغير من الحطب. كان أول كلام لفيكتوريا مع ابنها هو سؤالها له:

- هل الشمعة لا تزال مشتعلة؟

أجابها بتردد :

- أظنها لا تزال مشتعلة.

أجابته بعتاب :

- يا سبحان الله، ألا تدرك يا بني كم كان واجبك مهماً. اهبط وتحقق مما تقول.

إليك بهذا القنديل الذي أخذته من الكنيسة، فعليه علامة الصليب، أشعل شمعته وضعه على رأس أبيك، أعلم أننا لن نستطيع نقل رفاته لا اليوم ولا غداً في أغلب الاحتمال...

فعلينا السهر حول رفات أبيك ما لزمنا السهر، وقد طلبت إلى القس تيودوراكا أن يحضر لإقامة صلاة هنا....

أجابها وقد اغبر وجهه:

- ولماذا لا نستطيع نقل رفاته فوراً؟

- يهذا غير ممكن فهناك إجراءات لا بد من القيام به...

- من تعنين؟

- رجال الحكومة، فلهم إجراءاتهم، ينبغي ألا يلمس أحد شيئاً هنا...

إلى أن يصل وكيل المأمور الذي قابلناه في فاركاشا ثم يعقبه الطبيب الشرعي ووكيل النيابة.

- وما الداعي لحضورهم. ماذا يريدون منا؟

- لا مطلب لهم عندنا... ولكن مطلبهم هو الميت. ليعرفوا سبب الوفاة، فلا بد أن يثبت لهم أنه مات مقتولاً من قبل أن يبحثوا عن الجناة. ولقد بح صوتي في مناشدتهم ان يتركوني أنقل رفات زوجي وأقيم له الطقوس الدينية.

فنهض السيد توما وها هو واقف أمامك ونصحني ألا أتدخل وإلا رمانا القاضي في الحبس فاضطررت إلى الاستسلام فلا حيلة لي. ليفرغوا سريعاً من إجراءاتهم ويدعوا لي زوجي. لن يبقى لهم بعد ذلك مطلب مني ولا يبقى لي مطلب منهم...

تدخل السيد توما بلهجة غاضبة:

- حيلك يا ست فيكتوريا، إنهم لا يصدرون عن غلظة قلب، بل هي إجراءات يراد بها الكشف عن القاتل...

- لا تغضب يا سيد توما، أتظن أن إلقاء نظرة على الرفات يؤدي إلى العثور على القاتل...

- ليس النظر إلى الرفات هو كل ما سيفعلونه، فأنت تستطيعين مثلاً مدهم بما عندك من معلومات وشبهات.

هتفت له بدهشة:

- أنا؟

وكانت قد مدت نظرة من طرف عينيها إلى الجمع الذي جاء معها من ساباسا، ثم صمتت وسترت فمها بكفيها الأيسر... واستطردت، بعد لحظة تقول بصوت رقيق:

- أشكرك يا سيد توما من كل قلبي على عونك لي، أريدك أن تتكرم بإرسالك العربة لي من غداً أيضاً، ويأتي معها القس كما التمست منك، من قبل سأدفع لك كل ما تطلبه ولن أنسى أبداً جميلك.

ضع في العربة بجانب القس عشرون رغيفاً وأقتين من الزيتون وعشر سمكات مملحات وخمس زجاجات من خمر الزبيب، وقيد كل هذا على حسابي في سجلك. مع حساب ما وافيتني به الآن. سأفرق كل هذا على روح الميت وأعطيه لمن يريد من الحضور سواء ليروا الرفات أو ليسهروا حوله، إنني سأعجل الآن بدعوة حضرة العمدة والخفير للمشاركة في رحمة الميت.

فاذهب يا غيورغيتا وانتزع من تحت العلف إبريق الخمر واحضره إلى هنا وضعه بجانب النار...

طاب للرجال شرب الخمر ومنحوا فيكتوريا ابتسامة عبرت إليها من خلال لهيب النار، كانت هي التي صبت الخمر في قدح واحد أدارته عليهم فشربوا منه جميعاً دون أن يفوتهم الترحم على الميت، وكان دعاء السيد توما بالأخص هو الذي نفذ إلى قلب فيكتوريا:

رحمتك يا رب بينيقيفور ليبان واغفر له خطاياه التي تعمدها والتي لم يتعمدها وامنحه يا رب يمنك وكرمك، منذ هذه اللحظة رقدة في أرض مباركة.

ولما رأت فيكتوريا المأمول منها حينئذ هو التعبير عن حزنها بقطرات من الدمع وأنها من قبل أن تشرب من القدح قد صبت قدراً من الخمر على الأرض هدية للميت.

كان هذا رأيها منذ أن أسفرت لها حقيقة الفاجعة عن وجهها.

ونزل غيورغيتا بالفانوس إلى المغارة وبقي الآخرون على الطريق ينتظرون مطلع الفجر وهم يجلسون حول النار ويشربون من إبريق الخمر بين الحين والحين.

وفي الصباح هبطوا هم أيضاً إلى المغارة ليتأتى لهم بدورهم اكتشاف الرفات ورؤيتها. وعاد السيد توما إلى القرية ومعه حارس الغابات، استجاب لرجاء فيكتوريا واستأجر جواداً ثم بعث بالحارس إلى وكيل المأمور السيد أناستاس بالميز برجاء أن يسرع في إنجاز الإجراءات الرسمية، هذا رجاء الأرملة، إنها تتقدم به والدموع في عينيها وتبدى استعدادها لدفع كل الرسوم المقررة.

ورضي القس أن يأتي إلى المكان خلال النهار ووقف بين سلة الأرغفة وأباريق الخمر

فاستطاع بشق الأنفس أن يهبط إلى المغارة مع أن فيكتوريا كانت قد مهدت له في الصخر تدرجاً من نتوء ليستند إليه، والقس رجل هرم أكرش، فلم يكن من السهل عليه أن ينزل إلى حيث تستدعيه وظيفته الدينية.

لبس وشاحه ومسح لحيته البيضاء بكفه وفتح كتاب الصلوات وقرأه منه صلاة موروثة من قديم، يتريث بين الحين والحين ليلتقط أنفاسه، ورفعت فيكتوريا عن الرفات طرف السجادة لكي يتأتى للميت أيضاً أن يسمع الصلاة وأن يمد إلى السماء نظره من فراغ محجريه. هذا بينما كان الفلاحون والمارة لا يتريثون لسماع الصلاة، بل ليكون لهم نصيب في الخمر والخبز المفرق على الميت، وانبرت النسوة يحكين لمن يريد استماع كل التفاصيل.

وتسربت إشاعة من قرى الجانب الآخر من الجبل محمولة على جناح الريح أو سارية في بطن الثرى تقول إن الجناة هم رعاة يسكنون تلك النواحي.

استمعت لها فيكتوريا بانتباه واعتزمت من كل بد أن تزور صديقتها الست ماريا، لتدعوها إلى قداس الدفن، ولتعلم منها هل فضفضت بعض الأفواه وما هي حصيلة آخر تحرياتها... بل عرفت شيئاً من السرور حين تصورت أن إنساناً قد بقى هناك لا يكف عن الاستقصاء والاستجواب.

ولم يستطيع رجال الحكومة أن يحضروا لمكان الجريمة إلا في اليوم الثالث..

* * *

أوشكت فيكتوريا أن تدير ظهرها لحديث يجري بين أناس لا زوجها من معدنهم ولا هم من معدنه، وجدوا الرفات ونظروا إليها وتولى واحد منهم فحص الجمجمة، ثم

كتب على ورقة نتيجة المعاينة؛ وجرح قلب بنت الجبل لأنها لم تر واحد منهم يفكر او يتنازل أو يرسم علامة الصليب أو ينطق بكلمة واحدة فيها ترحم على الفقيد.

وتذكر السيد أناستاس بالميز وكيل المأمور أنه قابل بنت الجبل من سابق فسألها :

– أهذا هو رفات زوجك الذي تبحثين عنه؟

– نعم هي لزوجي يا حضرة وكيل المأمور.

– أرأيت كسف صدق حدسي، فقلت لك أن اللصوص قتلوه وسلبوه ماله.

أجابته برفق:

– نعم يا حضرة وكيل المأمور، ولكن بعض النقود لا تزال هنا في كيسه، وكذلك حزامه الجلدي لم ينهبه اللصوص.

– إذن... أيكون الدافع على القتل هو الانتقام لا السرقة؟

– وكيف يجول بالخاطر فكرة كهذه. إنه منذ دورنا كان مسافراً في صحبة أصدقاء.

أجابها بلهجة لا تخلوا من الدهشة...

– ومن هم هؤلاء الأصدقاء؟

رأت فيكتوريا أن من واجبها أن تروي له كل ما عندها من علم عن الحوادث التي وقعت بعد صفقة النعاج في دورنا. وكيف أن زوجها قد قطع الطريق إلى المكان حيث واقفة الآن راكباً جوداه مع زميلين صديقين هما الآن لا يزالان يسكنان وراء جبل ستنشورا في نجع يسمى نجع شجرتي التفاح، وهما يؤكدان أنهما اشتريا نعاجاً من ليبان ودفعا له الثمن... فلم يبق لزوجها بعد أن قبض النقود في القرية الجبلية إلا أن يفارقها ويأخذ طريقه للعودة إلى بيته.

فمن المحتمل يا سيادة وكيل المأمور أن أحد شهود الصفقة بينه وبين صديقيه وما صحبهما من دفع وقبض للثمن قد تعقبه وضربه ونهب منه ثمن الصفقة فليس هناك احتمال آخر في رأي فيكتوريا لأن صديقيه كالسترات بوغزا وإيليا كوتري، أكدا لها ذلك... فالواضح أن نيقيفور ليبان لم يجد فرصة ليضع ثمن الصفقة في الكيس مع بقية نقوده...كان لا يزال قابضاً عليه بيده فضربه القاتل ونزع النقود من يده، إذ أنه سقط في الهوة فوراً بعد الضربة الأولى ومعه جواده.

ومن العسير يا سيادة وكيل المأمور، أن نتصور أن القاتل هبط وراءه، إذ كان

عليه أن يتعرض لهجوم الكلب عليه دفاعاً عن سيده فكان يلزمه قبل أن يسلب الميت ماله أن يقتل الكلب أولاً وهذا ما لم يحدث، فالكلب ما يزال حياً.

ينبغي يا حضرة وكيل المأمور أن نعرف من هو هذا الشاهد الغريب الذي حضر عد النقود ودفعها إلى ليبان، غاية ما فهمته من أقوال زميلي زوجي إنهما لا يتذكران اسم هذا الشاهد... ولكن إذا وقع عليهما ضغط من الحكومة فسينتهيان حتماً إلى الإفضاء باسمه ويلزمهما بطبيعة الحال أن يثبتا شراء الصفقة بتقديم إيصال يكون نيقيفور قد خطه بيده في قمة الجبل.

وكيف يخطه؟

ليست هناك في قمة الجبل أدوات كتابة وليس من عادة الريح أن يحمل ويطير بقلم ومحبرة. أما صورة عقد البيع والشراء بين ليبان وأصحاب النعاج البائعين له فأيدي الرجلين خلو منها... إنها باقية في كيس نيقيفور ليبان.

* * *

ومن الذي يخالفهما إذا أكدا أنهما دفعا له ثمن نصيبهما من النعاج الذي تنازل لهما عنه وأنهما قاما لعد النقود وهما يدفعان الثمن أمام شهود، حقاً أن الدنيا مليئة بالخداع والغش وقد سرت إشاعة على جانبي الجبل تؤكد أن الحكاية. يا سعادة وكيل المأمور فيها كل شيء مريب...

وفيكتوريا لا ترجم أحد بتهمة جزافاً فهي واثقة أن ربها سيحق الحق ويبطل الباطل.

* * *

قال لها السيد أناستاس بالميز وكيل المأمور وهو يلوي شفتيه:

– لا أستطيع أن أستخلص شيئاً من أقاصيصك يا وليه، فهل هناك شاهد على الصفقة التي تمت بين زوجك وزميلك؟

– ومن أين ليْ أن أعرف يا حضرة وكيل المأمور عليك باستجوابهما لترى ماذا يقولان؟

– طيب اتركي لنا أداء واجبات وظيفتنا، ولكني أسألك أنت الآن:

– هل عنك علم عن هذا الشاهد. أم هل هو من اختراعك؟

– إنه ليس من اختراعي يا حضرة وكيل المأمور، لا بد من الجزم بوجود شاهد، فإن لم يكن قد حضر الصفقة شاهد ننسب له ما حدث من بعد، فلا بد أن ننسبه إذن لزميلي زوجي.

لا يفهم العفاريت كلامك يا وليه، أتراك تتهمين صديقيه كالسترات بوغزا وإيليا كوتوي؟

معاذ الله، أنا من جانبي لا أتهم أحداً.

يلزمنا أولاً الإفضاء بأقوالهما والإدلاء بشهادتهما شأن المزارعين الشرفاء أمثالهم، غاية ما أقوله لك أن الرجال الذين كانوا يسيرون راكبين جيادهم وراء القطيع إلى أن بلغوا قرية بوركا لم يقل عددهم عن ثلاثة ثم لم ير الناس خلف القطيع بعد ذلك إلا رجلين، أما الثالث فقد نهشت العقبان والغربان جثته كما ترى أمامك... عليهما أن يقولا من الذي ضربه ببلطة، فالجمجمة شاهدة بلا أدنى ريب على أنها مشجوجة بضربة من حد بلطة.

فمعرفة اسم الشاهد ليست مطلوبة مني ولا منك يا حضرة وكيل المأمور بل مطلوبة منهما وحدهما....

- أي شاهد تعنين؟ قد وجعت رأسي بحكاية هذا الشاهد.

- خذ كلام امرأة مثلي على علاته.

- خلصينا من حكاية هذا الشاهد فواجبي الآن أن استجوب الرجلين وأعصرهما إن بدامنهما مكر أودهاء...سيريان أني أشد دهاء ومكراً صدقيني فقد سبق لي أن كشفت السر في جرائم أشد غموضاً.

ضمت فيكتوريا كتفيها وزمت شفتيها:

في يدك أن تفعل ما تريده يا حضرة وكيل المأمور، لا أطلب إلا أن تدعني أدفن زوجي وأقيم له الطقوس الواجبة ككل من دخل في ملة المسيح، وأرجوك أيضاً أن تكتب رسالة إلى الرعاة.

- أي رعاة تعنين؟

- الرعاة... خدمة زوجي ليبان وحراسة القطيع. فلا شك أن عندهم خبراً لو أن زوجي باع قسماً من النعاج التي اشتراها.

- أتراك تنكرين أن زوجك باع قسماً منها وتزعمين أن الرجلين قتلاه للاستيلاء على نعاجه كلها.

- لم أقل هذا يا حضرة وكيل المأمور...وإنما قلت لك رجائي بأن تكتب لهؤلاء الرعاة، فإن زوجي لم يدعهم ينصرفون عنه دون أم يدفع لهم أجورهم وفوقها البقشيش المعتاد.

- معك حق، ومن اللازم أيضا أن نستجوبهم وومن الخير لك يا وليه أن تأتي معي إلى الناحية الأخرى من الجبل لتحضري استجواباً لبوغزا وكوتوي.

أجابته فيكتوريا طائعة:

- هذا هو ما أريده.

- ولم لا ؟ يلزمني أن أذهب معك إلى هناك فإن لي مطلباً أيضا عند إحدى صديقاتي، هي زوجة صاحب الفندق، إذ سأدعوها لتحضر نقل الرفات إلى القرية لدفنها في قبر يليق بها، ثم ينبغي لي كذلك دعوة هذين الرجلين لحضور الجنازة مع زوجتيهما.

- ما معنى هذا ؟ أنا اعتزم استجوابهما، وأنت تريدين دعوتهما للجنازة؟

- ولم لا ؟

نعم سأدعوهما لحضور الجنازة والمأدبة التي أقيمها بعدها، فهما يعتبران عندي من الناس الطيبين المتدينين.

إني لا أحمل لهما ضغينة...فإن المولى سبحانه وتعالى لم يرفع بعد سبابتي لاتهامهما... إني لا آبه بحديث الناس ولا بقول زوجة بوغزا إن الكابوس يركبه في نومه، فيفضفض بكلام علمه عند ربي، أما أنت يا حضرة وكيل المأمور فمن سلطتك استجوابهما.

وأنا.... ماذا يخرج من يدي؟ ماذا يخرج من يدي إلا أن أقيم جنازة تليق به؟

من المؤكد أنني سأدعوهما، ولم لا؟ وسأدعوك أيضاً إذا لم يكن لديك مانع...وهكذا لا تفارقهما نظرتك.

هز السيد أناستاس بالميز رأسه واستغرق في التفكير هذه المرأة الجبلية يصدر عنها الرأي الصائب هذه المرة أيضاً.

لكنه رأى من كرامته ألا يفصح عن حكمه. لا بد من إجراء التحقيق بتؤدة وحكمة متخفية.... فهذه هي أفضل وسيلة للكشف عن الجناة والقبض عليهم.

لن يجد الرجلان مفراً من حضور الجنازة في قرية ساباسا حيث يتم ما يسمى في القانون بالمواجهة بين القاتل والجثة، سيشرح هذه المسألة القانونية لفيكتوريا إنه الآن يدرك مرمى كلامها.

* * *

وتبين له مقدار دهائها ولطف حيلتها بين التكتم والإفصاح لا تعرف فيكتوريا

شيئاً عن الإجراءات القانونية ولا عن المواجهة... لكنها تلقت بسرور عزم الرجل على ترتيب هذه المواجهة.

ومن حسن الحظ، هكذا حدثها قلبها. أن الرجل الضئيل اللابس قلنسوة مدببة، ستتعزز قدمه في خضم من إشاعات ووشايات ودسائس لا تنفك تتكاثر في الوادي المجاور لقرية سوها.

هذا الرجل يعتبر نفسه من السادة أصحاب المقامات ولكن هذا لم يمنعها ولم يمنع السيدة ماريا من الإيقاع به في شبكتيهما... هو والآخرين جميعاً.... من بينهم أيضاً الطبيب... و بوغزا...وكوتوي... وزوجتي الأخيرين. انتهى التحقيق فأسرعت فيكتوريا برمي الغطاء من جديد على الرفات... ثم أشعلت شمعة أخرى، وهي تتنهد وتئن بخفوت دون أن تحيد نظرها لحظة واحدة عن الغرباء الواقفين حولها متشحين بالسواد... منتبهة أشد الانتباه لحديثهم ووشوشتهم.

# الفصل الخامس عشر

وفي قرية سوها قام السيد أناستاس بالميز بإجراء التحقيق بحنكة يعتز بها لا ينكرها عليه أحد، استدعى الرجلين بوصفهما شاهدين والتزم أن يصغي إليهما بصبر وتسامح.

أجاب الرجل المشروم الشفة بلهجة تأكيد ووثوق وإن تكتمت شيئاً من الحنق والغضب:

- ماذا تريدون مني يا حضرة وكيل المأمور؟ أنا لا اعلم شيئاً على الإطلاق.

لم يعارض السيد أناستاس وقال له عاملاً على تهدئته:

- كلامك مصدق فأنت رجل لك مقام ويحترمك الناس، لكن واجبي أن أستجوبك وعليك أن ترد... جاوب... فأنت قد صحبت نيقيفور ليبان من دورنا حتى هنا... سرتما معاً وأكلتما معاً. ألم يحدث ذلك؟

- نعم حدث.

- حلو. إذن قل لي من فضلك في أي مكان افترقتما؟

- أطلب استدعاء إيليا كوتوى لاستجوابه أيضاً فقد كان هناك مثلي.

- ثق أنني سأستجوبه أيضاً... فمن مصلحتي أن أعرف كل التفاصيل كي أضع يدي على المجرم، وهل تظنني أسمح لنفسي أن أخطو إليه أول خطوة إلا إذا كنت واثقاً كل الثقة من صحة اتهامه؟.

إن من طبعي ألا اضطهد أحدا أياً كان، والآن وبعد أن سمعت كلامي قل لي متى افترقتما لكي أمسك بأول الخيط؟

– أي خيط تقصد؟

– أقصد بداية طريق تقودني أو نقطة انطلق منها للبحث عن الأدلة.

– هذه الأدلة تهمك ولا تهمني....أذ لا شأن لي بها... دعني... لا تتعبني هكذا فلي هموم كثيرة...أنا لا أعلم شيئاً عن وفاة هذا الراعي الجبلي، كل الذي أستطيع قوله أننا نحن الاثنين كوتوي وأنا افترقنا عنه حيث بلغنا قمة جبل شنشورا فإنه حين أدرك عندهم كم هو طويل ما بقي حتى يبلغ وادي ملدوفا ثم مدينة برات رأى أن لا همة له في متابعة السير واعتزم أن يتخلى أيضاً عن قطيعه، وقال لنا إني امتلك ما يكفيني من الغنم بجوار مستنقع جيجا، إني أبيع لكما قطيعي إذا أضفتما على الثمن الذي دفعته عند شرائه علاوة بسيطة، كما بعتكما النعاج المائة من قبل، وادفعا لي أيضاً ثمن العلف منذ الشراء إلى اليوم، فخذا القطيع وانصرفا بسلام حلال عليكما كل مكسب منه، أما عن نفسي فإني راجع إلى بيتي.

– هل قال هذا؟

– نعم هذا كلامه بالحرف الواحد.

– وهل دفعتما الثمن له؟

– نعم..

دفعنا له الثمن... فعد النقود وكانت وهذه إمارة من فئة مائة لي وألف لي...

كانت الأرملة جالسة بادية الانصياع، في ركن من الحجرة... أمالت رأسها نحو المدفأة وسندت كوعيها وأحاطت وجهها بكفيها... تمتمت بهدوء دون أن تتحرك..

– نعم.

لا شك أن هذا هو الذي حدث فقد عدّ المشتريان النقود ودفعاها إلى البائع، ولكن الشاهد الآخر الذي كان يراقبهم جميعاً، هل رأى المبلغ ينتقل من يد إلى يد؟

زمجر بوغزا وعقد حاجبيه وقال لها:

– أي شاهد تعنين؟

وأمرها وكيل المأمور قائلاً:

– كفي عن إزعاجنا، ودعيني لعملي فهذا تشويش للتحقيق...

أجابت الأرملة فيكتوريا:

ما قصدت التشويش...بل قصدت أن أبرئ ساحة هذا الرجل الطيب.. فلا جناية له، إني أجزم أن شاهداً حضر عد النقود، هذا الشاهد هو الذي يجب تتبعه وإلقاء القبض عليه.

قال لها وكيل المأمور:

- لم يشهد الصفقة أحد، قلت لك من قبل تدخل بوغزا قائلاً:

- من المحتمل أن يكون هناك من شهد دفع الثمن وقبض.

قالت فيكتوريا :

- وهذا ما أقوله أيضاً، أنا اجزم بوجود هذا الشاهد، وهل ظننتني يا سيد وكيل المأمور أنني قصدت به كوتوي؟

أصابها بشيء من الضيق؟

- إذا كان هناك شاهد فليخبرنا هذا الرجل من هو...هل تعرفه؟

- لا أعرفه ربما يعرفه كوتوي...

قال لها السيد بالميز:

- هو أيضاً لا يعرفه، ومن أين له أن يعرفه، فلنقل إذن أن بعض قطاع الطرق هجموا على زوج هذه المرأة وقتلوه...

وافقته فيكتوريا قائلة :

-من الجائز أن يكون هذا ما حدث....

رد عليها وكيل المأمور :

- إذا كان هذا رأيك فلماذا إصرارك على زج شاهد في الصفقة للتحقيق.

- أنا لا أريد أن أزج به في التحقيق يا حضرة وكيل المأمور، ولكننا نحن أهل الجبل، من عاداتنا أن نعقد صفقاتنا أمام شهود لا بكتابة عقود أمام موظف، فما بالك إذا كان البائع والمشتري من الأصدقاء كما هو حال السيد بوغزا والسيد كوتوى....إنهما من أصدقاء زوجي...

اعلموا أيها السادة أنني ما جئت هنا إلا لأدعوكم لحضور دفن زوج..

هذا أخر واجب معلق برقبتي هنا. وبعد أدائه سأعود إلى بيتي، تاركة للحكومة رجائي أن تتولى هي الكشف عن الجناة...

وإنني لواثقة... أن السيد وكيل المأمور سيوفق في الاهتداء إليهم والقبض عليهم..

فأنا من هذه الناحية مستريحة البال....ولا شك انك يا سيد بوغزا ستقدم له..وكذلك زميلك السيد كوتوى...كل ما لديكما من معلومات..

ستبذلان غاية الجهد في معاونتنا فأنتما من خيرة المزارعين الطيبين...

وآخر ملتمس لي ألا تتخلفوا عن حضور الدفن..

* * *

أخذ وكيل المأمور يضرب حذاءه بعصاه القصيرة وقد نفذ صبره، وسكرتير التحقيق الجالس على مكتبه ينصت ولا يدري ماذا يكتب. نهضت فيكتوريا وزرزرت سترتها من الفرو، في رأيها أن التحقيق لم يعد يهمها...

قالت:

- زوجي رجل طيب، فهو جدير بأن تحضروا دفنه، إكراماً له.

أبدى بوغزا موافقته باستسلام لا باقتناع وقال:

- سنعمل على حضور الدفن إذ أذن لنا السيد وكيل المأمور.

أجابته فيكتوريا:

- أرجو أن تحضرا مع زوجتيكما...غداً سننقل الرفات إلى مثواه الأخير، وسيحضر السيد وكيل المأمور أيضاً..

هتف لها مستغرباً:

- أنا؟

- نعم، لا غرابة في حضورك على الأقل تستريح هناك من متاعب التحقيق، ولعل ذاكرة السيد بوغزا تسعفه هناك أيضاً على نحو أفضل.

نقب كاليسترات بوغزا في حزامه الجلدي واخرج علبة التبغ وفتحها وأخذ يلف لنفسه سيجارة غليظة.

وضعت المرأة يدها على قبضة الباب وانتظر وكيل المأمور انصرافها وهو يغالب ضيقه.

كان يود أن يأمرها هو بالانصراف لكنه صبر لأنه رجل مؤدب...

وأضافت المرأة وهي تنطق كلماتها بوضوح :

- لي كلمة أخيرة، لكني سأبقيها إلى غد، فالوقت متسع، ستعرفونها بعد أن أفرغ.

- من أي شيء تفرغين؟

- من دفن زوجي نيقيفور ليبان، هو الذي قال ما أراد أن يقوله، أرجوك ألا تتخلف عن الحضور يا سيد بوغزا.

أجابها وهو يدخن سيجارته بشراهة ويطلق الدخان من منخريه في دفعات سريعة متتالية :

- طيب....طيب.

وانصرفت فيكتوريا، وكان كوتوي في الحجرة المجاورة مع الخفراء جالسٌ على دكة منعزلاً وهو يدخن سيجارة غليظة كسيجارة بوغزا...

تريثت فيكتوريا أمامه وقالت :

- هل بينكما أيضاً تعاهد على التماثل في حجم السيجارة وفي وقت التدخين؟ السيد بوغزا يلقي الشبهة عليك....

قفز كوتوى غاضباً وقال :

- أهو الذي يفعل هذا؟

- وهل تعرف ماذا يقول عنك....يقول إنك حضرت دفع الثمن وقبضه أما انا فكنت أتحدث عن شاهد آخر...

- أجابها بتخاذل وهو يجلس...

- لا أفهم ما تقولين.

قلت للسيد وكيل المأمور أنني اجزم بوجود شاهد حضر الصفقة وقبض الثمن، إن هذا الشاهد هو الذي قتل زوجي طمعاً في ماله، ولكن ثبت من التحقيق أن الصفقة تمت دون شاهد عليها، فيحق لنا إذن أن نقول ما دامت هذه الصفقة قد تمت من دون شهود، فهذا يجيز الافتراض بأن الثمن دفعه وقبضه عند عقد الصفقة، فإذا لم يكن زوجي قد قبض الثمن فلماذا وقع الاعتداء عليه.

ولو كان لم يقبض الثمن لما وجد داع للعودة إلى بيته لأنه كان سيسير بقطيعه حتى يبلغ به مربضه.

- ما هذه المزاعم الفارغة، ألم اقل لك من قبل أن الثمن دفع كله لزوجك حين توقفنا على قمة الجبل.

- أعرف يا سيد كوتوى، فليس عن هذا حديثي، فلا تغضب.

- كيف تقولين أنك لا تتحدثين عن هذا...إذن ما قصدك؟

- قصدت أن أقول شيئاً...إني أدير أفكاراً في رأسي وأرتبها كما يفعل كل

هؤلاء الناس الذين شغلوا أنفسهم بحكايتنا...أنت عندك الخبر اليقين، فتستطيع أن تتكلم...والميت أيضاً قد أفضى إلينا بخبره... قال لنا كل ما عنده.

إنه قد تكلم. لماذا تحملق في وجهي هكذا؟

الدور في الكلام جاء عليكما الآن...تكلما..

فينتهي الأمر ويتولى السيد وكيل المأمور حفظ التحقيق.

إن لي أملاً كبيراً أن تمد إلي يد العون، ولقد رجوت بوغزا كما أرجوك أيضاً يا سيد إيليا ألا تكون متخلياً عن صديق لكما، ها نحن قد عثرنا عليه، فتعال أنت والسيد بوغزا لتحضرا دفن عظامه في مثواه الأخير...

أنصت لها كوتوى باهتمام وإن ظل مشيحاً عنها نظراته :

- ماذا تقولين؟

- انتظر حضورك وقد وعدني السيد كالسترات بأنه سيأتي أيضاً.

- إذا كان موافقاً فلا مانع عندي أنا أيضاً.

- أشكر لك فضلك، ولا تنسيا أن تأتيا ومعكما زوجتيكما فإننا سنقيم مأدبة المأتم المعتاد ة...

وانصرفت بخطى نشطة وهي تدق الأرض بكعب حذائها..

ذلك أنها وفقاً لعادتها في مثل هذه الظروف. وتكريماً منها لذكرى زوجها الراحل، كانت قد استبدلت بخفها حذاءها الطويل اللامع، واتجهت إلى فندق السيد يورغوفاسيلى من أقرب سبيل، منتفعة بدروب تختصر المسافة تكشفت عنها الثلوج.

ووجدت عند باب الفندق، العربة المستأجرة وهي تتسع لأن تجلس فيها إلى جانب صديقة عزيزة عليها مثل السيدة ماريا زوجة صاحب الفندق.

وكيف لا تكون من أعز صديقاتها وهي تعلم أنها الآن في حجرتها الخاصة تستقبل السيدة جافيتا بعد أن بعثت بفييتشور صبى الفندق ليستدعيها على عجل...

دخلت وخلعت سترتها من الفور وجلست على المقعد وهي تصوب إلى السيدة ماريا نظرة تنبئ عن الرضا، ثم استدارت نحو جافيتا وقالت لها إنها سعيدة جداً برؤيتها إذ لم تكن تتوقع أن تلتقي بها، ومما زاد في سرورها أنها تستطيع أن تروي لها كل ما جرى في بيت العمدة حيث أجرى وكيل المأمور تحقيقه، فكان السيد

كالسترات أول من استجوبه ثم تلاه السيد إيليا...أما عن نفسها فهي غير راضية عن المعاملة التي لقياها من المحقق...سألتها جافيتا وقد بدا عليها القلق :

وماذا طلب منهما ؟ وكيف استجوبهما ؟

وجه إليهما عدداً من الأسئلة، نسيت أن أقول لك إنني قبل أن أدخل بيت العمدة أبصرت بالسيدة زوجة بوغزا وأخته بجواره...

- هل رأيتها ؟ لأي غرض ذهبت هناك؟

- لا أدري....

راقبتها لأنها تريثت قليلاً أمام الباب قبل أن أدخل..

كما تأتى لي أن أسمع حديثها مع نساء أخريات وأستطيع أن أوكد لك شيئاً واحداً وهو أنني تمنيت حينذاك ألا تأتي سيرتي على لسان من يزعمن أنهن صديقاتي...

- إذن كانت تغتابني..

- إنني لواثقة من ذلك...وأنا لا أستطيع أن أجيبك لأنني لا أحب نقل الكلام....وأكره الوقيعة..كل الذي استطيع قوله هو أنني لا أؤمن بأن كل النساء نحيلات أو سمينات أو دميمات...لا أؤمن بأن امرأة تكون يوماً عشيقة موثق العقود ويوماً عشيقة شيخ الخفر، كل هذه الأقاويل مردها إلى الغيرة.

لكن بقي شيء واحد لم أستطع فهمه وهو هذا التطوع من الباب للطاقة لاتهام الأبرياء....حمانا الله..

إنني أشقى امرأة في الأرض، ولا حد لعذابي، أصبحت أرملة...تخرب بيتي مع ذلك لا أجرؤ على إلقاء الشبهة على إنسان ما، وبالأخص على إنسان أفضى باستقامته، له مسكن يتمسك به ويعتز به. وزوجة يحبها ولا يبخل عليها لكي تكون أنيقة....

لا أجسر أن أنطق بكلمة واحدة يشتم منها أن لي شبهة في إنسان....لذلك..فإني رجوت السيد إيليا كوتوى أن يأتي غداً إلى القرية ساباسا على الناحية الأخرى من الجبل، لحضور دفن صديق قديم له.

جافيتا لها قامة طويلة رشيقة، ووجه جميل لا تشويه شائبة و عيناها واسعتان، لوزيتان سوداوان لامعتان، يعلوهما حاجبان مقوسان، ترتدي سروالاً مبرقشاً بالترتر وصديرية أنيقة وحذاء بكعب عال....

تورد خداها فزاد جمالاً وهي تنصت لكلام فيكتوريا وقد خلطت فيه بين الحفاوة والهجوم ابتسمت بمرارة حين تصورت لؤم هذه الصديقة...التي اغتابتها ووهم لسانها أن ينطلق بكل ألفاظ السب في حق نساء رزئت بهن الأرض ونكب في الوقت ذاته نجع شجرة التفاح..

إنها اليوم تعلن كما أعلنت من قبل مراراً، أن الغيبة تحت قدمك، إنني أشقى امرأة، ومع ذلك لا أتهم أحداً...إني أنتظر من الله أمره بإحقاق الحق...حين تشاء إرادته....

أجابتها جافيتا بصوت مرتفع حاد وقد ظهرت القسوة في نظراتها :

- اليوم قبل غد، حتى ينزل العقاب سريعاً بصاحب اليد التي ضربت، وحتى ينقلب الضحك إلى بكاء..

قالت لها فيكتوريا وهي تطمئنها :

أعلم كل هذا وأعلن أن السيد إيليا سيجيب بكل صراحة على أسئلة وكيل المأمور، لا يخامر ني أقل شك من هذه الناحية.

إنني أضع أقوال الناس دبر أذني، واحتفظي بحكمي على بوغزا فإني إلى اليوم لم أجد قرينة على الجريمة إلا ما أمدني به الميت رغم صمته...

ولكنك تعلمين يا ست فيكتوريا...أنه من المستطاع العثور على قرائن أخرى..

نعم، اعلم ذلك، أعلم ذلك.

كلا الحق أنك لا تعلمين شيئاً، أتظنين أني ألقى الكلام على عواهنه.أو أني اتكلم لمجرد الكلام، إنني لم أقل ما قلت إلا لأنني أعاني منذ زمن من عذاب شديد، لم أعد أعرف الفرح ولا الراحة، وكل هذا بسبب امرأة سافلة.

أصدقك يا عزيزتي

تدخلت السيدة ماريا وقالت بلهجة تعمدت ترقيقها :

طولي بالك، أنت ستبقين من أنت...لا أجد من يجرؤ على المساس بك، كما لا يستطيع إنسان أن يسلبك نعمة وهبها الله لك.

هدأت جافيتا وأخذت تضحك، فزاد جمالها تألقاً، ترقبها المرأتان بطرف من العين، وتتبادلان نظرات حادة، وحين أفرغت الاثنتان كل ما في جعبة الزائرة من كلام سمحتا لها بالانصراف وخيم الحزن على عيني فيكتوريا، إنها بين جدران

الحجرة الصغيرة المكسوة بالسجاجيد والستر المزخرفة قد مدت نظرها نحو الشرق حيث الأيقونة، ورسمت علامة الصليب ثلاث مرات. وركعت أمام تصاوير القديسين ثم استدارت فتلاقت نظرتها ونظرة مضيفتها وقد ضاقت حدقة عينيها من شدة اللهفة على سماع الأخبار، فأسرعت فيكتوريا تروي لها مسار التحقيق الذي تولاه وكيل المأمور، ولم تكتف بذلك بل روت لها أيضاً كيف كان لافتاً للنظر بذل بوغزا كل الجهد للتهرب من التهمة القاضية التي تشير بها إليه قوة عليا تفوق قوة البشر.

وقالت فيكتوريا لمضيفتها بمرارة :

- إنه يحاول الإكثار بكل حيلة، فلا يعلم هذا المسكين أن لا مهرب لإنسان من حكم القدر المسطر على جبينه.

إنني الآن أعلم كل ما يخفيه هذا الرجل، قرأت ضميره كأنه كتاب مفتوح، ويبقى لصاحبنا السيد الضئيل الجسم، اللابس للقلنسوة المدببة من فرو الاستراخان أن يلعب، يوماً أو يومين لعبة القط والفار.

إنه أيضاً أدرك الحقيقة، فهو ليس أعور العين أو ناقص العقل، غير أني رجوته أن يطيل صبره قليلاً، إذ من الأنسب أولاً أن يطبق على المتهم بمشيئة من الله أدلة واضحة لا يرقى إليها الشك، أمنيتي حينئذ أن يتخبط في قبضة اليأس كما تخبط زوجي وهو يهوي بين شعاب الجبل...

كم أتمنى أن أفعل بالمجرم ما فعله بزوجي، أن أضربه ببلطة، أخت البلطة التي ضرب بها زوجي وأن أشج رأسه على النحو الذي شج به رأس زوجي وإذن لاسترحت وهدأت نفسي ولكن هيهات أن أفوز بذلك، ولا أريد أن أورط ابني في هذه القضية فهو ما يزال شاباً غراً، لهذا كانت أمنيتي أن أضربه أنا...أن أمزق جسده لتنطفئ أخيراً هذه النار التي تحرق قلبي منذ زمن، ذلك أنني يا ست ماريا لم أكن أعيش إلا من اجل زوجي. وكنت سعيدة في جواره.....

أما أيامي من بعده فهي معدودة ومحرومة من الإشراق ولكم سألت نفسي مراراً من قبل كيف واتتني القوة على تحمل كل هذا وعلى الوفاء بالواجب الملقى على عاتقي، وكان ينبغي حين عثرت على زوجي أن أنهد على الأرض، وأبكي عليهبكاء يغتال كل همي عليه.

لكني أعلم من هو الذي وهبني ما كنت في حاجة إليه من النقود والشجاعة. مضيت في سبيلي وسأمضي فيه وطالما بقي في صدري نفس يتردد، لقد علوت الجبل

من الناحيتين. وذهبت إلى بوركا مراراً.ونثرت نقودي يميناً ويسارا ً، وأقلقت القساوسة مع الكثير من الناس، بل إنني تكلمت في سلك من الحديد يمتد حتى مدينة بياترا، كنت في بيت العمدة في باركا، وكان مأمور المركز في بياترا على الطرف الأخر من السلك....

استأذنته أن أدفن في المقبرة رفات زوجي التي عثرت عليها في مغارة بالجبل، حتى لا تبقى لا تبقى هذه الرفات عرضة للذئاب وحتى أجد لها قبراً في أرض يعلوها الصليب

أترين كيف رضيت لنفسي أن أرتكب هذا الإثم، بأن أتكلم في سلك من الحديد، وقد هزأ بى الناس حينما رأوا رجلي وحين سمعت صوتاً يأتيني من بياترا وأنا في بوركا، لقد ارتكبت آثاماً أخرى ولكني عما قريب سأطوي أخر صفحاتها....

* * *

أسندت فيكتوريا رأسها إلى كتف زوجة صاحب الفندق وانخرطت في البكاء والنشيج ثم جففت دموعها بعزم..

ضغطت على كل عين بطرف كم ثم تهيأت للانصراف..

امتلأت العربات بخليط غير متجانس من أهل سوها، تتشابك فيه عواطف وصداقات ودسائس وشطحات ومخاوف متكتمة وآمال وأحلام، واجتازوا قمة جبل ستيفشورا ليبلغوا المكان الذي تضئ فيه شمعة بجانب رفات ميت ينتظر أن يهدأ كثيراً في قبره وأن تقام له الشعائر الدينية.

ولم يفت بالسيد توما أن يستحضر عربة نقل تجرها بقرتان جسيمتان، وأن يزينها بفروع شجرة الصنوبر وأن يضع فوقها التابوت الفارغ، ثم جلب معه أيضاً، -بناء على أمر فيكتوريا - ثلاثة قساوسة، وثلاثة رجال ينفخون في أبواق يتنادى بها أهل الجبل، وأربع ندابات تولى السيد توما اختيارهن، اثنتان من باركا واثنتان من ساباسا...ليس لهن مثيل في القدرة على رفع الصوت بالنواح وعلى التهتهة وقذف الدموع...

ووضع السيد توما صدقة الميت في طعام وشراب في عربة مرتلى الأناشيد، أما عربة القساوسة العتيقة فقد كانت مدهونة بطلاء أخضر....

واصطف رجال يحملون الأعلام والصلبان وقام رجال آخرون بإنزال التابوت إلى المغارة، حيث كانت فيكتوريا موجودة بها.

شمرت عن ساعديها وانفردت وحدها تجمع الرفات بخشوع ووضعتها بيدها في التابوت بعد أن رشتها بالنبيذ. ورفع رجال هذا الحمل الخفيف على أكتافهم ثم وضعوا التابوت فوق العربة وغطوه بسجادة مخططة بالأحمر والأسود ثم صاحوا :

- كل شيء تمام؟

فقام سائق العربة ينخس البقرتين وأشار بيده إلى الواقفين أمامه من حملة الأعلام والصلبان لبدء المسير....

وفي أول وقفة للركب نزل القساوسة عن عربتهم لتلاوة الأدعية وترتيل الأناشيد..

أما فيكتوريا فلم تركب..ظلت تجري من أول الركب إلى آخره ذهاباً وإياباً كي تشرف على حسن انتظامه وتطمئن على مطابقته للتقاليد...لا تساعدها إلا امرأة عجوز تحمل غلالات من قماش تفرشها تحت أقدام السائرين في المركب عند كل وقفة...طبقا للتقاليد...

وكان الموكب إذا عاود سيره قام رجال الجبل بالنفخ في الأبواق، كأنهم يبعثون بنداء إلى مكان بعيد...فإذا فرغوا بدأت الندابات الأجيرات في النوح والبكاء بصوت مرتفع، وكانت فيكتوريا مفتحة العينين والأذنين، هذا يوم لا يشق على أحد كما يشق عليها ، وعذابها فيه أصدق وأشد من عذابات الندابات المصطنعة، ومع ذلك كانت راضية النفس مستريحة الضمير.

حضر رجال الحكومة وكذلك أهل نجع شجرتي التفاح، وسار بوغزا و كوتوى كل منهما منفرداً على جانب من الطريق، لم يتبادلا كلمة ولا نظرة، ومع ذلك فحين حمل الرجال التابوت من المغارة. ووضعوه فوق العربة مكشوفاً، مد كالسترات بوغزا عنقه ليلقى من فوق أكتاف الواقفين حوله نظرة على رفات الميت.

وخيل إلى فيكتوريا أنه لم يستطع مقاومة إغراء يتملكه، فهذا الرجل لم ينجح ولو لحظة واحدة في ضبط أعصابه. هو كالمحموم، ليس له إلا هم واحد، هوأ ن يشبع نهم عينيه...النظر.. وحبذا عن قرب شديد إلى جمجمة الميت ليرى كيف حالها، ذلك يتكشف إنه إذا لم يكتشف للعيون أثر ضربة عليها بأداة حديدية قاطعة فقد يظن الرأي أن نيقيفور ليبان قد لقي مصرعه لأنه كان مخموراً ومسافراً بالليل فهوى من على الجبل هو وجوداه...إن كان هناك قاتل فهو الخمر....

وسارت زوجتا الرجلين كل منهما منفردة أيضاً على جانب من الطريق...

تتبادلان بين الحين والحين نظرات ملؤها الحقد والكراهية...ترقبهما فيكتوريا وتصدر عليهما حكمها في سرها..

لم تدخر جهداً لكي يتم للموكب انتظامه وفقا للتقاليد، ومع ذلك استطاعت أن تنتزع نفسها لحظة من مشاغلها لتقترب من السيدة ماريا وتهمس لها في عجلة ببضع كلمات...

أما ابنها غيورغيتا...لم يكن حاضراً....

كانت أمه حين تجاوزت قمة ستيفشورا قد أمرته أن يركب جواده وان يسبق الركب لينزل إلى قرية ساباسا مصطحباً الكلب وحاملاً ما تبقى من متعلقات أبيه...

***

وتابع الموكب سيره إلى أن تجلى لعيون الرقباء الإجراء الواقفين على برج الكنيسة، فبدأت النواقيس تدق.

وخرج سكان القرية أولاً إلى عتبات بيوتهم. وقد ظللوا عيونهم بالأكف...ثم خرجوا جماعة متجهين إلى المقبرة...

وأقيم في الكنيسة قداس جميل، قلما يشاهد له مثيل في ساباسا...

كانت رفات نيقيفور ليبان في التابوت المكشوف بادية للعيون، تسقط عليها أشعة الشمس مائلة، ورتل القساوسة دعاء للمولى أن ينزل رحمته برداً وسلاماً على عبده..

ثم رتلوا بعد ذلك أناشيد صلاة الميت واقتربت فيكتوريا من السيدة ماريا، والتمست منها بإلحاح أن تتولى الإشراف على المراحل الأخيرة من الطقوس الدينية، وأوصتها بالأخص ألا تنسى طلب النبيذ ورشه على التابوت عند نزوله إلى القبر، وكذلك طلب دجاجة سوداء لتقذفها وراءه..وفقاً للتقاليد...وكانت المرأة العجوز التي استأجرتها فيكتوريا لمساعدتها في ذلك اليوم مكلفة بحمل هذه الأشياء في كيس تبقيه معها...فما على السيدة ماريا إلا أن تطلبها منها عند اللزوم...

كررت السيدة فيكتوريا ملتمسة، إنها خدمة جليلة تلك التي تنتظرها من السيدة ماريا، فإنها تريد ألا يفوتها أن تكون بجانب زوجها لحظة الفراق...إنها حينئذ تراه آخر مرة...أما من بعد...فلا لقاء إلا يوم النشور بين يدي الله..

اقتربت فيكتوريا من التابوت ثم وضعت يدها على قمة رأسها وجذبت شالها الأسود إلى رقبتها ثم مسحت الجبهة بأصابع متخشبة كأنها مخالب طير كاسر..كأنما تريد أن تقتلع عينيها من محجريها وصرخت :

يا غيورغيتا إلى أين؟ ولمن تركتني؟

وارتجفت للصرخة قلوب الحاضرين ثم تهاوت فيكتوريا وجثت على ركبتيها وأسندت جبينها إلى حافة التابوت.

أسرعت السيدة ماريا إليها وهي تشق طريقها وتزيح الواقفين يمنة ويسرة، انحنت على فيكتوريا وأمسكتها من الكتفين وقادتها إلى مكان تعتزل فيه...

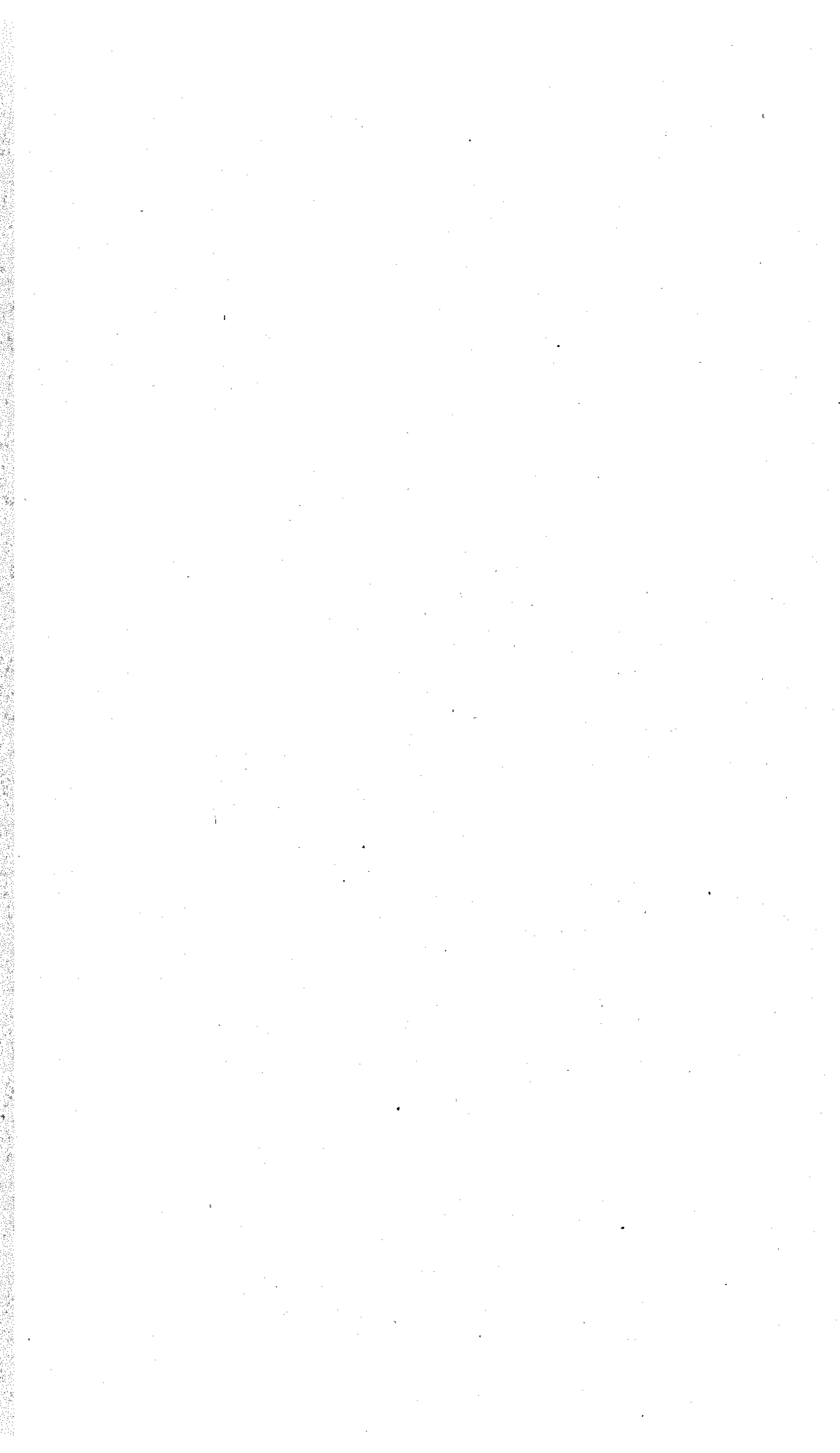
استسلمت لها فيكتوريا ثم إذا بها تتملص بخفة وتنطلق إلى الرفات وتركع بجوارها ثم هتفت :

فليتقدم ابني أيضاً..

كان ابنها بجوارها فاقترب وهو ويستر وجه بذراعه اليمنى مصغياً لا يدري ماذا يفعل.

إنه خجل من أن يبك كالنساء أمام الرجال وعمدت السيدة ماريا إلى رفع فيكتوريا مرة أخرى عن الأرض، وأسرع رجال بوضع الغطاء على التابوت ودقوا المسامير على أطرافه، ثم سارعوا بإنزاله إلى القبر فوصل للأسماع صوت مكتوم ينبئ عن انهيار كتل من الثرى المبتل فوقه..

وانصرفت فيكتوريا وهي أهدأ نفساً بعد أن رمت هي أيضاً بحفنة من التراب على التابوت الذي ضم رفات زوجها.....



# الفصل الثامن عشر

وقفت فيكتوريا عند الباب الرئيسي للمقبرة يحف بها السيد توما وزوجته السيدة ماريا ولمعاونتها ولتقديم لكل من حضر الدفن عند خروجه كأس من النبيذ وربع رغيف. رحمة على الميت. فيتمتم لا فرق بين الرجل والمرأة بدعاء تقتضيه الطقوس :

- اغفر له يا رب كل خطاياه.

ثم يشرب الكأس جرعة واحدة، ويقضم من الرغيف لقمة يمضغها لتخفف من هذه اللهلبة اللذيذة التي خلفها النبيذ في فمه، وتعالت ضحكات صبية يتدافعون في لعب بين المقابر..

ولما أتم القساوسة توزيع الطعام والشراب والأقراص المصنوعة من دقيق القمح - رحمة على الميت- خلعوا حلل القداس ولكن بقي عليهم أداء جانب يسير من الطقوس، فسارعت إليهم فيكتوريا لتدعوهم قبل انصرافهم لحضور مأدبة المأتم التي ستقيمها في فندق السيد توما، وقالت لهم إنهم سيقابلون فيها رجال الحكومة والسيد وكيل المأمور وكذلك أصحاب المزارع والقطعان من سكان الجانب الأخر من الجبل..

وحرصت زوجة السيد توما على أن يتم كل شيء بأحسن ترتيب ممكن ولم يكن من السهل اختيار أنواع الطعام إذ كان الوقت وقت الصوم الكبير. أما عن الشراب فأمره ميسور...إنه مبذول بوفرة ومن أجود الأصناف...

جلسوا إلى المائدة مع الغروب والميت على مرمى حجر مستريح أخيراً في قبره، أما الأحياء فقد أخذوا يأكلون من أطايب الأكل المسموح به في الصيام الكبير. البليلة و الكرنب الملقى في زيت بذر الكتان، واحتل القساوسة والسيد وكيل المأمور رأس المائدة في غيابة الحجرة، أما القادمان من نجع شجرتي التفاح فقد جلسا دونهم واتخذت فيكتوريا مقعدها بجانبهما...وشرب كل من الحاضرين عدة كؤوس ترحما ًعلى الميت ثم أخذ الجميع في تبادل الأحاديث عن شؤون الدنيا..قالت فيكتوريا لجارها :

– أراك يا سيد كالسترات لا تأكل بشهية كبيرة.

– لماذا؟ شهيتي مفتوحة والحمد الله...

– ولكني لم أراك تشرب.. أفليس من الواجب أن تشرب ترحماً على صديق؟

– نعم يا ولية. إنني أشرب غير أني عامل حساب طول الطريق للعودة إلى بيوتنا... وينبغي أن ننصرف عند قدوم الليل...

– كيف تقول ذلك، أفأنت تخشى السير بالليل وهاأنذا أراك متسلحاً ببلطتك...

– صدقت.. إنني أحملها...

– ما أجملها من بلطة، اشرب كأساً، رحمة على الميت، ولك أن تشرب كؤوساً أخرى إن شئت، أرني البلطة فإني أود أن أتأملها، وابني غيورغيتا له بلطة مماثلة:

ضحك في وجهها وهو يتكتم حنقه عليها وازدراءه لها وناولها البلطة فنادت ابنها الواقف وراءها.

– انظر يا غيورغيتا، إنها تشبه بلطتك، بفارق واحد، هو أن بلطتك خرجت لتوها من يد الحداد بعد احمرارها في كوره، وطرقها على سندانه، أما هذه البلطة، فهي أشد عراقة وأكثر تجربة..

ودون أن تكف عن الضحك ناولت البلطة إلى ابنها، مد بوغزا يده إليها لكنه سارع بإرخائها إذ كان الشاب مستغرقاً في تفحص سن البلطة الحاد المقوس وصفحتيها المنبسطتين..

واستطردت فيكتوريا تقول بلهجة تنم عن احتجاج:

– دعه إذن يتأمل البلطة ويتفحصها –يا سيد كاليسترات واشرب أنت كأساً أخرى من النبيذ الطيب، فأنت تعلم أنه كان الشراب المفضل لزوجي نيقيفور ليبان..

- وفجأة.. تبدل صوتها وواجهت الضيوف وقالت:
- سأقول لك يا سيد كاليسترات كيف أتصور ما حدث لزوجي.
كان مسافراً بالليل وحده فوق جواده، صاعداً إلى قمة سنتشوار، لاشك أنه كان يفكر في قطيعه، ولعله كان يفكر أيضاً فيّ أنا، طبعاً إنني لم أكن معه هناك، لكنني واثقة أن فكره مال نحوي، فهذا هوالذي قاله لي بنفسه وأنا ساهرة بجواره في المغارة....
كرر يوغزا ضحكته الخبيثة وسألها:
- وماذا قال لك؟
أجابته وهي تحدق في عينيه وتبتسم:
- روى لي كل ما حدث...
- وتطلبين مني أن أصدق هذا الكلام.. مستحيل...
- نعم، ينبغي أن تصدقه، فلعلك تذكر يا سيد كاليسترات، كان له كلب يصاحبه.
- نعم، أذكر ذلك، كلب اسمه سبع الليل، وأشهد أنه كلب ذكي وشجاع.
- أحسنت يا سيد كاليسترات، ولكن اعلم شيئاً آخر، أعلم أن هذا الكلب دافع عن سيده، عن زوجي، حين رآه يواجه خطراً يهدده بالموت.
- جائز
- هل تظن أن الكلب مات أيضاً؟
- لا أظن أنه مات.. الأغلب أنه شرد واختفى..
- وهذا ما كنت أقوله لنفسي أيضاً، فإذا كان قد اختفى فمن الجائز أن نعثر عليه.
- بعد مشقة لا يستهان بها.
- ليست المشقة بهذا الحد يا سيد كاليسترات.
إذا اقتضت مشيئة الله أن نعثر على الكلب، اشرب هذه الكأس أيضاً، أتريد إذن أن أروي لك ما حدث وكيف حدث؟
خيم الصمت على الضيوف واستيقظ انتباه وكيل المأمور فأسند مرفقيه إلى المائدة وتسمع إلى حديثها بأذنه اليسرى فهي أفضل من اليمنى وأخذ يراقب فيكتوريا وجارها بنظرة من طرف عينيه، ولما أحس بوغزا أن الأبصار ترمقه... خرج من هدوئه، وقال بهجة فيها استفزاز:

- أنت تعرفين ماحدث.. ربما.. أما أنا فلا أعرف شيئاً، وإذا كنت تعرفين فهيا تكلمي..

- نعم سأتكلم يا سيد كاليسترات، وسأقول ما حدث كيف حدث.

كان زوجي يفكر في قطيعه وربما يفكر فيّ أنا أيضاً، وهو صاعد فوق جواده على الطريق المؤدي إلى صليب الطليان.

وهنا توقفت فيكتوريا فهتف لها وكيل المأمور وهو يبتسم:

- ماذا حدث. استمري.. لماذا توقف كلامك؟

- قد يزعم بعض الناس أن زوجي لم يكن صاعداً إلى صليب الطليان بل نازلاً عنه، ولكني على يقين بأنه كان صاعداً لا نازلاً، وأنه لم يكن معه إلا كلبه ورجلان، لكن أحدهما ثار جواده فجرى به إلى قمة الجبل فوقف عندها يراقب الطريق، وبقي الثاني يسير على قدميه وراء زوجي وهو يقود جواده من لجامه...

لم يكن الليل قد هبط إنما مالت الشمس إلى الغروب، وفي ظن بعض الناس أن مثل هذه الجريمة لا تقع إلا بالليل، أما أنا فأعلم أن هذه الجريمة قد وقعت بالنهار، قبيل الغروب، وكان بدء التنفيذ متوقفاً على إشارة تصدر من الرجل الواقف على القمة تنبئ أن المكان خال وأن لاداعي للاحتراس، فلما صدرت هذه الإشارة أطلق الرجل السائر جواده وترك لجامه على رقبته وتناول البلطة المعلقة على جانبه الأيسر وتقدم وهو حذر بخطى لا يسمع لها وقع لأنه يرتدي خف الرعاة حتى بلغ ليبان وهوى عليه من ورائه بضربة واحدة من البلطة، لكنه أودعها كل قوته، كأنما أراد بهذه الضربة أن يشج جذع شجرة غليظة.. ضرب زوجي الهواء بذراعيه دون أن تصدر منه صرخة واحدة.. سقط إلى الأمام واندست أنفه في عرف جواده.

رفع الرجل بلطته من جديد وضرب بها على.. الجواد أيضاً... ثم هوى وراكبه إلى مغارة تحت الجبل، في تلك اللحظة هجم الكلب على الرجل فضربه بقدمه تحت خطمه...

وكان مشهداً تردى الجواد فزعاً، فحين دفع به سقط وتدحرج حتى وصل إلى بطن المغارة، وانحدر الكلب عن الطريق وهو ينبح بقوة.

ولكنه حين رأى الرجل يهم أن يضربه مرة أخرى بقدمه ترك جسده ينزلق على سفح الجبل وأخذ يزحف حتى بلغ المكان الذي ثوى فيه سيده.

هكذا انتهى كل شيء.. فركب الرجل الذي كان يسير وراء زوجي جواده وأسرع لكي يلتحق بزميله الواقف رقيباً على قمة الجبل ثم مضيا معاً...

لم يرهما حينئذ أحد..

وإلى اليوم لا يعرفهما أحد.

وصمتت فيكتوريا وصوبت نظرة وهي تزم شفتيها إلى السيدة ماريا.

غلبت الدهشة على زوجة صاحب الفندق وعلى جمعع الضيوف، وارتسمت على ملامحهم علامات الترقب.

هناك شكوك ساورت الجميع، فجرى همساً وتبادل الآراء والظنون.. أدركوا مغزى كلام فيكتوريا، تماماً أو على وجه التقريب، ولكن بقي شيء واحد لم يفهموه، هذه المرأة الغريبة القادمة من بعيد، لماذا تضني نفسها بحكايات من وحي خيالها، لا تضمر إلا الشر، إذا كانت لديها ريبة فلتفصح بها، إذا كان لها اتهام لأحد فلتقل لنا من هو..

مثل هذه الأفكار جالت بالأخص في رأس كاليسترات بوغزا وقد تملكه غضب شديد.

لقد أردك منذ بادئ الأمر حين رأى فيكتوريا لأول مرة أنها تعده غريمها، ومع ذلك فقد صبر رافضاً الاعتقاد بأن الكشف عن جريمة لم يتخلف عنها أقل أثر.. أمر ممكن.

كان يقول في سره:

- ستناضل هذه المرأة، ولكن بلا طائل، ثم تعود خائبة لبيتها.

لكنها لم تعد... بل تعمدت أن تطلق إشاعات مؤذية وتنسج خطوط مؤامرات تشبه ألاعيب النساء، وتتحدث إلى إيليا بكلام معسول ولكنه مسموم، وتطلق بتلميحاتها الخبيثة كل ما يضمره الناس له من ضغينة...

تركها تتكلم وهل كان يستطيع منعها، حقاً إنها امرأة مسكينة، ما هي إلا أرملة تستحق الرثاء، خرجت تبحث عن زوجها المفقود، لكن من المدهش أنها استطاعت أن تعثر على زوجها في مغارة بالجبل منعزلة تمام الانعزال، ومن العسير الوصول إليها، بل والأدهش من ذلك كله هذه الحكايات التي تخترعها، وآخر المتمة روايتها الآن لما حدث لزوجها القتيل، أحمق ومغفل من ظن أنها كانت حاضرة هناك... بل وأشد حمقاً منه من أعتقد أن الميت قد كلمها كما نقول، فهذه أمور لم يعد أحد يصدقها، ومع ذلك فإن المرأة التي تلاحقه استطاعت أن تروي الحادث كما قد وقع بالتفصيل.

أنه يتذكر الآن أقوال إيليا وتأكيدات جافيتا قبل أن يسمم الحقد قلبها، بأن للسحر مفعولاً أكيد مجرباً... فهل يؤمن الآن هو أيضاً بالسحر، بمزايا تنبئ عن الماضي والمستقبل، لا يليق برجل عاقل أن يجاري النساء بمثل هذه الاعتقاد.. ولكن ماذا يقول:

إن الخطر الذي يتعرض له يصوره المثل القائل:

- لا دخان بلا نار.

ينبغي في نهاية الأمر أن تفصح هذه المرأة عما تعلمه وتقول أيضاً كيف علمته، لعل زوجي إيليا كوتري هي التي أفشت لها سراً..... إذن فيالها من مصيبة أن تكون له معارف نكد مثل إيليا وزوجته.

ولكن إيليا كوتري لم يبصر بعينيه ما حدث، بكل التفاصيل، بل هو نفسه لا يدرك تمام الإدراك كيف حدث الذي حدث:

إنه لم يدرك إلا الآن كيف وقع الحادث.

* * *

اضطربت نفسه لهذه الأفكار، وأحس النظرات مثبتة عليه.

شرب في جرعة واحدة كأساً كبيرة من النبيذ ثم تلاها بثانية ثم إذ به من غير أن يدري لماذا، لم يتخذ قراراً رهيباً، المرأة امرأة والرجل رجل، إنه عاش طول عمره وقد صدق عليه وصفه بأنه رجل تهابه الناس..

مد يده وهو لا يزال ضابطاً لأعصابه وطلب من غيروغيتا أن يعيد إليه البلطة فقاطعته فيكتوريا قائلة:

- اصبر قليلاً حتى نقوم عن المائدة... احتراماً للتقاليد.

ثم أضافت وهي تضحك...

- ماذا بك يا غيورغيتا حتى تنظر إلى البلطة هكذا، هل بدت لك كتابة عليها؟

زمجر بوغزا غاضباً:

- اسمعي يا وليه، لماذا تجعليني هدفاً لسهامك إن كان لك اتهام لي فأفصحي عنه.

- لادعي للغضب يا سيذ كاليسترات.. إني لم أقل شيئاً غير سؤالي لابني هل رأى على البلطة كتابة أم لا؟

وصرخ بوغزا:

- كفى.. كفى.

وكان قد ضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة وانتصب واقفاً.

وإذا بصوته يبح فجأة لكنه استطرد ليقول:

- كفى، كل عمل على الأرض جزاءه مرة واحدة، وحتى ولو كنت أنا المجرم فأنا أقبل العقاب الذي يرضاه لي من في يده سلطة الحكم.

- لسن أنا المجرم... فماذا تبتغين يا ولية؟

أجابت فيكتوريا وقد دهشت كل الدهشة لهذا السؤال المفاجئ.

- أنا لا أبتغي منك شيئاً.

زاد غضب كاليسترات وبحركة عنيفة من ظهر كفه بعثر الأقداح والأطباق فوق المائدة وصرخ:

- كيف تقولين أنك لا تبتغين شيئاً، ألمثلي تجسرين على توجيه هذا الكلام يا بهيمة.. إنك لا تستحين مني كأنك كنت شريكة فراشي...

ثار حنقها فصاحت لابنها:

- يا غيورغيتا:

أظن أن البلطة مكتوب عليها كلمة واحدة هي دم.... وهذا الرجل الواقف أمامك هو قاتل أبيك..

تحول بوغزا كاليسترات عن مكانه وهجم على الشاب ليسترد بلطته.

وأقبل كوتري يسد عليه الطريق ويحتجزه ويضمه بقوة بين ذراعيه، ولكن بوغزا المتين الجسم كان يتفجر بغضب لا سبيل لمقاومته، هوى بقبضة يده على وجه كوتري وأوقعه على الأرض، وفك التزاحم من حوله بلكزات وضربات عنيفة من كوعيه ثم اندفع نحو الباب المفتوح وقد أحنى رأسه كأنه ثور مهاجم.

جرت فيكتوريا وراءه وكأن ذراعيها جناحان، وبسرعة البرق وصلت إلى الباب وصرخت:

- يا غيورغيتا، أطلق الكلب.

وكان الشاب قد رتب من قبل خطة لإطلاق الكلب حين تأمره أمه، ومع ذلك لم يستطع فك السلسلة التي تربط الكلب إلى خنه في المخزن.

هجم بوغزا على الكلب من جنب حين أبصره في ضوء الغسق فانطلق من

الكلب نباح مخيف، وأخذ يشد السلسلة وهو يزمجر بحشرجة ويكاد يختنق، ثم عاد يلح بالشد على السلسلة حتى قطعها واندفع.

وكاد يقع على بوغزا لولا أنه تفاداه بسرعة، وقفز على البلطة فانطلقت من الأم صرخة أخرى فتدفقت في جسد ابنها قوة أشد مضاء وشرفاً من قوة القاتل.

صوب ابنها غيورغيتا إلى بوغزا ضربة عنيفة من كتفه ودفعه عنه ثم هوى بالبلطة على رأسه.

ترنح بوغزا وهم الكلب على حلقه وأنشب فيه أنيابه وولغ في دمه وهو يزمجر...

* * *

اندفع الضيوف يحجزون ما بين الاثنين، وصرخ وكيل المأمور إلى رجل بجانبه أن يسرع باستدعاء الخفراء الذين كانوا يتناولون طعامهم على مائدة أعدت لهم وفقاً لمكانتهم، في مخزن ملحق بفناء الفندق..

فجاء الخفراء يجرون وسلم كوتري نفسه إليهم بلا معارضة، ومضت كل من الزوجتين تبكي، وتلعن المرأة الجبلية، وأبعد الضيوف الكلب، عن فريسته بضربة بعصا مشقوقة وبإلقاء الماء عليه وبطرح قطعة من القماش الغليظ عليه لتلفه فيجذبونها وهو بداخلها.. ثم رفعوا بوغزا على الأذرع وحملوه إلى الشرفة.

* * *

كان الليل قد هبط وقام أحد الضيوف بوضع مصباح على حافة النافذة وطلبت السيدة ماريا أن يؤتى لها بماء فحملته فيكتوريا في إبريق الخشب وأخذت الاثنتان ترشان الماء على الرجل الجريح.

وكان بوغزا يلهث ويكاد يختنق، ثم هدأت أنفاسه قليلاً، قليلاً وصوب إلى المجتمعين حوله نظرة متخاذلة.

سألته بنت الجبل بصون في نشوة:

- أبقي لك مطلب؟

فهمت من إغلاقه لجفنيه إنه يقول لها نهم.

فسألته:

- وما هو طلبك؟

- أريد قسيساً لأعترف بين يديه.

* * *

ساد الصمت في الحجرة وتقدم القس الأكرش وهو يتلفظ أنفاسه من شدة البهر، وكشف الرجال عن رؤوسهم وارتفعت أصوات الخفراء بجانب المخزن وهم يوجهون إلى كوتري أسئلة عديدة، فطلب منهم الواقفون حول بوغزا أن ينقطعوا عن الكلام، فالتزموا الصمت وتقدموا على أطراف أقدامهم حتى التحقوا بالواقفين وقد اقتادوا معهم كوتري وكان يقول في تلعثم:

– هل ستعذبونني؟ هل ستقتلونني؟ إنني مستعد عن طيب خاطر أن أقول الحقيقة كلها.. اعلموا أن الحادث وقع كما وصفته المرأة الجبلية الأرملة بلا زيادة أو نقصان.

أشار إليهم الواقفون مرة أخرى بالتزام الصمت، وبدأ الرجل المتين الجسم الراقد على الشرفة في الاعتراف وقال هو يلهث من جديد:

– تحدثني نفسي يا أبتي أنني سأموت، من أجل هذا أود الاعتراف.

هنا اعلموا أنني أنا الذي ضرب نيقيفور ليبان ودفعته إلى المغارة من فوق الجبل كما أكدت زوجته، لا أدري كيف علمت ما حدث ولكن روايتها صادقة كل الصدق..

همست فيكتوريا للقس:

– فليتعرف أيضاً بالسبب الذي دعاه إلى قتل زوجي.

فهم الجريح قولها ورد عليها:

– ارتكبنا القتل لنستولي على القطيع، وكنت أظن أن الجريمة لن تنكشف أبداً، والآن يقتضي العدل أن يعود القطيع إلى صاحبه الشرعي.

قالت فيكتوريا في سرها:

– على بركة الله.

أدار بوغزا وجهه نحوها وثبت عليها نظرته.

كانت عيناه مبتلتين، وبريقهما يتذبذب ويتكسر، وشفته العليا المشقوقة كأنما جعلت الفم كله يلتوي في تقلص عجيب.

واستطرد يقول للقس وهو بادي القلق:

– لا تتركني أموت هكذا يا أبتاه.. ضع شالك على رأسي وردد دعواتك بغفران أثامي، وإني ألتمس من هذه المرأة وابنها الصفح عني.

أشارت فيكتوريا إلى ابنها فتقدم وكرر الجريح تضرعه إليهما.

- أصفحا عني..

فقالت فيكتوريا بصوت خافت:

- لماذا يجزم بأنه سيموت فليقبض على الحياة بكلنا يديه وبعد ذلك تتولى الحكومة أمره؟

فهتف إليها الرجل وهو يحتضر:

- سامحيني.

لقد مزق الكلب حلقي، سأموت أنا أيضاً، سألتحق بنيقيفور ليبان.. فيلزمك أن تسامحيني.

قالت فيكتوريا:

- فليسامحك الله.

زمت شفتيها وصوبت إليه نظرة طويلة دون أن يطرف لها جفن.

ثم قامت ونصت عنها استنامتها لما يحدث أمامها وعاد انشغالها بهموم أخرى ونادت ابنها وقالت له:

- تعال يا غيورغيتا.

- عليك بتمشيط الجوادين كما تعلمت من أهل هذه الجهة، ثم قدم لهما علفاً... وسندفع حق القساوسة وحق كل إنسان أفادنا بعون، وبعد ذلك نستريح ثلاثة أيام ونقيم بعدها أول قداس على روح أبيك، ثم نركب جوا دينا ونمضي إلى ستينانشتي على نهر بروت لنصل بعدها إلى القطيع في راراو، وأظن أننا لو حثثنا الجوادين نستطيع والجو معتدل أن نعود إلى ساباسا هنا دون أن تفوتنا صلاة اليوم التاسع لدفن أبيك، وبعد ذلك نذهب أيضاً إلى جيجا لنستشير الراعي الشيخ إليكسا ونتفق معه على ترتيبات سوق القطيع إلى الجبل عند حلول الصيف.

وبعد أربعين يوماً نعود إلى هنا مرة أخرى ونلتمس من السيد توما مساعدتنا على أداء آخر واجب نحو الميت.

فنقيم مأدبة الأربعين على قبره، ستكون مأدبة أفضل هذه المرة، فالشواء سيكون من لحم الحملان الصغار.

وسنكتب إلى أختك مينودورا لتحضر من دير فارتيك وتعرف مكان قبر أبيها.

فإذا فعلنا كل هذا رجعنا إلى قريتنا باجورا، نستأنف معيشتنا من حيث قطعناها.

أما عن أختك

فاعلم أني أرفض كل الرفض زواجها من هذا الفتى الأحمق كبير الأنف، ابن المرأة زوجة طوبور.... مرتل الأناشيد في الكنيسة...

# سلسلة «الكتاب للجميع» صدر منها

| إسم الكتاب | إسم المؤلف |
| --- | --- |
| حي بن يقظان | لابن سينا وابن طفيل والسهروردي |
| غابة الحق | فرنسيس فتح الله مراش |
| الإسلام بين العلم والمدنية | الإمام محمد عبده |
| الأمير الصغير | انطوان دي سانت اكسوبري |
| طبائع الاستبداد | عبد الرحمن الكواكبي |
| مغامرات مونشهاوزن | رودلف ارك راسب |
| أطفال غسان كنفاني | غسان كنفاني |
| كليلة ودمنة | الفيلسوف الهندي بيدبا |
| طوق الحمامة | ابن حزم الأندلسي |
| تخليص الإبريز في تخليص باريز | رفاعة رافع الطهطاوي |
| بطل من هذا الزمان | ميخائيل ليرمانتوف |
| الدين والعلم والمال | فرح أنطوان |
| غرائب المكتوبجي | سليم سركيس |
| الأجنحة المتكسرة | جبران خليل جبران |
| حكاية إيسوب | إمام عبد الفتاح إمام |
| حول العالم في ثمانين يوماً | جول ڤيرن |
| رحلات جيلڤير | جوناثان سويفت |
| مذكرات هدى شعراوي | هدى شعراوي |
| البخلاء للجاحظ | الجاحظ |
| روائع في الشعر والمسرح | رابندرانات طاغور |
| صندوق الدنيا | إبراهيم عبد القادر المازني |
| كل الأسماء | جوزيه ساراماغو |
| مذكرات دجاجة | الدكتور إسحاق موسى الحسيني |
| حياتي | أحمد أمين |
| قنديل أم هاشم | يحيى حقي |
| مذكرات الأميرة جويدان | الأميرة جويدان |
| إبراهيم الكاتب | إبراهيم عبد القادر المازني |
| بغداد مدينة السلام | طه الراوي |
| الحب الأول | إيڤان ترجنيف |

| إسم الكتاب | إسم المؤلف |
| --- | --- |
| أرض البشر | أنطوان دي سانت اكسوبري |
| الملايين الأربعة | أو. هنري |
| في الحب والحب العذري | الدكتور صادق جلال العظم |
| رحلة ابن جبير | تقديم الدكتور حسين نصار |
| صمت البحر | ڤيركور |
| التذكار | أرسكين كولدويل |
| على باب سجن أبي العلاء | معروف الرصافي |
| قصص وحكايات خرافية | هانس كريستيان أندرسن |
| هرمن ودرونيه | يوهان ولفجانج فون جوته |
| خزين اللامرئيات | فؤاد التكرلي |
| دون كيخوته جـ١ | ثربانتس |
| دون كيخوته جـ٢ | ثربانتس |
| المواقف والمخاطبات | النفري (محمد عبد الجبار بن الحسن) |
| أمسيات قرب قرية ديكانكا | نيوكولاي جوجول |
| إسرار الموسيقى | علي الشوك |
| الخنفسة الذهبية | إدجار الن بو |
| إخطية | إميل حبيبي |
| فن التمثيل عند العرب | محمد حسين الأعرجي |
| شبح كانترڤيل | أوسكار وايلد |
| أغاني الغجر | هانزيكون فويكت |
| العودة إلى الأهوار | كافن يونغ |
| كناسة الدكان | يحيى حقي |
| في تجربة الكتابة | س. ر. مارتين |
| الإسكافية العجيبة | فيدريكو غارسيا لوركا |
| دراسات في التاريخ | أ. ج. هوبزبوم |
| عن الرجال والبنادق | غسان كنفاني |
| وصايا الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين | تقديم غسان تويني |
| الفرح ليس مهنتي | محمد الماغوط |
| الضائع من معجم الأدباء | د. مصطفى جواد |

# الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

---



---

ISBN:2-84305-835-X

9 782843 058356




## سلسلة كتب شهرية
## توزع مجاناً
## مع الصحف التالية

| | |
|---|---|
| السفير | لبنان |
| المدى | العراق |
| الإتحاد | العراق |
| البيان | الإمارات |
| القاهرة | مصر |
| القبس | الكويت |

